

مَلَايِكَةُ الْوَعْدِ
وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

العنوان: ملامح الوعي في الدعوة إلى الله تعالى
تأليف: الدكتور محمد أبو النصر عطار
ردمك ISBN: 978-625-00-7561-6
تصنيف ديوي: 213 الدعوة الإسلامية
القياس: 24×17 سم
عدد الصفحات: 394
الإخراج الطباعي: أحمد بلال بيانوني ومحمد زكريا زعتري

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1446 هـ - 2024 م

مَلَايِكَةُ الْوَعْيِ
بَارِئَةٌ
فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

ألفه

الدكتور محمد أبو النصر عطار



تقريظ العلامة المحدث الشيخ صلاح الدين الإدلبي^(١)

كتابات الشيخ أبي النصر عطار

أخي الشيخ محمد أبو النصر عطار حفظه الله بخير وعافية من الدعاة إلى الله تعالى، وكتاباته واستنباطاته في علم الدعوة لطيفة نفيسة، هي خلاصة ما عنده من تجربة طويلة في دعوة الخلق إلى الله عز وجل وتقريبهم منه سبحانه، بعد غوص عميق في اللوحات المستفادة من مدرسة النبوة في السيرة النبوية العطرة والحديث النبوي الشريف.

أدعو كل محبٍّ للتعرف على تلك اللوحات، أن يحرص على قراءتها في كتابات أخي الشيخ أبي النصر، وأؤكد على الإخوة الدعاة أن يغتنموا كتاباته التي سطرها في عدد من روائع الكتب، فهي من خير الزاد في هذا المضمار. وأسأل المولى عز وجل أن ينفع بها، وأن يجزل المثوبة لكتبتها وأن يجعلها له ذخراً يوم يلقاه.

وكتبه

صلاح الدين بن أحمد الإدلبي

في ١٤ شوال ١٤٤٥.

(١) وقد نشر الشيخ هذا المقال على منصاته الاجتماعية، وفي المجموعات العامة، فجزاه الله خيراً، وذلك بعد قراءته وإطلاعه على كتاب: «ملاحم الوعي في الدعوة إلى الله تعالى»، وكتاب: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى»، وكتاب: «هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى».

تقريظ العلامة أ. د. أحمد معاذ علوان حقي العلواني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد اطلعت على كتاب فضيلة الشيخ الدكتور محمد أبو النصر عطار «ملاح الوحي في الدعوة إلى الله تعالى»، فقد وجدت فضيلته قد نحا في كتابه منحى قل من يكتب في مثل ذلك المنحى، وأول من ألف وفق هذا المنحى الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه «صيد الخاطر»، ومن ألف في العصر الحديث وفق ذلك الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه «هكذا علمتني الحياة»، ومثل هذه الكتب لا بد لصاحب الكتاب من أمرين: الأول: أن يكون الله قد حباه بعلم نافع.

الثاني: أن يكون قد أفنى عمره في طلب العلم على يد علماء واحتك بطلبة العلم، وعاشر الناس سنين طويلة.

أما الأمر الأول فقد حبا الله تعالى المؤلف بالعلم النافع وبارك فيه.

وأما الأمر الثاني: فهو مازال في ريعان الشباب، لكنه عوض ذلك بالاستفادة من أساتذته وعلماء عصره.

ثم إن المعاناة التي يمر بها الشعب السوري صقلت شخصيته بخبرات كثيرة، والكتاب ليس وليد لحظة آنية، بل نتيجة خبرات سنوات كثيرة أخذت من تفكيره وتجربته في الحياة، فقد صب فيه تجربة كثير من علماء عصره، ومن هنا أرى أنه لا بد لكل طالب علم من الاطلاع عليه، ليزداد وعياً ومعرفة بأمراض يقع فيها بعض طلبة العلم، ومن هم محسوبون عليه، ليستفيد طالب العلم من كل تلك الخبرات ويبني عليها.

والله أسأل أن ينفع بالكتاب ويبارك في جهود مؤلفه، إنه جواد كريم وبالإجابة جدير.

.

أ. د. أحمد معاذ علوان حقي العلواني

تقريظ فضيلة العلامة الشيخ سلمان أبو غدة حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى، وعلى آلهم ومن اقتفى، أما بعد:

فقد شرفني أخي الداعية العالم الحبيب فضيلة الشيخ محمد أبو النصر ابن سيدي العالم المجاهد محمد جميل عطار - رعاهم الله وأكرمهم - بقراءة كتابه «ملاح الوعي»، فقرأته واستفدت منه، ووجدته بديعاً مفيداً محرراً محرراً، وفيه جدّة وإبداع، كما وجدته مكتوباً بروح العصر، مخاطباً شريحة الدعاة بعللها وأسقامها، مدوّناً لهم ما يناسبهم من دواء، وأنا أنصح عموم الدعاة بقراءة هذا الكتاب القيم، والاستفادة منه.

تقبل الله من أخي أبي النصر، ونفع به وكتب له القبول، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه المحب

سلمان أبو غدة

جدة ١٤٤٥/١٠/١٦

٢٠٢٤/٤/٢٥

تقريظ العالم الداعي إلى الله الدكتور عبد الجواد صباغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم تنزيله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد، سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين، الذي قال كما في الصحيحين، عن سيدنا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَيُسِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا».

وبعد: فقد أكرمني ربي - في جملة ما أكرمني به في ليالي شهر رمضان المبارك الذي ودَّعنا قبل قليل - بقراءة كتاب: «ملاحم الوعي في الدعوة إلى الله تعالى»، لأخي الحبيب الشيخ الدكتور محمد أبو النصر عطار - أكرمه الله وفتح عليه فتوح العارفين -، كتاب قيِّمٌ يُقدِّم رؤية شاملة ومتوازنة لمفاهيم الدعوة الإسلامية، ويوفِّر فهمًا عميقًا ومفيدًا للقراء الذين يسعون إلى توسيع معرفتهم، وفهمهم لهذا المجال المهم في الدين الإسلامي.

وبعد قراءتي المتأنية والفاحصة للكتاب؛ ألخص أهم امتيازاته العالية على

حسب قراءتي وفهمي المتواضعين، وهي كما يلي:

أولاً: الكتاب نتاج تجارب، وخبرات، ومجريات طويلة في ميدان الدعوة، بعيداً عن التعابير الفلسفية، والمثالية الأكاديمية، وفيه التركيز على الوعي، والتفكير النقدي في الدعوة إلى الله تعالى.

ثانياً: يبرز أهمية الوسطية والتوازن في الدعوة، فهو بمثابة بوصلة مضيئة تساعد على توجيه النفس نحو هذا الميدان الذي ينبغي لكل داعية أن يسلكه. فيرفض الانجراف نحو الإقصائيات، ويبني بدلاً منها جسراً للتفاهم المتبادل في زمن تتصارع فيه الأصوات، وتتبارى الآراء.

وفي الحقيقة: هذا التوازن لا يأتي بسهولة، فهو يتطلب شجاعة القلب، وقوة العقل، بعد الإمام العلمي لمختلف أنواع العلوم الشرعية.

وبهذا التوازن يكون الطريق نحو النور والهدى، ونمضي فيه بثقة مبتغين رضى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، ثم ما يمكن أن يُقال: خيري الدنيا والآخرة.

ثالثاً: الكتاب يُسلِّط الضوء على أهمية استخدام الحكمة والمحبة في الدعوة إلى الله تعالى، مؤكداً على أنَّ الرسالة الإسلامية تحمّل بين طياتها المفهوم الحقيقي للقدوة، وكيفية التعامل مع الآخرين بمنتهى الحكمة والمحبة.

وبما أنَّ الكمال لله تعالى، وكما ورد في الأثر: «كُلُّ أَحَدٍ يُوْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيَرَدُّ إِلَّا صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ ﷺ»، فقد كانت هناك بعض الملاحظات والنصائح

التي قدّمْتُها له، وهو بدوره جزاه الله كل خير تلقّاها بكل حب وتواضع جَمٍّ،
وَوَعَدَ على العمل بها، واستدراكها.

وفي الختام أقول:

أَسْأَلُ الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب سبب هداية ووعي، وتنبيه لكل مَنْ
يتصدّر للدعوة بشكل عام، أو كان في مجال الفتوى.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب
العالمين.

عبد الجواد محمد الصباغ

يوم الاثنين: ٦/شوال/١٤٤٥

الموافق: ٢٠٢٤/٤/١٥

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الهادي الفتاح، والصلاة والسلام على زينة الأنبياء وسيد المرسلين، وإمام الدعاة لرب العالمين، صاحب الحوض واللواء، وفخر المرسلين والأتقياء، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم من أهل الولاء، وبعد:

فقد تكرم ربي عليّ وتفضّل، ووفق بأن كتبت عدّة كُتُب في تأصيل علم الدعوة، وقد اختلفت مستويات هذه المؤلفات، حيث جعلت:

المستوى الأول: ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى.

المستوى الثاني: هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى.

ثم جاء أخوهما الثالث ليحكي بشكل أرقى، وخطاب أقوى، يختص بالدعاة، وليس لطلبة العلم المبتدئين، وهو:

المستوى الثالث: ملامح الوعي في الدعوة إلى الله تعالى.

وإخوانهم في الطريق إليهم آتون، ولكن لن يأتي الأخ إلا بعد فترة حمل كافية، وولادة وتماخؤ خلقة، من تأليف وتصنيف وتنسيق وطباعة، فاللهم أسقط علينا من رُطْبِ تيسيرك، حتى أكتب وأراجع وأدقّق وأقرّ عيناً، ويسر

عليّ أن آتي بهم قومي أحملهم، وأشير إليهم لينطقوا بإذن الله تعالى، وينشروا نور هدي الدعوة الصحيحة.

وليكن بعلم القارئ أنني ألا أكرر في هذه الكتب، اللهم إلا حروفاً يسيرة دَعَت الحاجة إليها، لتكون منهاجاً لمن قرأها بتسلسلها، ولو كان فيها التكرار لسئِم منها.

ولا أدعي أنني أتيت على أبواب الدعوة بتمامها، ولا حللت معضلاتها، ولا داويت جراحها، وإنما هي جُهدُ المُقِلِّ، مَثَلِي مَثَلُ طبيب دخل إلى بلد مملوء بالطاعون، فما قَدَرَ أن يداوي غير بضعة مرضى، أعانه الله عليهم، فما زِلْتُ أكتب في قواعد الدعوة يوماً بعد يوم، وكلما أُوغِلْتُ في الدعوة رأيت بحرًا أكبر من ظني.

قد يقال: إنك تعرضت لأمثلة من التيارات الإسلامية التي تعمل ليل نهار ونقدها، مع أن أكثر أبناء هذه التيارات لا تُقَرُّ هذه الأعمال، بل تتبرأ منها وتتصل، أقول:

المهم عندي أن الأمر قد مُورِسَ باسم الإسلام، وشاع وذاع باسم الإسلام، ويُهْمُنِي أن أنقده وأصحح العمل، وأنا ابن هذه التيارات الإسلامية، فهل يروق لنا أن ينسب هذا لديننا العظيم، أريد من التاريخ أن يسجل لي أنني أحد أبناء هذا الإسلام قد نَفَيْتُ عنه تحريفاً لِعَالٍ، وانتحالاً لِمُبْطِلٍ، وتأويلاً لجاهل.

قد يقال لي: ألم تُعِبْ في كتابك هذا على الذي نجا من لسانه العدو، ولم يسلم أخوه من نَقْدِهِ؟ فَلِمَ لَمْ تَرُدَّ على أعداء الإسلام بدل الرد على أبناء فكرك؟

أقول: إن العيب الذي ازدريته هو قَصْرُ النقد على الأحاباب دون الأعداء، وعَبَرْتُ عنه بما يليق في موضعه، أما هنا فإنني أحاول أن أفتدي بسيدي رسول الله ﷺ الذي وجَّه نصحه للقريب والبعيد، وأبعد الكافرين وإلى الحبِّ ابن الحبِّ، وَمَنْ قال له: **«وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّكَ»**.

وفي عملي بناء كثير ونقد قليل ولو إلى الأقربين، قدوتي في هذا القائل: **«أَفْتَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ»**.

فما أدعي أن كل أبناء التيار يؤمنون بهذه الممارسات الخطأ.

أما عن أسباب كتابة هذا الكتاب، فإنها أمور عدة:

- الإفادة من تاريخ المشايخ وخُبرَاتهم في الدعوة.

- تقديم الجديد مما أُفِدْتُه، وإلا فلا حاجة للكتابة.

- تقديم النصائح والتوجيه الخاص بالدعاة، وليس الصالح لكل مسلم: ولطالما كتب الكُتَّاب في أخلاق الدعاة، والواقع هي: أخلاق المسلمين عامة، وإن أيَّ مسلم يقرأ كتاب **«رياض الصالحين»** يجد الكتاب من أوله إلى آخره يتكلم عن صفات الكمال، ومكارم الأخلاق، لكن الصفات التي تخصُّ الدعاة تزيد على هذه الأخلاق أمورًا وآدابًا وموازنات ومزايا.

وتعجَّبت من أخ أراد أن يحاضر في دورة عن فن الدعوة، فجعل يسرد صفات الداعي:

الابتسامة، لين الجانب، الرد الحكيم، الجواب المحكم، التزود الكافي،

الخبرة الكافية، الصدق، الأمانة، الفطنة، تجاهل أخطاء الناس.

فقلت له: ماذا لو طلبت منك أن تحاضر في المعلّم الناجح؟ ألا تصلح هذه الدورة بالذات؟

ماذا لو قلّبتنا الدورة إلى التاجر الناجح؟ ألا تصلح الدورة بعينها؟

ماذا لو حاضرت بالأب المربي؟ ألا تقدم هذه الدورة؟

ومثلها الكتب المتألق.

ثم أعقبتها بقولي: هذه صفات عامة بجميع المسلمين، تصلح للجار الصالح، والصهر الكريم، والشريك الناجح، وغير ذلك، ولكن عندما أطلب منك أن تحاضر في أخلاق الداعي، فمن الضروري ذِكرُ بعض هذه الصفات، ولكن لا يصحّ أن تكون الدورة كلها هكذا، ثم تسمى: «دورة في أصول الدعوة».

ولن أدعي يوماً أنني أنا المؤلف لهذا الكتاب، إنما هو خلاصة تجارب شيوخي، وممارساتهم الدعوية، فقلعة الدعوة بُنيت في نفسي حجراً حجراً على يدي شيوخي، وأعتذر إن كان قد صدر في الكتاب ما يوجي بلغة الاستعلاء، فسرد النقد، وتسليط الضوء عليه يوجي بذلك، ولا سيما أنني الراصد لهذه الزلات، الجامع لها، المنبّه عليها، مع وجود الحسنات، ولكن الذي يبقى في الذهن جانب النقد.

ومن له اليد الطولى في بناء هذا الكتاب شيوخي وإخوتي وأحبائي، الذين تصدقوا علي بثمانين وقتهم، وتكرّموا بقراءة الكتاب بتمامه أو بعضه،

ووضعوا بصماتهم، وأبدوا انتقاداتهم، وكنتُ قلت لكل واحد منهم: اقرأ كتابي هذا قراءة العدو لعدوه، المترصد للخطأ، والصياد للزَّلَلِ، فإني أحبُّ أن أسمع النقد من حبيبي لا عدوي، ولا تأخذك بي رافة، فكان من جُلَّهم هذا النصح الحبيب الغالي على قلبي، فقد لحظت من كل أحد منهم أنه لم يسكت عن زلة، ولكن بثوب الحبيب الشفوق، أخص منهم بالذكر سادتي وتاج راسي الشيخ الصدر البدور الأساتذة:

والدي الشيخ محمد جميل عطار، عاطف بيانوني، أحمد معاذ حقي، جابر بن نوري مصري، عبد البديع نيرباني، سلمان أبو غدة، صلاح الدين إدلبي، عبد الجواد صباغ، حسن يوسف، أحمد خلوف أديب، نور الدين عطار، وغيرهم.

وتكرم بتقريظه أصحاب الفضيلة: الدكتور أحمد معاذ حقي، والدكتور عبد الجواد صباغ، والدكتور صلاح الدين إدلبي، والشيخ سلمان أبو غدة.

ويلاحظ القارئ الكريم أن هذا الكتاب يخاطب شريحة ليست مبتدئة، ولم أكن لأرسم هذا الكتاب إلا في فترة مطولة جدًّا، حيث كنت أرصد نجاحات وإخفاقات وملحوظات الدعاة، وأضم كل ملحوظة إلى أختها، حتى يسرها ربي فكانت رسالة متكاملة من عدة مزايا، فحاولت - فيها كما حاولت في أخواتها - أن أكتبها وأستشهد بالسنة النبوية قدر الاستطاعة.

فقد جمعت في هذا الكتاب نوابع من خبرات علماء حدثوني، وقصصًا من أنجع القصص التي مرت بي أو معي أو حدثني الثقة بها، وكنت وما زلت

أكتب وأنظر في علم الدعوة إلى الله تعالى، ولكني مُنَظَّرٌ من القسم الثاني، لأن المتكلم نظرياً على قسمين:

الأول: أكاديمي ولد وعاش ونما في التنظير، فهذا ليس لديه ممارسة دعوية ترشده، إنما مثله مثل الذي دَرَسَ ألف كتاب في إصلاح الطائرات ثم دَرَسَ المادة النظرية، ولكنه ما أمسك بقطعة من طائرة، ولا رأتها عيناه.

الثاني: صاحب عمل وممارسة يومية، فخيرته النظرية ولدت من رحم معاناته وتجاربه العملية.

وجمعت في هذا الكتاب أطرافاً تتعلق كلها بالوعي، فقد تكون الفتوى صحيحة، ولكن من الوعي ألا يصرَّح بها، أو يكون المطلب حقاً ولكن ليس من الوعي الكلام فيه.

وقد حدثني شيخنا الشيخ عبد المجيد بيانوني، أنه كان يدرِّس في إحدى الثانويات في حلب، ومعه صديق دراسته وتدرّسه وعُمُرُه شيخنا العالم التقي الشيخ محمد سعيد بن أمين إدلبي (ت: ١٤٣٥ هـ) رحمه الله، وكلاهما يدرِّس مادة التربية الإسلامية، وكان معهما شاب قلبه كالحليب المصفى، يجمع بين التقوى والعمل، ولكنه حاسر العقل من الوعي فيما بدا لهم بعدها، وكان الأخوان يَحَذَرَان جاسوساً معلوم التجسس لهما، قد اتخذ الإخبارات عنواناً زائفاً، وتجمّل بالخلق الحسن تصنعاً، وتشاور الأخوان بالواجب عليهما تجاه صديقهما التقي، وسارعا بالنصح دون تَرَيُّثٍ، محذّرين إياه من ذاك الرخيص المتجسس، وإذا بالتقي غير الواعي يأخذ الكلام على عواهنه، ويحمّله ويطرّحه في جِبر الجاسوس طرْحاً عنيفاً ويسأله: هل أنت جاسوس كما أُخِبرْتُ عنك؟

فاعتذر إليه، ونفى التهمة عن نفسه، وصوّب عينيه تجاه مُدْرِسِي التربية الإسلامية، ولم يكن لديه متّهم غيرهما، ووصلت الصورة إلى الأخوين كما هي، فلما عاتبا ذاك التقي كان رده: أليس الله أمرنا أن نتثبت من كلام الفاسقين؟ فقد قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحُجُرَات: ٦].

مثل هذا: حفظ الآية ولم يُؤت الوعي الذي في ظلالها، وما سأل نفسه: وهل الجاسوس يخبرني عن نفسه أنه كذلك؟ فكان هذا الكتاب للحديث عن الوعي الدعوي، وليس عن تأصيل الدعوة.

وقد جعلته في أبواب ثمانية كأبواب الجنة، تكلمت فيه عن: فهم الدعوة، وظلال الدعوة، وتقديم الدعوة، والعلاقة مع الدعاة، والعلاقة مع المدعوين، والقيادة الدعوية، وسلوك الداعي، والدعوة مع المعارضين.

وهدي في الأول من هذه المؤلفات إفادة أبناء عصري من الشباب في مجال الدعوة، لأن الإنسان يولد بلحم غض وعصب وعظام وعقل، فيكبر وتنمو كلها وتقسو وتتصلب شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل إلى حدٍّ تتوقف فيه العظام عن التصلب، ويبدأ اللحم بالترهل، لكن العقل يستمر بالتصلب، حتى يصل إلى حدٍّ تُبْنَى الطبقة الكلسية حول العقل، فلا يكاد المرء يغيّر من قناعاته فكرة في السّنة، إلا مَنْ حَفَّتْه عناية الله تعالى.

هذا: وأسأل الله تعالى أن يُنْظَرَ إلى كتابي بعد حقبة من الزمن أنه ليس

فيه كبير تميز، تدرون لم؟ لأن هذه الأفكار إذا انتشرت وعمّت لم يعد يُنظر إليها نظرة الإجلال الزائد، وكنا ننظر إلى كتب بعض المصنفين على أنها آية في الإبداع، وفيها ما تتطلع إليها نفسك وزيادة، ثم خلف من بعدنا خلف أصبحوا يرون أنها مفيدة ولكن ليست بذاك الحجم، وأن كلامها معروف.

قلت لبعض الشباب: ما ترونه معروفًا كنا نتخاصم في المجالس بيننا - نحن طلبة العلم - وترتفع الأصوات، وتُقْتَل الليالي - ذوات العدد - ونحن نتحاور في أمر أصبح الآن بدهيًا لدى عقلك، وكُلُّك مُقْتَنِع به.

اللَّهُمَّ إلا من درّب نفسه على اللين والمرونة، وكان مستمرًا في تعديل الأفكار، وتصحيح المسار، حتى صار التنازل عن القناعات سهلًا على روحه.

هذا، وأسأل الله تعالى قبول جهد عبده المُقِلِّ، كما أسأله جل شأنه الثبات والترقي والهداية إلى أحسن الاعتقاد والأقوال والأفعال.

المؤلف:

أبو النصر عطار

كتبت أصل هذه المقدمة في الروضة الشريفة من المسجد النبوي، في ساعات التجلي من السحر، عقب الحج في أواخر ذي الحجة سنة ١٤٤٤ هـ.



فهم الدعوة





طريق الدعوة متعب

أجل والله: إن العلماء هم ورثة الأنبياء، بحلو هذه الورثة ومُرَّها، بما فيها من كرامة في الدنيا، وشفاعة في الموقف، ورفعة من النبيين في الآخرة، وبما فيها من إرث بعض متاعب الأنبياء والمرسلين، من تكذيب وطرده وإيذاء جسد وسمعة وغيرها.

هذا وإن طريق الدعوة ليحوي العجائب، منها:

أ - حُفَرٌ فِي الطَّرِيقِ

يطيب لبعض الشباب المتعلم لفن قيادة المركب حديثاً ألا يزحزح المَقُودَ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، فتراه يمشي في الطريق بأسلوب أَهْوَجٍ يتحدى بها الحُفَرَ ومطبات الطريق، وأشدُّ منه سذاجة مع هوجاء مَنْ استعمل هذه العقلية في الدعوة، وهو يعلم أن جُلَّ الحُفَرِ مما عملته يدا عدوه، ومع ذلك فلا يحرك المَقُودَ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، ولا يبطئ عند المطب المفتعل، ولا يتحاشى الحفرة التي تَضُرُّ بل قد تُكْسِرَ رجله في الدعوة، ويتعطل عن الاستمرار والمضي، ومثل هذا يموت أول الطريق - ولو كان موتاً دعوياً لا حقيقياً - وتنتهي صلاحيته، ويتجاوزه الزمان، وما أسوأ العناد.

ب - بُنْيَاتُ الطَّرِيقِ

إن لكل صاحب مشروع طريقاً عريضاً يمضي فيه ليصل من خلاله إلى نجاح مشروعه، وتظهر بين الفينة والأخرى طُرُقٌ صغيرة جانبية، وهي تُغري بجمالها، وتختلف عن الجادة الأم اختلاف الشابة الفتية عن أمها العجوز

الشَّمْطَاء، ومَحْطَّط المشروع العارف لحذافيه يعرف أن خروجه إلى بُنَيَّات الطريق سَيَحُول بينه وبين الهدف المنشود، ولن يتخلى عن الطريق الكبير العريض لحظة، ولن تغريه بُنَيَّاتُهُ الجميلات.

فمن الناس من سلك الدعوة من شارعها العريض، وفي سيره مرَّ على زُقاق التفرغ للتجارة وهو يَلْمَعُ، فإن سَلَكَه فلن يستطيع الرجوع إلى الدعوة، وإن استغنى عنه وصل، ولا يُفهم من كلامي أبدًا أنني ضد التوفيق والتشارك بين أعمال التجارة، مع إفراغ الجزء اليسير من الوقت لها، والخط الدعوي العريض الكبير، فذاك أومن به كل الإيمان، لكن الحديث مُنْصَبٌّ على سلوك الطريق الذي ظاهره الورود، وباطنه الصوم عن العلم والدعوة.

ألا إن سلعة الدعوة غالية، ألا إن الدعوة لا تصل إليها من طريق مريح مُعَبَّدٍ، فمن وقَّأها حقها من التعب والنَّصَب وصل، ومن تفلَّت وآثر الراحة فإن الطرد منها هو المأوى.

لست الوحيد في الميدان

ومن الناس من تُعْجِبُهُ نفسه، ويقدِّر كل ذرة يقدمها في الدعوة، ويرى عمله جبلاً تنوء بحمله العباد، وأما غيره في نظره: فجُلُّ الناس مُهَدَّم، والقليل من يبني مع الخطأ الكبير، والأقل من يقدح ويكدح ولكن في عمله خلل، أما نفسه فهو محور الصواب في الكون، والوزن الذي يقاس بعمله كل عمل.

حدثني أحد أكابر العلماء من تلامذة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ) رحمه الله، قال: أراد بلد عربي إقامة مؤتمر عن المذاهب الإسلامية، فأرسل المسؤول عن المؤتمر دعوة إلى علماء باكستان يدعوهم إلى المؤتمر،

لكنه فوجئ بالرد القاسي منهم، وأبوا أن يحضروا المؤتمر، وعلّلوا امتناعهم عن الحضور أن بعض علماء البلد يطعنون بالإمام أبي حنيفة (ت: ١٥٠ هـ) رحمه الله، وسألوا: كيف نحضر ومنكم من يسيء إلى رمزنا الأعظم، بل في بعض جامعاتكم تخرّج عدد من الطلبة وأطروحاتهم في الطعن بالإمام رحمه الله تعالى.

حَارَ المنسّق للمؤتمر في الأمر، ولا يمكن في حال من الأحوال أن يتم المؤتمر وعلماء باكستان لم يحضروا.

شاوَر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، فتدارك الموقف بفطنةٍ، وقال له: أنا أرسلهم ليحضروا، ولكن ائني بشاب نايه تُرسله إلى باكستان، ليسلم الدعوة باليد، وكتب الشيخ عبد الفتاح رحمه الله بيده كُتُبًا للعلماء بأسمائهم، يدعوهم فيها إلى المؤتمر، فَلَبَّوْا الدعوة عندما جاءتهم من عالم محب للإمام أبي حنيفة رحمه الله، ثم رجع الشاب إلى بلده.

فأرسل الشيخ عبد الفتاح رحمه الله إثره وجلس معه يطمئن عن سفره واستقبال الشيوخ له، وردهم عليه، وليسمع ملخصًا عن السفر كاملاً.

- الشيخ عبد الفتاح: كيف وجدت باكستان وعلماءها؟

- الشاب: وجدت أننا مصابون بغرور الاهتداء، لأنني اكتشفت أن في العالم أناسًا كثيرين، وعلماء عظامًا يعملون في خدمة دين الله تعالى غيرنا.

البعد جفاء، قاتل الله حجاب البعد ما أَصَفَقَه!

لا يستوون

لقد شاءت حكمة الله أن يجعل الخلق درجات:

فالملائكة غير متساوين في الرتبة والفضل، فليس جبريل كسائر الملائكة، وكذلك الأنبياء، وقد قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

وكذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]، فليس الأقرع بن حابس، وعيينة ابن حصن الفزاري، ومעقل بن سنان، والذين نادوه من وراء الحجرات كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومثلهم البشر يتفاوتون في المراتب والفضل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فكذلك الدعاة إلى الله تعالى على درجات، وكذلك المدعوون لا يستوون في الفهم، ولا في التلقي، ولا في الاستجابة.

ليسوا سواء

وقل مثلها في غير المسلمين، فالكفر درجات، كما أن الإيمان درجات، فليسوا سواء:

كافر نفع الإسلام ولم يسلم، مثل: أبي طالب.

وكافر محايد لم ينفع الإسلام ولم يضره، مثل: الحارث بن كَلْدَةَ.
وكافر آذى النبي ﷺ، مثل: أبي لهب.

لا يستوون عند الله، ولسنا نعاملهم في الدنيا معاملة واحدة.

من الوعي في الدعوة أن تعرف دركات الكفر، فلا تضع الكافرين جميعاً في سلة واحدة، سواء منهم المسالم، والقاتل، والمجرم، والمساعد، وهذا خلط ينافي منهج القرآن الكريم، ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

ومن طريف القصص المبكية في مسألة كفر دون كفر، أن رجلاً في كربلاء وقف في قارعة الطريق، ومعه حمل غير خفيف من المتاع، وهو يقصد من يساعده في حمله على عاتقه، فمر به شخص، فخاطبه متلطفاً يلتمس منه أن يرفع له متاعه، فانحنى الرجل - فلامس المتاع أو كاد - وهو ينادي: يا حسين! امتعض صاحب الحمل، وتغير لونه، وانتفخت أوداجه، فلم يملك نفسه حتى طلب منه ترك الأغراض، وحقَّ له ذلك والله، فهذا النوع من الاستغاثة حماقة يئس عن إيغال في طريق الجهل المظلم.

تعجَّب منه الرجل وأبدى استعداده، فاعتذر له ثانية بحزم وجزم.

وهو في وهلة وذهول وقلْبُهُ يردد قول القائل: «العلم بصر، والجهل عمى»، إذا برجل ثانٍ يمر أمامه، فتوسم به خيراً، وما تردد في طلب المساعدة منه، فانحنى ليأخذ الأغراض من الأرض وشفته تدمم بالكلمة الأولى نفسها - يا حسين - زادت صعقة الرجل، وطلب بغضب منه أن يترك الزاد والمتاع.

وجاء الثالث: وتكررت الحادثة مما أشعلت في نفس المسكين حسرة كأنها جمرة تغلي.

ثم جاء آخر: وما إن سمع الطلب إلا وقد بادر إلى المتاع يحمله، وهو يصيح من سويداء قلبه: يا الله!

تهلل وجه الرجل بشراً، وفتح عينيه وذراعيه يُلْفُهُ بهما، ويخاطب سويًا في زمن المرض والعدوى والوباء: بارك الله بدينك! بادره قائلاً: ما السبب؟

أجابه: ربك يشهد أن ثلاثة قَبْلَكَ طلبتُ منهم هذا الطلب ولكنهم صدموني بقولهم أجمعين: يا حسين، أهكذا العبادة؟

حَسَبَل الرجل السامع وبدت الحسرة في عينيه قائلاً: أَوَأَمْلِكُ وقد انسلخ الفهم منهم، أهكذا قدر الحسين في نفوسهم؟ أَيْسْتَغَاث بالحسين في مسألة حقيرة كهذه! إن الحسين لأرفع من أن يستغاث به في أمر تافه، لو كان على الحق لاستغاث بالله لهذا الحمل الحقيق، ووفر الاستغاثة بالحسين للأمر الجلل!

قد يستغرب العاقل حدوث هذا وأمثاله، ولكنه لو تبصَّر لأدرك أن الجهل دركات، كما أن العلم درجات، وأن العصاة أنواع، هناك العاصي النادم، والعاصي المعاند المجاهر، والكافر اللئيم الخبيث النفس، والكافر المسالم والمتحَبِّب الذي يقدِّم الخدمة، فإياك والخلط بينهم.

تعمَّق في تحليل المشكلات وإلا سقطت نتيجتك

يأتيك من يدعي أنه مصاب بالعين، تسأله: كيف عرفت؟ فيقول: لم أوفَّق في عملي قط.

وبعد عِدَّةِ أسئلة تجد أنه ينام إلى منتصف النهار، وأصحاب العمل لا يحتملون هذا الغياب فاعتذروا إليه، وهكذا دائماً يعمل، ويُطْرَد، ثم يُعَيَّرُ العمل، ويقصّر، ثم يطرد، ثم يدّعي أن السبب ضَرْبَةُ عين من حاسد! والسبب الحقيقي غير ذلك.

تَدَّعي أنها لا تسمع من زوجها الكلمة الصالحة، ولا ألفاظ الغزل، وكلما دخل البيت بدأ التَّكْدُّ والتعب، ثم لا تلبث أن تتعمق في الكلام فتكتشف أنها السبب الذي أظلمت بها حياته، فبمجرد أن يدخل بيته يقع في زنازة عذاب، يَتَجَرَّعُ فيها كؤوس المرار!

لقد تغيَّر السبب، فتغيرت النتيجة، وكنتُ سأعظ الرجل، فالتفت إلى المرأة.

وتسأل عن امرئ: لم لا يوقِّق؟ فيبادر أحدهم ليقول لك: هو عاقٌّ لوالديه. فتسأل: ولم أرى فلاناً ناجحاً في العمل وهو عاقٌّ لوالديه! وهل كل أصحاب الشركات العالمية من الكفار والملحدين كانوا بآبائهم؟ أم للموضوع أسباب أخرى؟

أو يجيبك: لأنه تارك الصلاة! وهل أصحاب الشركات الكبرى من الكافرين هم من المصلين؟ فيزيد الطين بلة: ويقول: ذاك كافر. الله أكبر، ألا ترى أن هذه دعوة للكفر بطريق مُبْطِنٍ؟

أخفقت امرأة في العلاقة مع زوجها، فصوّر لها بعض الأغرار أنه بسبب عدم أخذ أوراد الصباح والمساء، فالسؤال: وكيف نجحت فلانة في حياتها

الزوجية، وهي لا تصلي أصلاً؟

ثم تكتشف أن هناك أسباباً أخرى غير الصلاة، تتعلق بالأخلاق، أو لين الجانب، أو العِقَّة وعدم الطمع، أو الخدمة مع اللطف، وهي أسباب لها أهميتها، إلى جانب التقوى.

وما حال الصحابة عنا ببعيد، فقد سأل أبو ذر النبي ﷺ أن يسلمه منصباً، فاعتذر منه، ووصفه بالضعف، ولم يكن ضعيف تقوى، بل كان في القِمَم، ولكن الأسباب التي تعاطاها علي بن أبي طالب في قيادته لم تكن مجمعة في أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والذي أراه: أن ما يجب إيصاله للناس أن الحياة الدنيا تقوم على أسباب وماديات، فإذا انضم إليها التقوى كانت أُنْجَحَ وَأُنْجَحَ، وأبعدَ عن الشر وأسلم، وإن لم تتوافر الأسباب فلن تفيد التقوى وحدها، وربما تفيد الأسباب وحدها.

ومثالها: التجارة تقوم على أسباب مادية، فإذا خالطتها التقوى كانت أُنْجَحَ.

والأسباب وحدها تصنع التجارة - إن أذن الله تعالى بذلك -، لكن التقوى وحدها لا تصنعها، والآخذ بأسباب الزواج يتزوج وينجب، فإن كان تقيّاً كان زواجه أُنْجَحَ، وإن كان فاجراً فهو أدنى، ولكن التقي الجالس في بيته دون تَعَاظٍ للأسباب لن يرزق بالولد من دون زوجة مهما عمل.

فما بَالُ بعض الناس يربط كل أمر بالتقوى وحدها! بل يزيد القصيدة بيتاً بضرب أمثلة بفلان وفلان، جاءه الرزق من غير تَحَرُّكٍ، وجاءه المال من

غير سعي، وهذا سلوك مصادم لشريعة الحبيب ﷺ مصادمةً تامة.

ليست الوحيدة، ولكنها القاصمة

قد يقال: إن بعض الشباب نفر من دين الله بسبب ضيق العيش.

أقول: إرجاع الأسباب إلى سبب واحد خطأ من أخطاء التفكير، يوصل إلى نتيجة مشلولة.

لا أشك قيد أُمثلة أنَّ للموضوع أسبابًا كثيرة، ولست أُجملُها في سبب، ولكني أسأل إخواني الدعاة عن أحد الأمثلة: ألم يكن لكم أثرٌ في إغراق الناس بأحاديث الشام بطريقة تورث التكاسل، وتضع النصر نصب أعينهم، ويُقسَم فلان من وعظاظ التلفاز أنه يجد نصر الله بعينه، وأنه سيصلي في الجامع الأموي بعد أيام، وتمر الأيام والسَّنون، والوضع يزداد أزمة بدل الوقوف؟

ما حال الشاب الذي سمع هذه الأحاديث وهذه الأيمان والنذور؟

أمَّا الذي تعمق في تحليل المشكلة، فإنه لم يقع في الحرج، لأنه وصف للناس ما يجب عليهم، وكيف ينصرون الله تعالى، وما هي أسباب النصر، ومن أين يبدأ عمل الصف المرصوص، وعَلَّمَهُمْ أَنَّ سُنَّ الله تعالى في الكون لا تحابي الأنبياء والمرسلين، وعَلَّقَ النصر وكفالة الله تعالى على هذه الأسباب، وعَلَّمَهُمْ أَنَّ نصر الله لا يأتي إلا بعد هذه المقدمات.

فما نجح مَنْ نجح إلا بتحليل المشكلة بصورة دقيقة، ووضع اليد على الجرح، ثم وصف العلاج، وما من طبيب يصف الدواء بناء على نظرة سطحية، أو توقع مبنيٍّ على ظن، من غير فحص، ووضع اليد على العلة بدقة

إلا سقطت نتيجته، وأخفق في علاجه، وكلما زاد في تحليل المشكلة زاد صوابه في تعيين الدواء، ودنا منه علاج المصاب.

الموقف، وطريقة عرض الموقف، وتفسير الموقف

سأحكي لكم عن أمر له إسهام عجيب في قَلْبِ الحقائق، وذلك ينبني على الفرق بين: الموقف، وعرض الموقف، وتفسير الموقف.

الموقف: طلب أحد الشيوخ من تلميذه أن يُعْفِيَ لحيته، فما استجاب التلميذ، وترك الشيخ لأنه لا يريدُ ذلك، فسارع الشيخ إليه ووصله بعد أن هجره التلميذ.

١- عَرَضَ هذه الحادثة محبًّا للشيخ فقال: إن فلانًا من إخواننا ترك حلقة الشيخ من أجل سُنَّة، فجاء شيخنا إليه وأعادته إلى الدرس والحلقة، وما تركه للشيطان.

٢- وعرض الحادثة مبغض للشيخ فقال: إن شيوخ آخر الزمان مَنْ إذا طلب من تلميذه ولم يستجب تنازل الشيخ للطالب، وبدل أن ينصاع الأصغر للأكبر، فقد عَكَسَت الصورة.

أ- فَسَّرَ محبُّ هذا الموقف بقوله: ما أبعد نظرَ شيخنا في الدعوة إلى الله، إن شيخنا طلب من أخينا فلان أن يطلق لحيته، ولكن أخانا ضَعُفَتْ نفسه أمام هذه السنة، فترك مجلس شيخنا، فلما علم الشيخ صعوبة إطلاق اللحية على هذا، وعلم ترك التلميذ حلقة العلم من أجل رغبة ضَعُفَتْ نَفْسُهُ أمامها، رَتَّبَ الشيخ أولوياته، وقَدَّمَ الأولى على الأقل، والقطعي على الظني، وأوجبت

هذه الدقة على شيخنا أن يَصِلَ التلميذ، فلا حرج من ترك اللحية، فهي أقل ضرراً من ترك اللحية والجماعة المربيّة كلياً، أما وقد فقدنا الأمر الصغير، فلن نَفْقِدَ بِجَرَّائِهِ أَحْداً، ونتركهُ لتخاطف الذئاب الضّارية من دعاة الانحلال، وإن بقاء الأخ بين إخوانه أدعى لهدايته وثباته، أما تركه فسينزاح عن الصواب خطوة خطوة.

ب - وفسر المبغض الموقف بعبارة: شيوخ آخر الزمان، ليس لأحدهم دَالَّةٌ على تلميذ أن يطلبَ منه طلباً، ولا بأس لديهم أن يردَّ ولده أمره، ويزيدُ العلقَمَ حرارةً فَيَدْعُ حَلَقَةَ الشيخ، ولكنَّ حظوظَ نفس الشيخ تمنعه أن يفقد أحدَ المقبّلين ليده فيتنازل عن سنة رسول الله ﷺ، مقابل ألاّ يخسر قُبْلَةً يد.

انظر الفرق الهائل بين ذات الموقف الذي أخبرتكم عنه بسطرين، وبين آخر صورة وصلت إلينا مع التحليل، فهي مع تحليل المحب: صورة بطولة ونجاح لكبير يؤلّف قلب ولده كي لا يخسر نفساً طاهرة، وهذا بُعْدُ النظر في الدعوة، يتنازل عن الجزئيات فداء البقاء على الكليات.

وهي من المبغض: صورة كثيبة لمن قدّم هوى نفسه على سُنّة نبيه، والموقف صادر من ظاهره العلم والتربية.

إذا قرأت أو سمعت موقفاً، فحاول أن تقف على الحقيقة الأولى من غير بهارات عرض، ولا لظى التحليل.

قَطْعُ المَوْقِفِ عَن جَذَرِهِ وَمَا يَلُودُ بِهِ

وشتان ما بين قولي: فلان رفع صوته في وجه أبيه، وبين أن أقول: ما رفع صوته في وجه أبيه طول عمر دام أكثر من خمسين سنة إلا مرة واحدة، والله يغفرها له، ولعل أباه سامحه، والله في الآية التي أدب بها أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نَعَتُهُمَا بِالْمُؤْمِنِينَ، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

إن الرجل الذي كان يُؤْتَى به في الشَّرَابِ قد شرب دون أي مِرَاءٍ، ولكن شتان ما بين قولي: إنه صحابي شرب الخمر مرات، وبين أن يقال: إنه كان من أهل الجاهلية، وكانوا يُدْمِنُونَ الخمر، فلما دخل الإسلام، تاب من كل أدران الجاهلية، وإن كانت قد زَلَّتْ قدمه فشرب الخمر أكثر من مرة، والنبي ﷺ أعطاه وسام شرف، وشهادة سَامِقَةً بقوله: «قَوْلَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١).

والوجه الأكمل والأليق أن أقول للناس:

كان أهل الجاهلية يضعون مَوْؤَنَةَ الخمر في بيوتهم، ولا تكاد تدخل بيتًا من بيوت الجاهلية إلا وفيه جِرَار الخمر، وجميع أفراد المجتمع مدمنون خمر، ولا يكاد ينقضي عجب الناظر، إذ يقول: كيف استطاع هذا المجتمع أن يترك الخمر، من خلال ثلاث آيات، فنزلت الأولى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٠.

وَالْمَيْسِرُ قُلٌّ فِيهِمَا إِنَّمْ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴿البقرة: ٢١٩﴾ والثانية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] والأخيرة حَرَّمَتْ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

بل يندهش المرء إذا علم أن عدد الصحابة يصل إلى قرابة ١٤٠ ألف صحابي، على مدى ٢٣ سنة، ولم يثبت شرب الخمر عن خمسة من الصحابة بعد تحريمها، ألا تتعجب لهذا المجتمع المنضبط؟

أيستطيع أحد اليوم أن يُقْنِع بترك الدخان أو الخمر أو المُخَدَّر عشرين بالمئة من المُدْمِنِينَ؟

ومثلها تقول في السرقة، فيا لله كم الفرق شاسع بين أن تقول: إن صحابياً غزا مع النبي ﷺ، وَغَلَّ شَمْلَةً، وأخبر النبي ﷺ عنه أن الشملة تشتعل عليه في نار جهنم، وبين أن تقول: لم تثبت السرقة في جميع حياة النبي ﷺ لجميع صحابته وهم بعشرات الألوف إلا عن بضعة، منهم هذا!

أتكون هذه الصورة كذلك؟ لا يستويان مثلاً.

من سنن الله في مشروعك

السنن الإلهية في الدعوة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن في ذات الدعوة، وسنن في الدعاة، وسنن في المدعوين: وهاك التفصيل:

سنن في ذات الدعوة:

١- راجع نفسك: هل أحكمت الأسباب والأساليب؟ فإن كان كذلك فلا تنصدم إذا لم يستجب أحد، ففي الحديث: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(١).

٢- تعمل بما لديك من أسباب متوافرة، فيفتح الله تعالى لك أسباباً ما كنت تعرفها.

٣- تُرْسُ الدعوة كالحنطة في الأرض، فلا تدري في أيها البركة والنبات، وأيها تكون أمة لتصبح بداراً لعام آت، ثم تنتج أرضاً كاملة بسببها.

٤- الداعي يبلغ على قدرة استطاعته، والله يبلغ الباقي بحكمته بما يبهـر العقول، فعليك الأذان، وعلى الله البلاغ.

٥- لا رسوخ للدعوة المشوّهة: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]. فشتان ما بين دعوة الله تولاهـا، وضدّها الله حاربها.

حُفَّت الدعوة بالمكاره، ومعها بعض اللذائذ، ولكن المصير غالٍ، فَلَذَّةُ الروح تطغى على ألم الجسد، فالجسد يتعب، والروح لا تشبع، كما قال محبّ يخاطب حبيبه: «عَذَابُهُ فَيْكَ عَذْبٌ، وَبُعْدُهُ فَيْكَ قُرْبٌ»، وكما قال آخر:

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٧٥٢.

عَذَابُ الْحَبِّ لِلْعُشَّاقِ عَذْبٌ وَأَعْظَمُ لَذَّةٍ فِيهِ الْبُكَاءُ

٦- دوام الحال من المُحَال، فلن يبقى حال على نفسه، فلن تستمرَّ شدة على داع، فاصبر، ولن يستمر العز، فلا تفرَّط فيه.

٧- الدعوة النَّفَّاذة تكون في الشباب والصغار، فإن أردت نهضة دعوية فكرِّس كلَّ الجهود فيهم.

سنن في الدعاة:

١- يصرف الداعي إلى الله في سبيل تخصصه من مال وجهد ووقت أضعاف ما يصرفه أصحاب الاختصاصات الأخرى، وفي الغالب أنه لن يستفيد أموالاً من الدعوة كما يستفيد أصحاب الصنائع، ومع ذلك ترى عناية الله بِمَنْ تفرغ للدعوة، فمن اشتغل بالله، كفاه الله أموره.

٢- الداعي إلى الله وارث نبوي بكامل التركة: بالعز، والتكذيب، والابتلاء، والرفعة.

٣- لن تحصل على دعوة بغير تعب ونَصَبٍ.

٤- العاقبة للدعاة المخلصين: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

٥- يصادف الداعي عجائب، منها: قد يخذله ابنُ دعوته، وينصره عدوُّها.

٦- إحكام الأساليب الدعوية لا يعني ضرورة النجاح، لأن الأمر يتعلق بالمتلقي أيضاً.

٧- أنفدُ الناس دعوة من التزم بما يدعو إليه.

سنن في المدعوين:

١- لن يستجيب كل مدعو على الرغم من حاجتهم للدعوة وبُعْد بعضهم عن الله تعالى، وعلى الرغم من صفاء الدعوة.

٢- بعضهم ينكر الدعوة، ويعرف أنها دعوة حق: ﴿وَحَدُّوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

٣- وبعضهم يعلمون صدق الداعي، لكنه يجحد عنادًا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

٤- سيراوغ أمامك المُرْجِفُونَ إن تكلمت معهم بكلام وسألتهم سؤالًا فأجابوك بغير الجواب اللازم، قال تعالى في حكاية حادثة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ (٢٥) قَالَ رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٩].

٥- ليس كل أتباع الدعوة مخلصين، بل فيهم المنتفع، وفيهم من تخلَّق بخصلة من النفاق: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

٦- في الدعوة أناس مَيَّالُونَ إلى تديُّنٍ ليس فيه أمر ولا نهي، ولا شِدَّة

ولا تكليف، ولا بذل ولا عطاء، يحبون تدوين الكلام أكثر من تدوين الحركة وبذل المال، فإذا طُلب منهم البذل في الله تعالى دارت حَمَالِيْقُ^(١) أعينهم.

٧- التعب شديد لهداية الدفعة الأولى، لكنه يسهل كلما امتدَّت المدة، فقد تتعذب كثيرًا حتى يستجيب بِضَعَّةٍ أشخاص في سنوات طويلة، ثم يفتح باب قبول الناس للدعوة فيدخلها أعداد كبيرة في أزمنا قصيرة.

٨ - ستجد من يعارض الدعوة لأنها جديدة تنسف الماضي، وليس لديه سبب آخر، حجتهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

٩- لا يُهْلِكُ الله تعالى الكافرين جميعًا على الرغم من عنادهم، لأن الحياة ليست دار جزاء.

الفتوى كالثوب يصلح لأجساد دون أخرى

سئلت كَرَّاتٍ ومرات عن سؤال واحد، ولكن حال السائل اختلف، فأجبت - وأنا الفقير المسكين - كل واحد بفتوى دون أخيه.

أما وجدت الطبيب تُعَرِّض له العملية الواحدة، ولكن المريض اختلف، فأحدهم يحتمل جسده التخدير، والثاني: يعطيه مع المراقبة، والثالث: يتوقف عن العملية ولا يجريها، لأن جسمه يأبى المخدِّر!

سأحكي مثلاً: سألني شخص عن طلاق الثلاث بلفظ واحد، أيقع ثلاثاً أم واحدة؟

(١) الحَمَالِيْقُ: جَمْعُ حِمْلَاق، بِالْكَسْرِ بَاطِنُ الْحُفْنِ. انظر: «المصباح المنير»، مادة: حمل.

قلت: هل أنت مَنْ حلف؟

أجاب: نعم.

قلت: وكم مضى على زواجك؟

قال: شهران، لكن حلفت قبله يمينًا معلقًا، وآخر صريحًا.

الإجابة: قلت: لا رجعة لك على الإطلاق.

أُعَقِّلُ لهذا المتهور أن تستمرَّ الحياةُ عنده خمسين سنة لو أفتيته دون أن يقع الطلاقُ المعلق؟

وسألني السؤال نفسه ثان، فكررتُ سؤالي نفسه:

كم مضى على زواجك؟

قال: ثلاثون عامًا.

قلت: هل من أيّمان طلاق غيرها؟

قال: أول ما تزوجنا، وكنتُ جاهلاً طَلَّقتُ زوجي طَلقة واحدة، لكن جاء مَنْ نصحني ألا أعود، ولم أعد منذ ذلك الحين.

قلت: وكيف حلفت الآن؟

قال: كنت غضبان، وحلفت ثلاثًا دون أن أشعر.

قلت: تُعَدُّ هذه طَلقةً واحدة، ونأخذ بقول أحد العلماء حفاظًا على

الميثاق الغليظ، لرجل غير مُطْلَاق، ومضى على زواجه سنوات طويلة.

هذا الفرق يا صديقي بين الحكم والفتوى، الفتوى لباس يصلح لواحد ومن هو مثله لا أكثر.

أما رأيت الحبيب المصطفى ﷺ يقول لهند: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ»^(١)، أَيْصْلُحْ تعميم هذه الفتوى على كل امرأة، أم تخص حالة مَنْ تَيْقَنَتْ صدقها، وصَحَّتْ دعواها في زوجها.

فيروس الرضا الدائم، أو المجازفة في المدح

هو الرضا عن حالٍ أو إنسانٍ أو جماعةٍ أو مذهبٍ، بحيث يصل إلى تصوير العصمة في المرء أو المؤلف أو المؤلف أو الجماعة، ومثل هذا الراضي لو انقلب لرأيت التطرف في الانقلاب كحاله في الرضا.

ومن لطيف ما جرى بيني وبين أحد الأصدقاء أنه مدح لي كتاباً من الكتب المعاصرة، وقال لي: إنه قد كُتِبَ لهذا الكتاب القبول.

آه كم يُتعب المفكر نفسه وراء التدقيق في الكلام! ولكن كم ينجو من مطبات لاحقة!

استوقفت صديقي وقلت له: إذا قلت في اللغة: سُرِقَ المتاع، فالفعل هنا إعرابه: فعل ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، والمتاع: نائب فاعل، صحيح؟
أجاب: نعم.

(١) الحديث أخرجه البخاري برقم: ٥٣٦٤، وسبب وروده: أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ، قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ».

قلت: ولو أردت تحليل الفعل وإرجاعه إلى أصله لأصبح: سَرَق اللصُّ المتاع.

قال: نعم.

قلت: فأنت قلت: كُتِبَ له القبول، فهل تُحَلِّلُ لي الفعل، وتُرْجِعُ الفعل المبني للمفعول إلى مبني للفاعل؟ ومن فاعله؟
أجاب: كَتَبَ اللهُ له القبول.

قلت: ألا تتحرَّجُ مِنَ التَّقَوُّلِ على الله تعالى بهذا؟ ألا تدري أن هذا الكتاب قد تبرع أحدُ المحسنين بطباعة ٥٠٠ ألف نسخة منه؟ ثم سَوَّقَ تسويقاً أكبر وأكبر في مئات آلاف أخرى؟

صديقي العزيز: الكتاب الذي كُتِبَ له القبول هو الكتاب الذي لم تُسهِمُ البشريةُ بتدخل مباشر في ترويجه، فأستطيع أن أقول عن صحيح البخاري، أو رياض الصالحين، أو فقه الأئمة الأربعة، أو بعض كتب السلف، وأشباهها: قد كُتِبَ لها القبول.

بل أستطيع أن أطلق هذا على كتاب: «تربية الأولاد في الإسلام» للشيخ عبد الله علوان (ت: ١٤٠٨ هـ) رحمه الله، وقد طبع نحو أربعين طبعة، وفي إحدى الطبعات نحو عشرة آلاف نسخة، ولم يتبنَّ هذا الكتاب أحد من المحسنين بالتوزيع المجاني، أما أن يتحمَّس تاجر - وأدعو الله له أن يجزيه خيراً - ويطبع من الكتاب آلاف النسخ، ثم أروِّج الأمر على أنه قبول من الله تعالى؟ فهذا ما أتحَرَّجُ منه، ولا أجرؤ أن أنَّهَمُ القائل بأنه: قد تألَّى على الله تعالى، ولكنني أخشى عليه من هذا.

فيروس الاعتراض الدائم

ما يكاد يتحرك عوامُّ المسلمين نحو دينهم إلا جاء مُراهقٌ من مراهقي الدعوة يُشكِّكُهم.

إن فيروس الاعتراض هو أن يقول المعارض للعامي في كثير من قُرْبَاتِهِ أخطاءً، ولو تبصَّر هذا المعارض لجعل الاعتراض لمن خالف أمر الله فقط، أمَّا ما كان في الأساليب أو الآراء المتعددة فلا اعتراض، وَلَعَلَّ أن ممارسة عبادة مرجوحة خير من ترك العبادة بالكلية.

يقبل الشاب الحديث الالتزام على التدين، ويرى بعقله، ويزوق قلبه حلاوة الأخوة في المسجد، فلا يلبث أن يتعثر بصنَّاع الضوضاء الدعوية، حيث يقطعون عليه ضوء أنس الدعوة بمجدلٍ قليلٍ وقال، فيكرة الالتزام بعد أن أحبه، ويصدَّ عن المسجد بعد أن تعلق قلبه فيه، ويقول: هربنا من المختلفين على الدنيا لنصادف المختلفين على الدين؟

١- يراه من المحافظين على ست ركعات بين المغرب والعشاء، ويقول: لن أدع صلاة الأوابين ما حييت، فيقول له: حديثها شديد الضعف عن النبي ﷺ، وتسميتها بالأوابين خطأ، لأن النبي ﷺ ما سماها بهذا في حديث صحيح، ولكن التسمية الصحيحة لصلاة الضحى.

٢- يراه ممن يقوم ليلة النصف من شعبان ويصوم نهارها، فيقول له: لم يصحَّ في فضلها أيُّ حديث، وبعض الأحاديث فيها ضعيف، وبعضها أشد من هذا بكثير، وبعضها مكذوب.

٣- يراه مواظبًا على قراءة سورة الواقعة بين المغرب والعشاء فينهاه ويقول

له: حديثها شديد الضعف، بل باطل.

الخلاصة: أن بعض مُدَّعي الدعوة لا يهدأ له بالٌ حتى يعترض على كل شيء يراه في المدعو، ويصفه أنه خطأ، وأسمي هؤلاء بـ «عَوَائِقِ الدعوة»، التي تعرقل سير السائر إلى الله تعالى، ولا تدلُّه على الله.

بالله عليك: فالذي رأى مَنْ يتعبَّدُ الله تعالى بالمواظبة على إحياء ليلة في السنة، أو قراءة سورة كل يوم أو المواظبة على قيام صلاة يوميًا ثم بيّن له هذا الحكم فترك العبادة، أليس هذا من الصّادّين عن الله تعالى، أليس قد وضع نفسه من العثرات في طريق السائرين!

ويسألني: إذن فما هو جوابك في هذه الأمور؟

جوابي: ما ذكره المعارض من أحكام على الأحاديث ليست موضع اتفاق عند العلماء في شتى الأمصار والأعصار، فلا بد من احترام وجهة نظر المخالف.

ثم إنني أراه مصلّيًا بين المغرب والعشاء ستًّا، فأقول له: حاول أن تزيد عليها ولو مرة واحدة في السنة، فقد جاء عن حبيبك ﷺ أنه أقرَّ مَنْ كان يحبي ما بين العشاءين بالصلاة^(١)، فإياك أن ترضى بالبقاء على ما أنت عليه دون زيادة أبدًا، وهذه العبادة العظيمة بين العشاءين لا تسمى بالأوابين، لأن

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿نَسَجَافٍ جَنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، قَالَ: كَانُوا يَتَبَقَّطُونَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ يُصَلُّونَ، وَكَانَ الْحَسَنُ، يَقُولُ: قِيَامُ اللَّيْلِ. رواه أبو داود برقم: ١١٢٨، وهو حديث صحيح.

التسمية خاصة بصلاة الضحى، ولكنها إحياء وقت غفلة الناس بالصلاة.

وأراه صائماً أو قائماً ليلة النصف من شعبان، فأقول: إن قيام جميع ليالي السنة سنة بإجماع العلماء، وهذه الليلة منها، وليكن لك قيام آخر ليليّات أخريات أيضاً، فلا تُفرد هذه بالعبادة فحسب.

وصيامُ الأيام البيض سنة ثابتة، وهذا منها، فأضف لها - ولو مرات - بعض الأيام الزائدة لتنال ثواب الثلاثة، فإن لم تستطع فلا بأس بواحد منها، وعلى أقل تقدير هو صوم يوم في الله تعالى، وأجره عند الله تعالى عظيم.

وليكن بعلمك أن للعلماء رأيين في نصف شعبان: حيث إن خالد بن معدان، ومكحولاً، ولقمان بن عامر وغيرهم يعظمون ليلة النصف من شعبان، ويجتهدون فيها في العبادة، وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها، وقد قيل: إنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية، فلما اشتهر ذلك عنهم في البلدان اختلف الناس في ذلك: فمنهم من قبله منهم ووافقهم على تعظيمها، منهم طائفة من عبّاد أهل البصرة وغيرهم، وأنكر ذلك أكثر علماء الحجاز، منهم: عطاء، وابن أبي مليكة، ونقله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة، وهو قول أصحاب مالك، وغيرهم وقالوا: ذلك كله بدعة^(١).

وكذلك أفعل في قراءة حزب مُعَيَّن من القرآن الكريم، أدلّه على التنوع في العبادة، وتغيير في السور، وإضافة سور أخرى أحياناً، فإن كان لا يحسن غيرها، تركته مواظباً عليها، فالله يقبل منه هذا.

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي ص: ١٣٧.

أَمَّا يَجِدُ الحَرْجَ الشَّدِيدَ مِنْ يَسْحَبِ الْبِسَاطِ مِنْ تَحْتِ بَعْضِ الْعِبَادَاتِ وَيَتْرَكَ الْمَرْءَ بَدُونَهَا؟ أَلَيْسَتْ الْمَوَاضِبَةُ طِيلَةُ الْعَمْرِ عَلَى قِرَاءَةِ سُورَةٍ مُعِينَةٍ بَيْنَ الْمَغْرَبِ وَالْعِشَاءِ خَيْرًا مِنْ عَدَمِ الْقِرَاءَةِ؟ فَلَا يَجُوزُ سَحَبُ عِبَادَةٍ إِلَّا إِنْ اسْتُبْدِلَ بِهَا مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا.

مريض مسكين تحت يدي طبيب غرّ

العجيب: أن يرى المسلم الملتزم من يعترض عليه ويخطئه في كل ما أتى، وينجو من هذا الاعتراض كل مُتَقَلِّتٍ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الدِّينِ، أَيْعَقِلُ أَنْ يَرَى الشَّابَّ فِي بَعْضِ دُخُولِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ مِنْ يَعْتَرِضُ عَلَى مَوْضِعِ الْيَدَيْنِ عَلَى الصَّدْرِ، أَوْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، أَوْ الْجَهْرِ جَمَاعَةً بِالْأَذْكَارِ الْوَارِدَةِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ، أَوْ التَّكْبِيرِ الْجَمَاعِيِّ يَوْمَ الْعِيدِ، أَوْ غَيْرِهَا، وَلَا يُحَرِّقُ بِنَارِ الْإِعْتِرَاضِ مَنْ يَحْلِفُ كَاذِبًا قَرِيبَ بَابِ الْمَسْجِدِ، وَالْغَشَّاشِ، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَصْلًا؟

عَجَبًا لِلْأَنَاسِ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا الْإِعْتِرَاضَ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ كَلَّمَا زَادُوا مِنَ الْإِعْتِرَاضِ زَادُوا تَوْقُّدًا وَالْمُعِيَّةَ، وَمِنْ وَلَعَ بَعْضُ النَّاسِ فِي الْإِعْتِرَاضِ أَنَّهُ لَا يَكَادُ يَجِدُ أَمْرًا إِلَّا نَهَى عَنْهُ:

١- يرى الذي يلعب بالكرة فيقول: ألا تترك هذا وتتوجه إلى القرآن.

٢- يأتي إلى من يحفظ القرآن فيقول: وهل كان من منهج النبي ﷺ أن يحفظ أصحابه القرآن؟ أو هل ورد حديث في الحفظ؟ المهم هو الاتصال بالقرآن - هكذا يقول -!

٣- ويأتي إلى معهد يُخَرِّجُ الحُفَظَ، فيقول: زادت نسخ المصاحف نسخة، وما فائدة الحفظ إن لم يكن القارئ على صفة كذا وكذا، ويأتي بأعلى صور

سمعتها عن السلف!

٤- يرى القارئ للقرآن فيقول: ليتك تركت القراءة وتوجهت إلى التدبُّر، فما أنزل القرآنُ إلا للتدبُّر.

٥- يرى مَنْ يتدبَّر ويدرس القرآن فيقول: لقد ازدادت المكتبة كتابًا متحرِّكًا يمشي على الأرض، فما فائدة التدبُّر وأنت جالس، عليك أن تدرِّس هذا الذي وَعَيْتَه.

٦- يرى المدرِّس المفسِّر للقرآن فيقول: أكثرتم من الكلام وليتَّكم ربِّيتم، فنحن مفتقرون إلى المرء المرَبِّي، لا العالم، ونحن اليوم في طَفَرَةٍ علمية، وما كلُّ أصحابِ النبي ﷺ علماء، ولكن كلهم مُرَبُّون، وقد فتحوا البلاد بأخلاقهم وتربيتهم، سواء أكان البلد قد فُتِحَ بالدعوة أم بالسيف.

٧- ويرى الشيخ الذي يُعَنَّى بالتربية والوعظ فيقول: إلى متى سيبقى في صَفِّ الكلام ورَصَفِ الحروف، ألا يُدْخِل شيئًا من قراءة الكتب ليرقى الطلبة عنده.

٨- ويرى الطالب الذي التزم حلقات العلم فيقول: ليته التزم عند المرَبِّي ليأخذَ الأدب بدلَ قراءة الكتب، وإلا فلا فائدة من زيادة العلم من غير تزكية.

٩- ويرى الورعين فيقول: بئس الورعُ الذي يمارسه هؤلاء، وهم لا يَبْنُونَ دولة بهذه العقلية، ولا يرتقون بأمة.

١٠- ويرى المتوسِّعين في الدنيا، فيقول: كلابُ الدنيا وطلابُ ما هو رخيص على الله.

ولن أسترسل أكثر، فالخلاصة: الكل - في نظره الكئيب - سيئٌ ومنقودٌ وعملهم غلط.

تفضل أيها المنتقد وأعطني نموذجًا صالحًا!

علمتني الحياة أن الناس قسمان: مُجْعِعٌ لا وقت لديه للعمل، وعامل لا وقت للجّعِجّةِ عنده.

فلا التفات نحو المصابين بوسواس الاعتراض، فيعترض، ويتوهم أن الصورة لم تصل، فيعيد ويصير ويكرر.

عامي حاذق نجا من التضليل

بما أنّني تكلمتُ عن المريض المسكين تحت يدي طيبٍ غرّ، فلا بدّ أن أتكلم عن العامي الحاذق، المتفوّق على المزعجين.

وحدثني أحد الفضلاء، أن رجلاً اعتقد أن السنّة في صلاة التراويح ثمانى ركعات، فكتب ورقةً وعلّقها على جدار مسجد في حي سيف الدولة بحلب، وذلك في رمضان: «من صلى رمضان عشرين ركعة، فهو ضال مضل».

فجاء ثانٍ وقلب الورقة نفسها، ثم كتب عليها: «من صلى التراويح ثمانى ركعات فهو ضال مضل».

فمر رجل أوتي الحكمة، فكتب: أنا لن أصليها ولا ركعة، فلست بضال ولا مضل.

ومعاذ الله أن يكون قصدُ الرجل تركَ هذه السنة عمدًا وعنادًا، ولكنه أراد تنبيه الكاتبين إلى أن المصلي لم يحلّ من لسان أحد الكاتبين، أما غير المصلي فقد نجا منهما، ما أصعبها!

البيئة المتنوعة

كنت ولا زلت أرى بعض إخوتي وقد أقاموا بين ظهرائي قوم لهم مشرب مغلق، فيصبحون جزءاً من هذا الانغلاق، ويقعون في المزايدة، وينسون الإنصاف، ولا يحسبون الحساب في حروفهم، ولا يَزِنُونَ الكلام بميزان القرآن، ثم تغيّرت حالهم، وتبدّلت أوضاعهم، وتحوّلت أماكن إقامتهم، وأصبحوا في بيئة تعادي البيئة الأولى، فاضطّروا لإعادة النظر في كل كلمة تقال، لأن الناقد بصير، وإلى الله المصير.

البيئة المُلَقَّحة بيئة صحيّة، تشبه الجسد المُلَقَّح بضيوف غريبة عنه، وإن كان كل الأطراف يشمئز منها، ويراهها عامل تضيق على حاله، ولو تُرِكَتْ كُلُّ مدرسة على حالها لبلغ الشطح والمبالغة والمزايدة مبلغاً مخيفاً، لكن وجود الطرف الآخر يجعل الأول يحسب ألف حساب لحاله.

لأن الصوفي في بيئة سلفية، والسلفي في البيئة الصوفية يحسب الحساب الكبير قبل العمل، ولا يريد خسارة القوم الموجودين غالباً.

فمن سَمِج مزايدات بعض المنحرفين لما اجتمعوا أن الأول منهم قال: الشيخ كاشفني، فزاد عليه الثاني بقوله: كأنه معي طول النهار، فقد حدثني الشيخ بكثير من أعمالي في النهار، أما الأخير فقال: الشيخ يعلم تحركي على فراشي، ولا تستغرب أن تسمع من عامي قوله: شيخي يعلم كثيراً من الغيب.

والأسمج منها: تصريح طلاب المدرسة الأخرى أنهم أهل السنة والجماعة، وكل مَنْ سواهم ليس منها.

ومثله جميع المدارس والطرق والمذاهب إذا لم تزن النطق بميزان الله.
فتباً ثم تباً للمبالغة التي لم يأت بها شرع الرسول الكريم ﷺ، وسُحْقاً لمن
جعل أقواله وأعماله عكس كلام وفعل مَنْ عاداه.

وما أجمل قول ذاك المربي الصالح الذي ربَّى طلابه بالتَّطَرُّ والكلمة
الصالحة، عندما قال: أي ولدي: إياك أن تحتفل بميلاد رسول الله ﷺ وذرةً من
قلبك تميل إلى غيظ من أَمْسَكَ عن الاحتفال، لأنها بثت النية، وساءت
الطَّوَيَّة، وليكن احتفالك حباً للحبيب، وطلباً لمحَلِّ لك في قلبه ﷺ، عسى
أن تنال منه شفاعته، وقربَ منزل، والله ينظر إلى القلوب، فلئن نظر إلى قلب
الحبيب ﷺ ورآك فيه فقد فُزْتَ في الدارين.

العداء المدرسي

إحياء الصَّغَائِنِ المدرسية دالٌّ على صِغَرِ العقل إن لم يكن دالًّا على
انحرافِ قلبٍ، وسوءِ نية، والعقل من كان منهجه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أضرب على ذلك مثلاً: أنا في علم الحديث الشريف من مدرسة سيدي
الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ) رحمه الله، وأعرف من ردَّ على
سيدي الشيخ قبل أن أُخْلَقَ، أو مَنْ كانت منه جَفْوَةٌ نحوه، أو أساء إلى الشيخ،
فالمفروض أن أبقى في مدرسة سيدي، وألاً ألفت إلى الاختلافات، وما أشدَّ
خطأ الذي يجدد هذا الاختلاف مع طلاب ذاك الشيخ، فالموضوع كله كان

بين الشيخين، وقد وَقَدَ كُلُّ منهما على ربه، فما بالنّا نَحْفَلُ في عرس لم نحضره، بل غاب فيه العروسان! وترى بعضَهم ينتقد المدرسة الأخرى وكأن شعاره: عدوُّ شيخي هو شيخُ عدوِّي.

الولاء المدرسي

ظهر قِبَلَنَا في سورية رجل شديد العصبية، يعارض من أجل المعارضة، ويغلب عليه ضيق الفكر، ويتبنى أشدَّ الآراء، ولم يوّث الحكمة في الطرح، ويظن فَجَّ الكلام صراحةً بالحق، ويكسر قلوب الناس بِصَخْرِ كلامه، حتى بلغ به الحال أن قال لأحد معارضيه - في شريط مسجل لدي -: إذا لم تقرأ كتب ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ) وتلميذه ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ) فأنت على ضلال، وكل من لم يقرأها فهو على ضلال! وهو صاحب السؤال الذي يُكثَر من طرحه كثيرًا: كيف تقولون بوجوب اتباع أحد المذاهب الأربعة، وتحكمون بالضلال على المتحلل منها جميعًا، والقرون المشهود لها بالخيرية جُلُّ عوامها لم يكونوا على أحد هذه المذاهب؟

قلت: وما حال القرون العظمى قبل الشيخين الجليلين: ابن تيمية وابن قيم الجوزية؟ أكلهم على ضلال؟ بل ما حال عوام المسلمين اليوم - من عرب وعجم - ولم يسمع جُلُّهم باسم هذين الإمامين؟ وما حال دين سيدنا محمد ﷺ لو لم يطلب العلم هذان العالمان بتائًا؟ أو لم يُخلقا أصلًا.

إنه التعصب المدرسي، وما أكثر صورته! وما أكبر أنواعه!

ومن لطيف ما يُتَنَدَّرُ به عن التعصب المدرسي أن رجلاً قال لمخالفه:

«عَضَّ هَنَا أُبَيْكَ»^(١)، فأخذها هذا الذي قيلت له وطرحها على تلميذ القائل، لكنه لم يبين قائلها، بل أوهمه أن الكلمة قد قيلت من قبل شيخه هو، فلما أنكرها وبالع بزميه بقلة الأدب، اعتذر إليه وقال له: ما رأيك لو خبرتك أن شيخك هو من قالها، وليس شيخي؟

موقف لا يحسد عليه من الخجلة، وصار لون وجهه من الوجل بين الأحمر القاني والأزرق الشديد، لو قربت عود الثقاب من وجهه لاشتعل، وهذه من ضرائب قوقعة العقل، وعدم تحرُّر الذهن، وعدم الخروج عن رأي المدرسة بتجرد وحب للمعالي.

ذم المدارس الدعوية من الكبير

سمعت بشاب ارتد عن الإسلام، فلما أوغلت في السؤال عن السبب عرفت أنه قد تربى في عائلة كثيرة النقد جدًّا.

فالأم تنقد كلَّ مَنْ حولها، ولها ملاحظات على جوانب من الدين، قد لا تكون تلك الملحوظات من الدين نفسه، وإنما تصب جام غضبها على العلماء الذين فسروا الدين، والأب نقاد لكل ما حوله، والإخوة من أصحاب السخرية السياسية، والجد لا يرضيه شيء في الكون، وهكذا دواليك.

(١) إشارة إلى حديث عُثْمٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ أُبَيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَأَى رَجُلًا تَعَزَّى بِعِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعَضَّهُ وَلَمْ يَكُنْ، ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَرَى فِي أَنْفُسِكُمْ، إِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ إِذَا سَمِعْتُهَا أَنْ لَا أَقُولَهَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَعَزَّى بِعِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعَضُّوه لَا تَكُونُوا». أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم: ٣١٤٣، وقال محقق الكتاب: «إسناده صحيح».

لا أنكر أبداً أن في المدارس الدعوية أخطاءً، ولكن جمع أخطائهن في صحن واحد، وعدم سماع الابن من أبيه، والتلميذ من شيخه، والطالب من معلمه غير أخطاء المدارس الأخرى، سيسبب له الثُّفْرَة منهن جميعاً، والاشمئزاز دون تفرقة، مع أن المدارس تلك تحتوي على خيرات حَسَنٍ، ولا أقول إن خيرها لم يحمل الحَبَثَ لأنه قد بلغ القُلَّتَيْنِ، إنما أصبح مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ.

ولكن البشارة أَرْقُفُهَا لهذا المُلَكِّينِ المُخَفِّقِ: بأنه غالباً ما يكون هو نفسه أحد الساقطين من عين ابنه وتلميذه.

أَيُّ تربية سَوِيَّةٍ ترجوها لولدك وتلميذك، وأَيُّ تَقَبُّلٍ للمخالف تَخْطُبُهُ ما دمت تغذيه بتجسيم زَلَّاتٍ غيرك، وغَضِّ الطرفِ عن بَلَايَاكَ.

التربية السَّوِيَّةُ تكون: في تقويم النفس البشرية، وإحكام الميزان العقلي، وضبط المعايير القولية، وتعلُّم طرق التفكير الصحيحة، مع التوازن المنضبط، بحيث يحاكمُ كل مسألة تُعْرَضُ عليه بميزان صحيح واحد، يَزِنُ به للعدو والصديق، مع ملاحظة الملابس، واستحضار التاريخ والمبررات والتَّهَمِ، ثم الخروج بنتيجة للحكم على الجزئية، ثم جمع الجزئيات والكليات في ثوب واحد، وبعدها يصل للحكم على الشخص بكامله.

التوازن الخطابي

التوازن قُرْبُ لسان الميزانِ في منطقة الوسط: وتعديل الجنوح منهجُ نبوي بحيث يُحْمَلُ من الكِفَّةِ الرَّاجِحَةِ نحو الكِفَّةِ الطائِثَةِ، فالنبي ﷺ أمر الناس جميعاً بالصيام، لكنه رأى المبالغة من عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنهاه عن

كثرة الصيام^(١)، ورأى معاذًا يطيل بالناس الصلاة فأمره بالتخفيف^(٢)، ولكنه قال للذي خفف في صلاته كثيرًا: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»^(٣).

إن أحببتهم الحديث عن التوازن الخطابي فإنه عرض جوانب المسألة بما يُوصل الصورة صحيحة كما يريد لها صاحبها، من غير زيادة ولا نقصٍ يُشوِّهها.

ومن التوازن الخطابي: عرض أحاديث الرحمة بتوازن يُطمع العاصي برضوان الله، ولا يؤمنه من مكر الله، كما أن عرض أحاديث العذاب يُخوِّفه من بطش الله، ولا يُقنّطه من رحمة الغفار.

لكن من التشوُّه الخطابي: جمع آيات الرحمة كلها، وإلقاؤها على الناس من غير اتّزان، وفي الحضور أخلاط من السُّوقَة: الأتقياء والصلحاء ومن ليس منهم، وقد يكون أفجرُ الفجار حاضرًا، وتكون أحاديث الرحمة حاجبًا بينه وبين المبادرة إلى الإنابة، ومثلها جمع أحاديث الصفات كلها، أو جمع أحاديث

(١) الحديث بتمامه ص ٧١.

(٢) الحديث بتمامه ص ٢٨٩.

(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّلَامَ قَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَصَلَّى كَمَا كَانَ صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَعَلَيْكَ السَّلَامُ**» ثُمَّ قَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحْسِنَ غَيْرَ هَذَا عَلَّمَنِي، قَالَ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَظْمِنَ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَظْمِنَ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَظْمِنَ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**». رواه البخاري برقم: ٧٥٧، ومسلم برقم: ٣٩٧.

أخطاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وسرّها بين يدي العوام.

فبالله ما نظرة الشاب الذي شُجِنَ بِحُبِّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بكل حناياه، ثم حضر حديثاً لمريض دَيَّدَنهُ قَذْفُ الخطابِ الأَشْلَى، وأَسْمَعُهُ الأحاديثَ الكثيرة وكان منها: صحابي زنى، وصحابية زنت، وصحابي لَأَعَنَ امرأته، وصحابي غَلَّ شَمْلَةً، وآخرون نادوا رسولهم ﷺ من وراء الحجرات، وأبو بكر وعمر ارتفعت أصواتهما بين يدي رسول الله ﷺ، وخالد قتل قوماً تبرأ النبي ﷺ من فعله، وبعض رجال كانوا يخرجون مع النبي ﷺ في غزواته وهم يريدون الدنيا، وآخرون يريدون الآخرة، وحَاطِبُ أَفْشَى سراً مهماً، إلخ.

ما نظرة ذاك الشاب من هذا الخطاب المشلول المَعْتُوهِ والذي شوّه سُمْعَةَ الصحابة بين عينيه؟

هذا وإن الذي ذكر كل حادثة من هذه الحوادث ولم يذكر ملابسات القصة التي تُزِيح طرفاً كبيراً من غشاوتها إنه لَمُتَعَدٌّ على مقام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟

فعلى سبيل المثال: يجب البيان بأن الصحابي الذي زنا مدحه النبي ﷺ، وقال عنه: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ»^(١).

ويجب أن يُذكر أن النبي ﷺ أراد السَّترَ عليه، وهو الذي أصر على تطهير النبي ﷺ له من الزنا.

ومثلها عندما يَقُولُ أن عبد الله الحِمَارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ به وجَلَدَهُ النبي ﷺ في الشَّرَابِ مَرَّاتٍ، وكانت من نبي الرحمة ﷺ مواقف مع هذا الصحابي، ففي

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٩٨.

لفظ في الصحيح لما نهى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن سَبِّهِ أو لَعْنِهِ قال: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ، مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١)، وفي لفظ آخر قال: «لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»^(٢).

وما أبعد مدلول كلمة: «أَخِيكُمْ»، وما أبعد مدلول القَسَمِ في اللفظ الأول! وما الذي اضطر الحبيب ﷺ ليقسم بالله تعالى على هذه الشهادة! وحاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برَّاه رسول الله ﷺ، بقوله: «لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»^(٣).

التوازن السلوكي – أخو التوازن الخطابي –

النفس تميل إلى الطَّفَرَات العالية جدًّا، ثم الهابطة بِجِدَّة، أَشْبَهُهَا بمرض السُّكْرِي، الذي يرتفع إلى ٥٠٠، وربما هبط إلى ١٠٠، ولا تميل إلى التَّدْرُج والاعتدال، وما حال بعض الطلاب عنك ببعيد، يَسْهَرُ أَحَدُهُم الليالي ذوات العدد أيامَ الامتحان ولا ينام، ويقلِّلُ الطعام، ويعتزلُ الأنام، ويُدْمِنُ القهوة، ويحاسب نفسه على الطَّرْفَةِ والسَّهْوَةِ، ثم يَهْيِجُ عَقِيبَ الامتحان، فتراهُ مَضِياعًا للفُرَص، قَتْلًا للوقت، هَذَارًا للعُمُر، يقلب للكتاب ظهر المِجَنِّ، بعد أن كان يَلْفُهُ وهو نائم، ويعانقه إذا هو قائم، وهذا هو السَّهْل، ولكن الصَّعوبة تَكْمُنُ فيمن يدرس أيام حياته كُلَّهَا، ويدمنُ النظر في الكتاب حتى كأنَّ بينهما قصةَ عشق لا تنتهي.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨١.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٨٣.

طَرَحُ الشَّبْهَةِ عَلَى الْمَعَاوِي مِنْهَا

إن إدخال الشبهة إلى من ليس بعالم بها، وليس قادرًا على تجاوزها لسقطه، أما قَطْرَةُ الشُّبْهَةِ في الأذُن لمن يستطيع تجاوزها على سبيل التحذير والحصانة فهي حالة سَوِيَّة، وبهذه الطريقة تكون كاللَّقَاح، والفيروس المدرّوس لِيُعْطِيَ للجسد مَنَاعَةً، وليس وراء ذلك حَبَّةُ خَرْدَلٍ من صواب.

دُعِيَ أحد الشيوخ من بلده البعيد إلى أمريكا لِيُفَيِّدَ منه أهل البلد، وصلَ هذا الداعي أمريكا - وليته لم يصل -، وَجُمِعَ النَّاسُ له في محاضرة غَنَاء، حَشِدَ النَّاسُ من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ، واكْتَنَظَ المجلس بِرُؤَايِهِ، وشرع الشيخ بمحاضرته، وصدق فيه قول الشاعر:

خَطَبْتُ فَكُنْتُ خَطْبًا لَا خَطِيبًا أَضِيفَ إِلَى مَا سَيَنَا الْعِظَامُ

أخذ الرجل بالكلام عن خطورة الطواف حول قبور الأنبياء والأولياء، أُسْقِطَ في يد إمام المركز الإسلامي الذي دعاه وخاب ظَنُّهُ، وكان يدور في خَلْدِهِ أن المحاضر سيحكي عن أخطر الموضوعات مَسَاسًا بالواقع، لأن واقع أمريكا فيها فُسُفُسَاءٌ من الناس، ومختلِفُو الجنسيات والأعراق والأفهام والمذاهب الإسلامية، وهذا ما يفرض على العاقل أن يتكلم عن احترام المذاهب، وأدب الاختلاف، وضرورة الاجتماع، والتفريق بين الاختلاف المحمود والخللاف المذموم، وسوء التشردم، وعاقبة الطعن للأخ في الظهر، وقوة كلمة المسلمين أمام دولة مخالفة في الدين، ومعايير القوة، وما يجب تجاوزه في الاختلاف، وما لا يجوز التغاضي عنه، وأمثاله.

لكن المسكين فقير الحكمة الدعوية، وبُعْدِ النظر، ومرونة الفكر وصل الحال به أن يحكي عن خطورة الطواف حول قبور الأنبياء والأولياء، وعندما راجعه ذور الحكمة، وأبدوا له امتعاضهم من هذا الموضوع، ومهدوا له بسؤال استنكاري: كم عدد قبور الأنبياء والأولياء عندنا في أمريكا؟ أيسوغ الكلام عن هذا الموضوع في وقت نحن أحوج ما نكون للكلام عن جمع الكلمة ورص الصف؟ صَفَعَهُم بالجواب البارد الممجوج قائلاً: هذا لتحسين عقيدة المسلمين إذا ما رجعوا إلى قومهم في بلدهم الأصل، فإن فيهم المصري واليماني والشامي والحجازي، وكل هذه البلاد مما ابتليت بوجود قبور تُعْبَدُ من غير الله تعالى.

إنه داء التدين الكركتيري^(١) أعلمتم منظر الرسوم الكركتيرية؟ هي تريد أن ترسل رسالة إلى الناظر، فيكونُ منظر الرجل المرسوم مثلاً: برأس حجمه ضِعْفًا حجم باقي الجسد، أو يزيد، وحجم الجسد من الرقبة إلى الأخص كنقطة صغيرة، وهكذا التَّضَخُّمُ السرطاني الذي يعتري مَنْ لا يحسن تقدير حجم الخطر، فيُخَيَّلُ إليه أن ما يراه خطرًا هو بحجم كبير، بل أكبر من واقعه الحقيقي بكثير.

وسبق قريباً أن بَيَّنْتُ أنني لست منكراً أبداً أن طَرَحَ الشبهات واجبٌ بقدر يسير، حتى كأنه لِقَاحُ طِبِّ وَقَائِيٍّ، وذلك عندما يغلب على الظن نفعه، كما لو أردتُ إرسال ولدي إلى بلد غربي، وأعرف أنه سيرى سوء الملمع،

(١) أفدت هذا التشبيه من خالي الدكتور محمد عادل بيانوني حفظه الله، وهو سمعه من الأستاذ الداعية الجليل الشيخ محمد المبارك (ت: ١٤٠٢ هـ) رحمه الله.

المقلل من خطورته، وهذا اللقاح كي لا يتأثر الخلي من جرائم المصابين، وهذا بشرائط:

١- لا يجوز إثقال الجرعة وتركيزها، بل تطرح بشكل خفيف، ويكتفى بالتعريض والإتيان بالجزء المعبر عن الكل.

٢- لا يجوز التقليل والاستهزاء من الشبهة وطرحها على أنها هزيلة أيضاً^(١).

٣- لا يجوز طرح الشبهة طرحاً قوياً، لأنها قد تدخل رأس السامع، وتتركز فيه، ولا تخرج منه، ولا سيما إذا جاء اللقاح خفيفاً، كما اتهم بهذا بعض المصنّفين، فقليل عنه: إنه إذا حكي الشبهة قالها بقوة لا يستطيع أن يعبر عنها صاحبها بذاك البيان، فإذا وصل إلى ردها فترت همته، وأصبح الرد ضعيفاً.



(١) كما سيأتي في القاعدة: «تقزيم المخالف» ص: ٢٠١.



ظلال الدعوة





صيدلية الفقيه

حَمَلُ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَرَاءِ ضِيقٌ فِي التَّفْكِيرِ الْفَقْهِيِّ، وَصَعَرٌ فِي عَقْلِيَةِ الْمَفْتَى.

وَأَتَعَسَّ النَّاسُ دَعْوَةً مَنْ يَحْمِلُ فِكْرَةً، وَيُجْبِرُ النَّاسَ عَلَيْهَا، دُونَ تَقْدِيرِ لِلْفُرُوقِ: بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالتَّائِبِ وَالْعَابِدِ، وَالصَّدِيقِ وَالْجَاهِلِ أَوْ الْفَاجِرِ، وَالْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَالْمُضْطَّهِدِ وَالْأَمِينِ، وَالْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، وَالْمُتَسَلِّطِ وَالْمُظْلُومِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالْمَرَاهِقِ وَالْمَعْمَرِ، لَكِنَّ الْفُطْنَ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَحَسَبَ، بَلْ يَغَيِّرُ فِي دَعْوَتِهِ وَيَصْنَعُ لِكُلِّ حَالَةٍ قَالِبًا يَنَاسِبُهَا، مَعَ الصَّبَاغِ وَالْإِنَاءِ الْمَوَاكِبِ.

الطفل والكبير: طفل يتعثّر في ثوبه في مسجد النبي ﷺ، فينزل الحبيب ﷺ من المنبر ليأخذه^(١)، ولكنه لم يفعلها لدخول أي صحابي عظيم.

طفل بال في حجر النبي ﷺ فلم يغضب ولم يُعَنِّفْهُ^(٢)، ولكنه تَغَيَّظَ لما

(١) عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ، فَزَلَّ فَأَخَذَهُمَا، فَصَعَدَ بِهِمَا الْمُنْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾» [التغابن: ١٥]، رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ، ثُمَّ أَخَذَ فِي الْخُطْبَةِ. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بَرَقْم: ١١٠٩، وَالتِّرْمِذِيُّ بَرَقْم: ٣٧٧٤، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

(٢) عَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مُحْصَنِ، أَنَّهَا أَتَتْ بِإِنِّ لَهَا صَغِيرٌ لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجْرِهِ، فَقَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّعَ وَلَمْ يَغْسِلْهُ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بَرَقْم: ٢٢٣، وَمُسْلِمٌ بَرَقْم: ٢٨٩.

رَأَى الثُّخَامَةَ - وهي طاهرة - فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ^(١)، إِذْنًا: فَرَّقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ.

طُفْلٌ عَبَثَ فِي مُكَبَّرِ الصَّوْتِ فِي الْمَسْجِدِ فَلَا تَعَاتِبْهُ، وَلَكِنْ عَبَثَ الْكَبِيرُ بِمُكَيِّفَاتِ الْمَسْجِدِ وَمَدَافِئِهِ غَيْرِ مَقْبُولٍ، وَيَعَاتِبُ صَاحِبَهُ، وَلَوْ فُتِحَ هَذَا الْبَابُ لِكُلِّ مُصَلٍّ لَمَا بَقِيَ لِلْعَبَثِ حَدٌّ.

يُخْرِجُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَجْلِسٍ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَدَّ عَلَى خَصْمِهِ، فَخَرَجَتِ الْمَلَائِكَةُ^(٢)، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُخْرِجْ حِينَ كَلَّمَهُ الْجَاهِلُ وَقَالَ لَهُ: أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللَّهِ^(٣)، وَالْمَفَارِقَةُ الْعَجِيبَةُ أَنَّ الْأَوَّلَى كَانَتْ رَدًّا مِنْ أَبِي بَكْرٍ عَلَى جَاهِلٍ،

(١) عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى ثُخَامَةً فِي الْقِبْلَةِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، فَقَامَ فَحَكَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ أَوْ إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَلَا يَزِفُّ أَحَدُكُمْ قَبْلَ قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ». ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فِيهِ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: «أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْم: ٤١٧، وَمُسْلِمٌ بِرَقْم: ٥٥٣.

(٢) جَاءَ فِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ، بِرَقْم: ٤٨٩٦: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، وَقَعَ رَجُلٌ بِأَبِي بَكْرٍ فَأَذَاهُ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّانِيَّةُ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّالِثَةُ، فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ انْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْجَدْتُ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ بِمَا قَالَ لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ». وَقَدْ أورد الإمام البخاري قال في تاريخه ٢: ١٠٢ في ترجمة: «بشير بن محرز» هذا الحديث بروايتين: الأولى: مرسلة، والثانية: مسندة، ثم قال: «والأول أصح».

(٣) عَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ عَلِيظٌ الْحَاشِيَّةُ، فَأَذْرَكَ أَغْرَافِيَّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاقِقِ النَّبِيِّ ﷺ =

والأخيرة ردُّ من جاهلٍ على النبي ﷺ، ومع ذلك خرج في الأولى ولم يخرج في الآخرة، لأن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عالم كبير، أما الآخر فجاهل بامتياز، فاستوعبه الحبيب ﷺ لأنه الأكبر والأعظم.

المؤمن والمتألف قلبه: سألته فاطمة وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يعطيها خادمًا فَدَلَّهُمَا على التسبيح، مع أنه ما سُئِلَ النبي ﷺ شيئًا من سائلٍ غريبٍ إلا أعطى، حتى إنه أعطى غنمًا بين جبلين يتألف به قلب مسلم جديد^(١).

المضطهد والأمين: أفتى النبي ﷺ عمارًا أن ينال منه عند الاضطرار، لأنه مضطهد^(٢)، ولكنه تمعر وجهه لما نالت إحدى أمهات المؤمنين من ضررتها بإشارة وقالت: حسبك من صفية كذا وكذا^(٣)، لأنها من مؤمنة تقية، وما

= قَدْ أَثَرْتُ بِهِ حَاشِيَةَ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرِّي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَقَمَتْ إِلَيْهِ فَصَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. أخرجه البخاري برقم: ٣١٤٩، ومسلم برقم: ١٠٥٧.

(١) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامَ شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَحْشَى الْفَقَاةَ. أخرجه مسلم برقم: ٢٣١٤.

(٢) عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَذَّبُوهُ حَتَّى بَارَاهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَيْفَ نَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ». أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، عند تفسير الآية المذكورة، ١٤: ٣٧٤.

(٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا، - تَعْنِي قَصِيرَةً -، فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ». قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: «مَا أَحَبُّ أَتْيَ حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنْ لِي كَذَا وَكَذَا». أخرجه أبو داود برقم: ٤٨٧٥.

أكبر الأولى ومع ذلك أبيحت لمضطهد، وما أصغر الأخرى إذا ما قورنت بأختها ولكنها حرّمت لغير حاجة، فلما دعت الحاجة إليها، بادر المصطفى ﷺ بقوله: «بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ»^(١)! وقال في الآخر: «أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ». وبوب لهذه الإمام أبو داود فقال: باب من ليست له غيبة^(٢).

الغني والفقير: أما النساء الغَنِيَّاتُ فقد وصلهن خطاب النبي ﷺ: «تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ»^(٣)، وأما الفقراء فقال لهم: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: «بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ»، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ: كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ: «مَتَى عَهْدَتِي فَحَاشَا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ». أخرجه البخاري برقم: ٦٠٣٢، ومسلم برقم: ٢٥٩٢.

(٢) عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَتَاخَ رَاحِلَتَهُ ثُمَّ عَقَلَهَا ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَى رَاحِلَتَهُ فَأَطْلَقَهَا ثُمَّ رَكِبَ ثُمَّ نَادَى: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أَحَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ»، قَالُوا: بَلَى؟. أخرجه أبو داود برقم: ٤٨٨٥، وقد ضعّف إسناده محققو المسند برقم: ١٨٧٩٩.

(٣) عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ»، وَكَانَتْ زَيْنَبُ تُنْفِقُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَأَيْتَامٍ فِي حَجَرِهَا، قَالَ: فَقَالَتْ لِعَبْدِ اللَّهِ: سَلْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيْجِزِي عَنِّي أَنْ أَنْفِقَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حَجَرِي مِنْ الصَّدَقَةِ؟ فَقَالَ: سَلِي أَنْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدْتُ امْرَأَةً مِنْ =

لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ»^(١).

المتسلط والمظلوم: لما مرَّ الحبيب ﷺ بأبي مسعود البديري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب خادمه: ناداه من خلفه: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»^(٢)، وقال لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سَابَّ الخادم: «إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ»^(٣). لكنه خاطب الذي تحت وطأة

= الْأَنْصَارِ عَلَى الْبَابِ حَاجَتُهَا مِثْلُ حَاجَتِي، فَمَرَّ عَلَيْنَا بِلَالٍ فَقُلْنَا: سَلِ النَّبِيَّ ﷺ أَيْجِزِي عَنِّي أَنْ أَنْفِقَ عَلَى زَوْجِي وَأَيْتَامَ لِي فِي حَجْرِي؟ وَقُلْنَا لَا تُخَيِّرْ بِنَا، فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: مَنْ هُمَا؟، قَالَ: زَيْنَبُ، قَالَ: «أَيُّ الزَّيَانِبِ؟»، قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «نَعَمْ، لَهَا أَجْرَانِ أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ». أخرجه البخاري برقم: ١٤٦٦، ومسلم برقم: ١٠٠٣.

(١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ، إِنَّ بِكُلِّ نَسِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟، قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». أخرجه مسلم برقم: ١٠٠٩.

(٢) عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْعُصْبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا. أخرجه مسلم برقم: ١٦٦٠.

(٣) عَنْ الْمَعْرُورِ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَبَّرْتُهُ بِأَمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَبَّرْتَهُ بِأَمِّهِ؟» =

الحديد بقوله: «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ...»^(١).

الذكر والأنثى: جعل النبي ﷺ ذِرْوَةَ سَنَامِ الإسلام الجهاد في سبيل الله، وهذا في حق الرجال، فقال: «وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»^(٢)، لكنه جعل الذي يعدل هذا العمل في حق النساء الحجج^(٣).

= إِيَّاكَ أَمْرُؤُ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ حَوْلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْنِهِ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ». أخرجه البخاري برقم: ٣٠، ومسلم برقم: ١٦٦٣.

(١) عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: كَانَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ أَهْلُ بَيْتِ إِسْلَامٍ، وَكَانَ بَنُو مُحْزَرٍ يُعَدُّونَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنْ مَوَّعَدَكُمْ الْجَنَّةُ». أخرجه الحاكم في المستدرک ٣: ٣٨٣، وهذه الرواية في السيرة، من مراسيل ابن إسحاق.

(٢) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرْهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْحَطِيبَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ ثُمَّ تَلَا: ﴿نَجَافٍ جُثُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَالِجِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «تَكَلَّمْتَ أَمَّا يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ». أخرجه الترمذي برقم: ٢٦١٦ ثم قال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَغْزُو وَنُجَاهِدُ مَعَكُمْ؟ فَقَالَ: «لَكُنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَمْلَهُ الْحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَا أَدْعُ الْحَجَّ بَعْدَ إِذْ سِعِغَتْ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. أخرجه البخاري برقم: ١٨٦١.

علم الرجل أن خير النفقة ما أنفقه على أهله، فقال: «وَأِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ»^(١)، أما في حالة غنى المرأة وفقر الرجل فقد أرشد المرأة لتتصدق على زوجها، فقال: «لَهَا أَجْرَانِ أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»^(٢).

المراهق والمعمّر: لقد حكم النبي ﷺ في الشاب الزاني: مئة جلدة، وتغريب عام^(٣)، في حين أمر بضرب الرجل الفاني الزاني بمئة من أغصان عِدْق النخل ضربة واحدة، ولم يغربّه، ولم يزد على ذلك^(٤).

وانظر إلى تضيق بعض الدعاة:

عندما يشنّع من لا يحسن الدعوة على أربابها، ويتحجّر واسعاً بوجوب

(١) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلَاثِي مَالِي، قَالَ: «لَا»، فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ، فَقَالَ: «لَا»، ثُمَّ قَالَ: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ - أَوْ كَثِيرٌ - إِنَّكَ أَنْ تَذَرَّ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ». أخرجه البخاري برقم: ١٢٩٦، ومسلم برقم: ٣١٩٦.

(٢) الحديث بطوله تقدم ص: ٦٧، وقد أخرجه البخاري برقم: ١٤٦٦، ومسلم برقم: ١٠٠٣.

(٣) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ أَمَرَ فَيْمَنْ زَنَى وَلَمْ يَحْصَنْ بِمَجْدِ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبَ عَامٍ. أخرجه البخاري برقم: ٢٦٤٩.

(٤) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَعْدٍ بْنِ عُبَادَةَ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ أَيْبَاتِنَا إِنْسَانٌ مُخَدَجٌ ضَعِيفٌ، لَمْ يَرَعْ أَهْلَ الدَّارِ إِلَّا وَهُوَ عَلَى أَمَةٍ مِنْ إِمَاءِ الدَّارِ يُحْبِثُ بِهَا، وَكَانَ مُسْلِمًا، فَرَفَعَ شَأْنَهُ سَعْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «اضْرِبُوهُ حَدًّا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ أضعفُ مِنْ ذَلِكَ، إِنْ ضَرَبْنَاهُ مِائَةً قَتَلْنَاهُ، قَالَ: «فَاخْذُوا لَهُ عِنَاكًا فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاجٍ، فَاضْرِبُوهُ بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً وَخَلُّوا سَبِيلَهُ». أخرجه أبو داود برقم: ٤٤٧٢، وأحمد برقم: ٢١٩٣٥، وصححه محققو المسند.

غسل المذي، وهو لا يفرق بين شاب متزوج حديثاً، يشق عليه أن يغسل الثوب في كل يوم مرات، وبين شيخ لا يقطر مذيّه في العام مرة، مع أن في مذهب الإمام أحمد (ت: ٢٤١ هـ) رحمه الله رخصة عظيمة لحديث الزواج، يُفْتَى فيها بَنَاضِجِ الماء على المذي من غير غسيل، ولا سيما عند رقيق الالتزام، وحديث العهد بالتدين^(١).

وانظر حال مَنْ لا يفرّق بين نقاب المرأة في بلد إسلامي اعتاد أهله النقاب، وبين امرأة تُضَطَّهَد في بلد غربي، ولن تجد من ينظر إلى وجهها لكثرة العُرِّي في الطرقات.

ولا يفرق في المسألة بين رجل جبار عُتُلٌّ، ورجل مظلوم عند زوجة متسلّطة، وهو يفتي كليهما بفتوى واحدة.

ولا يفرق بين امرأة متسلّطة تختلس مال زوجها وتضعه في أهلها أو حيث أرادت في تَرْفِ ملذّاتها، وبين امرأة عند رجل شحيح لا ينفق على عياله، أيقال لكل منهما: خذي من ماله دون إذنه إن لم يُتَحَقَّقْ؟

ويستفتيه الغنيُّ البخيل ما أفضل الأعمال؟ فيفتيه بالتسبيح والتهليل وحضور مجالس الذكر، أو يسأله الفقير المعدم، فيحثه على إثارة الفقراء، مع أن فتوى رسول الله ﷺ لهم بالتسبيح والتهليل.

يا سادة: إن الذي ينظر إلى الفتاوى بين يديه على أنها صيدلية، يعطي

(١) للتوسع انظر كتاب: «المغني» لابن قدامة المقدسي ٢: ٦٤، «مسألة ما خرج من الإنسان أو البهيمة التي لا يؤكل لحمها من بول أو غيره».

الأول دواء يخفض الحرارة، والآخر يعطيه الدواء العكس، كما فعل النبي ﷺ، حينما حَبَّبَ الصَّيَامَ إلى الأمة في أحاديث كثيرة، ولكنه نهى ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن كثرتِه، لأنه بالغ كثيراً^(١).

وحدث على قيام الليل ثم قال قولاً شديداً في الذي قال: سأقوم ولا أرقد، لقد قال فيه وفي أشباهه: **«فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**^(٢).

ورفع من قيمة الصدقة كثيراً، ولكن لما قال له كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَخْلِجَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»**، أجابه

(١) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَقُولُ وَاللَّهِ لَأُصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَا أَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهِ لَأُصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَا أَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ»**؟. قُلْتُ: قَدْ قُلْتُهُ، قَالَ: **«إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَفُمْ وَتَمْ وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ»**، فَقُلْتُ: إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **«فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ»**، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: **«فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ»**، قُلْتُ: إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **«لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ»**. أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٨، ومسلم برقم: ٣٤١٨.

(٢) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا، فَإِنِّي أَصِلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: **«أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ لِكَيْتِي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصِلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**. أخرجه البخاري برقم: ٥٠٦٣، ومسلم برقم: ١٤٠٢.

المصطفى ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»^(١).

ومثلها قال لسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما استشاره في الوصية بكُلِّ ماله: «الْثُلُثُ وَالْثُلُثُ كَثِيرٌ»^(٢).

الجواب في كل هذا: لأن لدى الحبيب ﷺ صيدلية كبرى، يعطي من الأدوية لكل فرد ما يحتاج، فما كل من آلمَتْهُ عينه أخذ الدواء نفسه، فهو ﷺ يبحث على الخير، ولكن الشخص إذا بالغ وَقَفَهُ وَنَهَاهُ.

ففرَّق في نصحك بين الماشي المبطئ عندما تطلب منه السرعة، وبين المثابر متهوراً في منحدر سحيق، فكم رأيت ماشياً ببطء وحثثته على السرعة! ولكنك تطلب من المسرع كثيراً أن يُبْطِئ؟ إنها الحكمة في الدعوة، والتفريق بين مستمع وآخر، وما كل من سأل عن حكم واحد أفْتَيْتَهُ بفتوى واحدة.

الأخذ بأضعف الأقوال خير من الخروج عن حكم الإسلام^(٣)

القول الضعيف يُعْمَل به لإنقاذ المرء من العصيان والمخالفة، وإنما يستخدم القول الضعيف للحالة الضعيفة.

خرجت في حافلة كبيرة تتسع لخمسين راكباً، وكان السفر طويلاً، والسير

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري برقم: ٤٤١٨، ومسلم برقم: ٢٧٧٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٢٩٦، ومسلم برقم: ٣١٩٦.

(٣) أهدت زبدة هذه القاعدة من أستاذنا الداعي إلى الله، الدكتور عبد الكريم بكار حفظه الله تعالى، وذلك في إحدى الزيارات واللقاءات العامة بالفكر والعلم والمعرفة.

ليلاً، وما إن دنا وقت الفجر حتى هَرَعْتُ إلى السائق أطلب منه التوقف لصلاة الفجر، ولم يعارض، أو يجادل، بل قال: إن أماننا استراحة بعد نصف ساعة نتوقف عندها، وافقت وجلست مكاني أنتظر الوصول، وما كَذَب السائق الموعد، بل توقَّف في الوقت الموعد، أسرع وتزلت إلى الصلاة، وما لبثت إلا قليلاً حتى رجعت، فرأيت شطر ركاب الحافلة - أو يزيدون - قد نزلوا، هذا في الاستراحة والشارع، وذاك يشرب الدخان، وآخر يتكلم، يا للهول! تمنيت لو أن أحداً منهم ذهب إلى الصلاة.

جلست مكاني ومَشَتْ الحافلة ولم ينتهِ عجبِي! أَكُلُّ هؤلاء لا يصلون؟ أنحن بخير ومن الخمسين صلى الفريضة المحْتَمَّة واحد؟ أنُنْصِر ونُحْمَى ولا نهْلِك وليس فينا المصلون؟

المفاجأة الجديدة أن بعض الركاب من المواطنين على الصلاة ولا يتركونها، ولكنهم يرون أن الصلاة عبءٌ في السفر، فيقولون: إذا وصلنا إلى بلد المُقام صلينا الصلوات الفاتئة جميعاً!

مه يا عزيزي: لم التثاقل في الصلاة؟

صديقي: لأن جميع الوضوء في كِفَّة، إلا غسل الرجلين منه ففي كِفَّة أخرى، كم الوقت المستهلك في خلع الجوربين، وغسل الرجلين، ثم ليس معي نعل مخصص للوضوء، وكيف أغسل الرجلين وأنا ألبس الحذاء، وكيف أجفف رجلي، أم كيف أقف على الأرض أم ألبس الحذاء ثانية؟ كم استغرق وضوئي بتمامه وكم استغرق غسل الرجلين!

أنا: فما الحل برأيك؟

صديقي: أؤخر الصلاة حتى أصل وجهتي.

أنا: أترك الصلاة.

صديقي: معاذ الله أن أتركها، فقط أؤخرها عن وقتها.

ذَهَلْتُ وأنا أرى شابًا حريصًا على الصلاة، لا يرى تركها بحال من الأحوال، بل الأعجب أنه صُعِقَ بتيار كهربائي لما اتَّهَمْتُهُ بترك الصلاة، لكنه لا يرى نفسه أساء بشيء إذا ما أخرج الصلاة عن وقتها، وصلّاها بعد فوات الأوان المحدد لها.

مَسْجُ عَلَى الْجُورِبِينَ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ!

جرى نقاش طويل عريض في مسألة المسح على الجوربين، وقلتُ في مجالس كثيرة: لن أفتي من يمسح على الخفين من الجلد أن يغيّر ويلبس الجوربين الرقيقين ويمسح عليهما، ولكني سأفتي بهذا القول لكل تارك للصلاة تكاسلاً من خلع الجوربين وغسل القدمين، لأني على قاعدة وضععتها إماماً لنفسي: «الأخذ بأضعف الأقوال، خير من الخروج عن حكم الإسلام». ومهما كان القول ضعيفاً، وقد صدر من عالم تقي، يُؤخذ كلامه في الفتوى، وكلامه خير من الخروج عن حكم الإسلام.

أيشك أحدٌ بأن المسح على الجوربين خير من ترك الصلاة حتى تصلى قضاء بعد فوات وقتها؟

من سَمِجَ الأجوبة أن يقال لي: لا هذا ولا ذاك، إنما يخلع الجوربين ويغسل القدمين! سبحانك ربي! وهل أنا أمام ترجيح بين حسن وقبيح لتقول

هذا الكلام! أم إنني أوازن بين قولٍ ضعيفٍ وتركِ فريضةٍ! أليس بينهما فرق واضح!

ألا يعلم الجميع أن الصلاة خير من النوم! وأني طفل يقبل منك أن تستشيريه: هل تحب أن ألطمك على خدك أو أهديك حلوى! الموازنة إنما تكون بين لكمة وطعنة! فما اخترت القول الضعيف إلا للحالة الضعيفة، ولا أفتي بقول ضعيف إلا عند رجحانه على الباطل.

عودًا إلى صيدلية تعطي أنجع الأدوية

سألني ثلاثة عن حكم المسح على الجوربين، فأجبتهُم بإجابات مختلفة: الأول: أفتيه لا تفعل.

والثاني: خيّرته: إن شئت فافعل ولكن الأفضل أن تغسل الرجلين. والآخر: أمرته أمرًا أن يفعل هذا.

يا سادة! الأول طالب علم قد تمسك بالأعلى، والأتقى، والأحوط، ويريد أن يهبط إلى الترخّص، وهو موضع قدوة.

والثاني: يحب الله ورسوله، وتغلبه شهوته أحيانًا، فربما ترك الصلاة وأخرجها عن وقتها من حرجه في خلع الحذاء والجوربين.

والأخير: قد ترك الصلاة أصلًا، وأنا أريد أن أحبّه فيها، وأرخص له في القول.

هنا تأتي سعة الإسلام.

لقد صدق مَنْ قال: «الأطباء مجمعون على أن المرض الواحد يختلف

علاجه باختلاف السن والعادة والزمن والغذاء وقوة الطباع»^(١)، كما أن الفتوى تختلف باختلاف الزمان والمكان، ورحم الله أئمة الفقه حيث قالوا: «اختلاف عصر وزمان لا اختلاف حجة وبرهان». فكيف ينظري على ذهن الداعي أن الوصفة الدعوية تختلف باختلاف المتلقي قريباً وبعداً، حَدَاثَةً وقَدَمًا، بلدًا وآخر، زمانًا وأخاه، فترى بعض الدعاة من يتمسك بعلاج واحد، ويجعله التَّرياقَ لكل داء.

والداعية المُطَبِّبُ من يشخّص المرض تشخيصًا دقيقًا، وإن احتاج لكثرة أسئلة للمريض حتى يصل إلى الشفاء.

ومن طريف ما سمعته من أحد إخواني ممن كان يقيم في مدينة جُدَّة، ما حصل معه شخصيًا لما كان يافعًا، أن مستوصف منطقة «باب شريف» كان يَغُصُّ بالمرضى بشكل كثيف، والطبيب جالس وراء طاولة وقد وضع أمامه ثلاث وصفات، ومن كل وصفة نسخ كثيرة، بين كل نسخة والتي تحتها ورقة طباعة - كوبون أزرق - فيأتي المرضى إليه واحدًا تلو الآخر، كل واحد يشكو غير الآخر، فمن مريض وجع رأس، إلى وجع ضرس، إلى وجع المفاصل والركب، إلى الإسهال الحاد، إلى غير ذلك، وليس أمام الطبيب سوى هذه الوصفات الثلاث، مكتوبة محضرة جاهزة، يناول المريض إحداها، وما أشبه هذه الصورة بحال بعض الدعاة.

(١) العبارة أصلها - بأطول من هذا - للإمام المازري، ونقلها الحافظ ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» ٢٧: ٣٤٨، وابن حجر في «فتح الباري» ١٠: ١٦٩.

إحياء سنة وتوليد فتنة

لا يزال علماء التربية يركّزون على أهمية التعليم، ويجعلونه نبض الحياة الراقية، وسبب رفعة الأمم، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لسبب بقاء الدعوة، ولولا نفر من المؤمنين لاندّرس أكثر القيم والأخلاق.

ولكن هذا التبليغ يحتاج شروطًا كثيرة، منها: ألاّ يتسبب الوعظ والتذكير والإنذار بخراب أكبر مما عليه الحال قبل المقال، وخذ هذا المثال:

الأذان الأول قبل الفجر سنة الحبيب ﷺ، وقد اندثرت هذه السنة في بعض البلدان، فإحيائها عظيم، لكن بشرط ألاّ تُحدث فتنة، أو ما علمت أن الحبيب ﷺ ترك الفاضل من الأمور خشية الفتنة؟ أو ما درّست: أن درء المفساد مقدّم على جلب المصالح؟ إحياء السنة لا يكون بإشاعة البلبلة، فمن أراد أن يحییها وجب عليه أن ينظر في مآلات الأمور، فإن صلحت كان بها، وإلا فترك السنة خير من إحداث فتنة.

ولا يعني هذا أن يترك النظر والتحرك في الأمر، حاشا لله، ولكن ليعمل على الأمر من كل زواياه، وإحكام الأمور، حتى يغلب على الظن ألاّ تحدث فتنة، فالسكوت عن السنة عظيم، وإعمالها هو الغاية المطلوبة، من غير أن يزيد الهدم على البناء، كمن أراد أن يطلي جدران بيته بالطلاء، فنزع أثاث البيت على بكرته.

أراد بعض الشيوخ أن يُبطل صلاة التراويح عشرين ركعة كما درج عليها أهل بلده، ورأى أنها بدعة يجب إبطالها بما كان عليه رسول الله ﷺ، وكان يردد في كل مرة: وخير الهدى هدى محمد ﷺ، فشق عصا المؤمنين، ثم

أراد أن يرجعهم إلى مائدة الدليل، فأساء إلى الكثير من أصحاب المذاهب. وكذلك من أراد أن يُبطل بعض أعمال العوام الموروثة من جهل، فألب العوام على العلماء، وحدثت فتن، الله أعلم بمجمها. وصحيح أن الرجل أحياناً بعض السنن، وأمات بعض البدع، أو أراد ذلك، ولكنه ولد فتناً وأوغر صدور المؤمنين على بعضهم، فكانت حصيلة الإفساد أعظم من الإصلاح، وحصل الخراب والدمار أكثر من العمران. إن ذا البصيرة ليقتردي بالحبيب ﷺ بشأنه في الإصلاح وترك الفاضل عند تعارضه مع شرارة الضرر الأكبر.

أجل بالله: لقد ترك الرسول ﷺ قتل المنافقين، حتى لا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه^(١).

وترك تغيير بناء الكعبة، لأن قريشاً حديثو عهد بجاهلية^(٢)، ولن تتحمل عقولهم هدم الكعبة وإعادة بنائها، وهذا ترك للصالح لتعارضه مع نار الضرر المخرقة.

تسويق رأي وقتل أخيه

من الناس من يعشق تسويق الرأي وقتل أخيه، ومنهم من لا يروق له سماع غير هذا الصنف، والعقول السوية ترى الرأي، وأخاه، وشبيهه، وقريبه، والأبعد، حتى ترى نقيضه، وتعطي لكل واحد منزلته، فلا ترى من الألوان

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥١٨، ومسلم برقم: ٢٥٨٦.

(٢) الحديث أخرجه البخاري برقم: ١٥٨٦، ومسلم برقم: ١٣٣٥.

الأبيض والأسود فقط، ولكن ترى بينهما تدرُّجًا كبيرًا، فيبتدئ الخط عند أصحابها أقصى اليمين بالبياض الناصع، وينتهي بالسواد الدامس، وسبحان قاسم العقول.

وهذه مسألة عقلية، وطرق تفكير مسلوكة، وفي الدعاة أبناء لكل هذه الطرق، فمنهم من لا يعترف في الدعوة إلاَّ بطريق واحد لا شريك له، ويسلكه مع اعتقاده بضلال كل من لا يتبناه، كما يحدث في مسألة المولد مثلاً، ووضع اليدين على الصدر في الصلاة، وغيرها.

وهذا يحصل في كثير من رُؤَاد المدارس، منها:

- بعض رواد المدرسة التقليدية لا يرون غير أنفسهم، فهم بما لديهم مرجَّحون، ولاخْتِيَارٍ غيرهم منكرون، يذكرون المسألة الشرعية ويعطون الحكم فيها، ويضفون عليه ألقاباً تصور للسامع أنه الحق الوحيد، والقول السويُّ اليتيم.

- بعض رُؤَاد مدرسة التجديد من العلماء الأصيلين، - مع إيجابية هذا التجديد لديهم - لم يعترفوا بالماضي كما ينبغي، مع إضافة ما لديهم من الحاضر، مع أن في الماضي محاسنَ يستفاد منها، ومطباتٍ تُخْتَرَز، فمنهم من لا يرون إلاَّ المطبات، ويريدون أن يعدُّلُوها إلى تطرف عكسه، وهم كالذين رأوا شخصاً قد جلس على كرسي ومال للطرف الأيمن، فأقاموا اعوجاجه بتحويله مائلاً للطرف الأيسر، وليس أشأَمُ الطرف بأولى من أيمنه، وكل الميول ميول، ولن يحمده العاقلون في حال.

أفيجوز بحال من الأحوال إذا آل اجتهاده إلى رأي أن يخاصم أو يناصر

العداء للرأي الآخر، أو يهزأ أو ينقم على قول غيره.

نعم: مضى زمن خوصم فيه ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ) رحمه الله خصومة الأشرار، وعودي في بعض أفكاره الصالحة فضلاً عما خرج به عن الجمهور، ويا ليت العداء وقف عند هذا الحد، بل تعدى إلى استعداد السلطان، حتى طاله السجن ولسعه سوء العذاب، ومُنِع عنه الورق والقلم، فجعل يكتب على الجدران بالفحم^(١).

مواقف تشمئز لها النفوس السوية، ويغتأط لها وجه المسلم النضر، وتُبذت أقوال ابن تيمية رحمه الله حتى جعلت سُبَّةً وعاراً لمن يتبعها.

ثم خلف من بعدهم خَلَفٌ درسوا أقوال الأئمة، كمسألة طلاق الثلاث في مجلس واحد، أو مسألة طلاق الحائض، ورأوا أن الحال بحاجة لقول ابن تيمية رحمه الله، وأنه قول يحل مشكلات بيوت تَنحُبُ لإرجاع الميثاق الغليظ بين الزوجين، فبدلاً من أن يأخذ بأقوال ابن تيمية عند اللزوم، أخذ بها في كل الأحوال، وأصبحت القاضية على جميع أقوال العلماء، وناسخة لأقوال أكثر الصحابة وفتاوى التابعين، ثم المذاهب الأربعة.

أهكذا تكون الصحو بعد النوم؟ أم هي إغماءة بعد سُبَات؟

الانقلاب الذي يحصل من غير اتزان قد يفوق الضرر المعادي وقد يساويه، لكنه ليس بخير قطعاً.

(١) انظر: «العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» لابن عبد الهادي، ص:

والعاقِل المتَّزن من يستثمر كل الأقوال، ولا يوفّر قولاً إلاّ وله نازلة تحتاجه.

لم قلتُ: قتل أخيه؟

من حِنَكَةِ المفتي أن يختار لمن يفتيه القول الأصلح له، فإذا سئل عن حُكْمٍ لم يجب حتى يعلم حال السائل: أمتورط هو بالذنب ويريد الخلاص منه؟ أم أنه يخطط لعمله؟ وهل هو قُدُوة أم من السُّوقَة؟ وهل هو غني أم فقير؟ وهل السؤال عن حالة سِلْمٍ أم حرب؟ وهل السائل كبير أم صغير؟ وهل الفتوى عن حالة في شيخوخة أم شباب؟ وهل الفتوى عن حكم في بلد غير مسلم أم بلد إسلامي؟ يسأل ما يفيد من هذه التفاصيل وغيرها.

ومن الأمثلة القريبة سؤال: ما حكم وضوء من مس فرجه؟ فالفرق كبير بين من يقف في عمله إماماً بأثرابه، ومن هو جديد التزام بالصلاة.

وهنا يظهر الجاهل بروح دين الله تعالى، مَنْ لا يعرف من الأحكام إلاّ ترجيح قول واحد، ونسف ما عداه من الأقوال، وكثير من فتاويه يقول فيها: «الراجح في المسألة كذا»، ولست أحرّج عليه أن يرجح الراجح لديه، ولكن سلوكه أمره أن ينفي الأخذ بالقول الثاني بكل حال، وينكر أشد النكير على من يقول به، بل ثنّيا كلامه وإيجاءاته تدلُّ على بطلان كل قولٍ مخالفٍ لما يأخذ به.

قتل الآراء الفقهية الأخرى جريمة تصادم روح الشريعة الغراء، ولقد أنزل الله في كتابه: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهو العليم الخبير أن اختلافاً علمياً سيكون بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في

تفسير القرء، فعلى سبيل المثال: ذهبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى أن معناه: «الطهر»، وأما ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد روي عنه أنه فسره ب: «الحيض»^(١).

حوار بين شيخي وأحد طلبة العلم

يذكر شيخنا العلامة محمد عوامة حفظه الله، أن أحد الطلبة سأله: ما القول في السعي في توحيد المذاهب وحمل الناس على مذهب واحد؟ أجابه الشيخ بإيجاز:

«هذا السعي مخالف لإرادة الله عز وجل في تشريعه، ولرسوله ﷺ، وللصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وللسلف من بعدهم، ومخالف للعقل».

ثم فَصَّلَ له الشيخ بقوله: «ألم يكن الله عز وجل يعلم من قديم الأزل أن العرب ستستعمل كلمة قرء في المعنيين: الحيض والطهر؟ قال: بلى.

قال: ألم يكن الله عز وجل يعلم من قديم الأزل أنه سيوجد صحابي اسمه زيد بن ثابت، وآخر اسمه عبد الله بن مسعود، وأن زيذاً سيقول: القرء هو الطهر، وأن ابن مسعود سيخالفه ويقول: القرء هو الحيض؟ قال: بلى.

(١) أخرج الإمام مالك، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «انْتَقَلَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ حِينَ دَخَلَتْ فِي الدِّمِّ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَتْ: صَدَقَ عُرْوَةُ، وَقَدْ جَادَلَهَا فِيهِ نَاسٌ، وَقَالُوا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ﴾»، فَقَالَتْ: «صَدَقْتُمْ، وَتَذَرُونَ مَا الْأَقْرَاءُ؟ إِنَّمَا الْأَقْرَاءُ: الْأَطْهَارُ». انظر الموطأ برقم: ٥٤٩.

وروى البيهقي في «السنن الكبرى» ٧: ٦٨٥، برقم: ١٥٣٩٨، عن ابن عباس في معنى: ثلاثة قُرُوء: قال: «ثَلَاثُ حَيْضٍ».

قال: إَذَا فلم لم ينزل الله تعالى قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٍ﴾ على وجه لا يحتمل اختلاف ابن مسعود وزيد، فيقول: ثلاث حيض، أو ثلاثة أطهار، فيحسم الخلاف، ولا يدع مجالاً لقائل^(١).

وبعد هذا فيا للتَّحْجِيرِ ممن يقدِّم رأياً معتمداً، ويترك أخاه هملاً، بل إن فاعل هذا ليستحق التأديب والمنع من الفتوى، أما علمت أن من روح الشريعة وجود أكثر من قول، كما قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (ت: ١٠١ هـ) رحمه الله: «ما سرَّني لو أن أصحاب محمد لم يختلفوا، لو لم يختلفوا لم تكن رخصة»^(٢).

تصدير رأي واحد وإيهامُ العامة أن هذا الوحيد حكم الإسلام احتكار لا يرضاه الله تعالى ولا رسوله ﷺ، ولو أراد الله ألاَّ يختلف في الفروع لجعل الشرع كله كالمسائل غير المختلف فيها، فما بين المسلمين خلاف في عدد الصلوات، ولا تحديد أيِّ شهر الصيام، ولا في أيِّ شهر الحج، ولا نسبة نصاب الزكاة في المال، وكثيرٌ غيرها.

(١) انظر: «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين» لفضيلة العلامة الشيخ محمد عوامة، ص: ٢٦.

(٢) أخرج الدارمي برقم: ٦٢٨، أنه قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: لو جمعت الناس على شيء. فقال: «ما يسرني أنهم لم يختلفوا، قال: ثم كتب إلى الآفاق وإلى الأمصار: ليقض كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم».

كما أخرج الدارمي عقب الحديث الآنف: عن عون بن عبد الله، أنه قال: «ما أحب أن أصحاب النبي ﷺ لم يختلفوا، فإنهم لو اجتمعوا على شيء فَتَرَكَه رجل ترك السنة، ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحد أخذ بالسنة».

ثم ألا ترى عُقْمَ تفكير من يرضى وجود المذاهب الأربعة، ويعتقد عظمة رسالة الإسلام يجعل الفهم للدين على مذاهب، ثم ما يلبث أن يتقيّد ويقيّد الناس معه بمذهبه الذي ارتضاه!

المذاهب أمام المفتي كالعقاقير عند العطار، يعطي هذا ما يناسبه، وذاك ما يسكّنه.

استمتع بالخلاف فإن للرأي الآخر وقتًا وسائلاً يحتاجه

دعوني أبين وجهة نظري في التفكّر بعظيم فضل الله تعالى علينا لمّا شرع هذا الدين، وجعل في فهمه مذاهب، وأقوال الفقهاء أحياناً تبدأ في أقصى اليمين، ولا تنتهي إلا في أقصى اليسار.

فالأول يقول: إن قراءة الفاتحة للمأموم خلف الإمام مكروهة تحريمًا، فلو قرأ وجبت إعادة الصلاة ما دام الوقت باقياً، والآخر يرى: أن عدم المأموم لها تُبطل الصلاة! أهو عبث في الدين أقره الله تعالى؟ حاشا وكلا، إنها الرخصة العظيمة حتى لا يكون في الدين حرج.

صليت مرّة في المسجد النبوي، فرأيت صفوفًا عظيمة جدًا تقتدي بالإمام، متقدمةً عليه في الوقوف، لولا تخريج المسألة على مذهب السادة المالكية بجواز صلاتهم لوقع الناس في الحرج الشديد، ووقعت في الحرج كيف أنصح هؤلاء الجماهير الكبيرة! والمسألة مكررة في المسجد النبوي في كل وقت صلاة، من هذه المسألة وأمثالها تدرك عظمة اجتهاد الأئمة في فهم النصوص، وتدرّك أن الناس بحاجة للمذاهب وتفرّيعاتها في كل لحظة في الكون، فأين المضيّق على الأمة، الحامل لها على رأي واحد لا شريك ولا ند له!

أصابته نجاسةٌ دم من يدي لوحة مفاتيح الحاسب، ولولا مذهب السادة الحنفية بطهارة الجهاز مسحاً بالمنديل، وإزالة عين النجاسة لضاقت علي الفتوى بما رُحِبَتْ، وكيف أغسل جهازي بالماء لو أنني تقيّدت بمذهب السادة الشافعية؟

إذا اقتنعتَ برأي فلا حرج عليك أن تتبناه، ولكن اتق الله أن تقتل الأقوال الأخرى، ولو أراد الله من المسلمين ألا تتعدد الأقوال لحسم الأمور كلّها وجعلها رأياً واحداً، كأصول العقيدة، ولكن يريد أن يخفف عنهم، وألاً يقع الناس في الحرج والتحرُّج، وهي صدقات تصدّق الله بها على عباده، فلنقبّل صدقته.

إذا خيّر بين أمرين..

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَا خَيَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَأْتُمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ، كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ»^(١).

من خلال هذا الحديث انقسم الناس في الفتيا إلى مدارس:

- مدرسة ما فهمت الحديث جملة وتفصيلاً، فما خيروا بين أمرين إلا اختاروا أيسرهما وأشدّهما وأثقلهما.

- مدرسة فهمت من الحديث الشطر الأول منه فقط، وأهمّلوا الشطر الآخر بالكلية، فلم يُعْمِلُوا قَوْلَهَا: «مَا لَمْ يَأْتُمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ، كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ»، فترى أحدهما يتعامل مع الاختلاف الفقهي تعامل الانتقاء، يبحث

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٦، ومسلم برقم: ٢٣٣٠.

عن الرخصة أين وُجِدَتْ ويقَدِّمُها للناس، وبعضهم وصل إلى أكثر الأقوال شذوذاً وُبُعْداً ومخالفةً لروح الشريعة ومقاصدها.

- مدرسةٌ فهَمَّتْ الحديثَ على حقيقته وطَبَّقَتْه كما هو، فإنهم يختارون الأيسر، إن لم يكن إثماً.

لقد أُولِعَ عدد من الشيوخ بطريق واحد في الفتوى، فلا تكاد تسأله عن شيء إلا قال: «حرام»، وبعضهم سار مساراً عكسياً، فلا تكاد تسأله عن أمر إلا أفقَى بالجواز.

إن أحد الشيوخ كان ينتقي الفتاوى في الطلاق، بل إن لم يجد فتوى لَفَقَّ بين قولين أو ثلاثة، وهكذا حتى يولِّدَ رخصة، فلم يعد لمسائل الطلاق في أعين الناس قيمة، وفي أكثر الأحيان يطلب من السائل أن يكفِّر عن يمين الطلاق كفارة حِنْثٍ يمين، فصار بعض العوام يتنَدَّرُونَ بقولهم: «أذهب إلى فلان وسيحلها لك بمبلغ كذا».

واجتمع شيخنا الشيخ عبد المجيد معاذ (ت: ١٤٤٥ هـ) رحمه الله بهذا العالم، وناقشه ببعض الأقوال الساقطة الباطلة، فأصرَّ إصراراً عجيباً، فترك شيخنا الحوار وسأله: حدثني ما هو الطلاق الذي يقع في نظرك؟ فإني لم أجد مسألة واحدة عندك توقع بها الطلاق.

غضب الشيخ غضباً شديداً، وهمَّ أن يخرج من المجلس لولا أن أصحاب المكان سَكَّنُوهُ وأجلسوه، بل أجبروه بعظيم لطفهم. حقاً إن الشيخ لم يُجِرْ جواباً لهذا السؤال، فأنا شاهد عيان عليه، أنه يُرجع المرأة إلى زوجها لو طلقها بعدد نجوم السماء، كُلُّ طَلْقَةٍ في مجلسٍ مستقلٍّ، مع إصرار أو تهديد أو زجر أو نية

منع، سواء أكان الطلاق صريحاً أم كنايةً، وسواء أكان معلقاً أم منجزاً، وسواء أكان بنية اليمين أم بنية الطلاق، كل الأحوال والصيغ والحالات يُبطل الطلاق ويُرجع المرأة، فإن أعيته الحِيل فسَقَ الشهود على العقد! نعم نعم هكذا، يحكم أن الشهود على عقده الأول يوم زواجه كانوا فُسَّاقاً، فإن قيل له: حضر عقده فلان وفلان من العلماء والصلحاء والأولياء صاح بوجههم: أَوَلَمْ يعصوا الله طرفة عين؟

وكأنه نَسِيَ أن الأبناء الذين وُلِدُوا بعد العقد الأول غير الصحيح هم أبناء شُبْهَةٍ وهذا ممَّن لا يُسأل عن طلاقٍ إِلَّا وأُفتى بالرجعة.

ومثله كثير: لم يدع شُبْهَةً من الشُبْه، بل لم يترك أمراً قريباً من صريح الحرام إِلَّا دل عليه، وأُفتى بجوازه، وكل هذا تحت مسمى: «التيسير على الأمة»، ناسياً تنمة الحديث: «مَا لَمْ يَأْتُمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ، كَانَ أَبْعَدُهُمَا مِنْهُ».

ومُؤَيِّنَا في عصر فيه أناس جامدون، يحكمون على ألفاظ المجاز أنها شرك بالله تعالى، ويحملون المتكلم على أسوأ احتمال، فالكلمة التي تحتل الشرك والمجاز حكم على صاحبها بالشرك احتياطاً! فإذا أعياه الأمر وبيَّن له العامي ذو العلم اليسير أنه - بلغته السهلة - مستحضر للمجاز، حكم بالحرام سداً للذريعة! وهكذا أصبح مبدأ سدِّ الذرائع ذريعةً لهجرِ أمورٍ كثيرة فيها متعة سعة الشريعة، ووسَّعُوا رقعة التضييق في الدين.

أما الذي ما خُيِّر بين أمرين إِلَّا اختار أعسرهما ففي الغالب تعرف فتواه بالمنع قبل أن ينطق بها، ووصل ببعضهم من سطحية فهم الشريعة، والبعد عن روحها أنه يطالب أويتخيل أن لكل مسألة في الدنيا نصّاً نبوياً صريح الفتيا.

يفتي بها أربابها

الأول: أجل الفتوى في بعض الحالات على من يعيشها

حدثني أحد علماء البلاد الإسلامية التي يعيش فيها فرقتان، قال: كل مذابح القُرُوج في بلدنا لأهلنا، وما كان في البلد دجاج يذبح على يد أهل الضلال قط، وكان أبناء المذهب الآخر يشترون ذبائح الدجاج من محلاتنا، حتى جاء سائل وسأل أحد العلماء على التلفاز عن حكم أكل ذبيحة أولئك، فأفتاه الشيخ بأنها غير جائزة، وبَغَضَ النظر عن ذات الفتوى صحة وخطأ، فإن هذه فتنة عظيمة، لأن الشيخ أفتى في الحال ولم يُجِلْ الجواب على أهل العلم في ذاك البلد، الذين يعيشون الواقعة، وأثارت هذه الفتوى حفيظة الجهة الأخرى، وهبوا يقولون: أنأكل من ذبائحهم ولا يأكلون منا؟ أيعاملوننا معاملة المشركين، ونحن نعاملهم بصفاء القلب وحسن السريرة؟ وأنشئت من جرّاء هذه الفتوى مذابح، ومع الأيام وتعايش الشعب بعضهم مع بعض صار لمحلات الطرف الآخر زبائن من أبناء جلدتنا، وكان أبناء أولئك يشترون منا، فصار الأمر عكس ذلك بناء على الفتوى.

كثيراً ما تأتي فتاوى من أربابنا، ويسألونني عن شراء البيت عبر المصارف الربوية في تلك البلاد، فأحيلهم إلى المجلس الأوربي للإفتاء.

نعم والله، هم الأعراف والأقدر والأحوط والأكثر إماماً بالموضوع، فهم يقدّرون الأمور بنصابها، ولكن الذي تصوّر نفسه أنه حامي الحمى، وأن الإسلام له، ويتخيل أنه إن فسح المجال لغيره من العلماء فإن الدين يخرب، وأن الحفاظ على بيضة الإسلام كان ولا يزال على يديه هو، أو يدي جماعته،

فهذا لن يحيل على علماء المجلس الأوربي، لأنه يراهم من مميّعي الدين، ومتساهلي الفتوى، ولا يجوز الأخذ بكلامهم.

الثاني: لا يفتي بأهل بلد خاص من كان خارجاً عنها

روي في الأثر: «لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحُمْقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يُورَثُ»^(١) إذا كانت مصّات من الحليب تؤثّر، فكيف برضاع العلم من الحمقى، وأنصاف المتعلمين، وما أكثر من ساد قومه حتى غدا فيهم الأحمق المطاع!

في تركيا: حَمَلُ السبحة ذاتِ الحَبّاتِ المئة إظهار للتدين السُّيّي، وجهادٌ في سبيل إثبات حُبِّ الله تعالى ورسوله ﷺ، وكان الناس يُقْتُلُونَ على الهويّة، أو قل على أمور من الدين، كالقُبْعَةِ المسجدية، وحَمَلِ السُّبْحَةِ، وأمثالها.

واليوم يُسأل أحد المعوّقين في الفتوى: أهذه السُّبْحَةُ جائزة؟ فيجيب بكل جرأة: هي بدعة، وهي من شعائر الصوفية! وأجزم أن هذا المقلّد لم يَطَّلِع على فتوى ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ) رحمه الله في استعمال السبحة في الصلاة، إي والله هكذا: في الصلاة، فكيف بخارج الصلاة^(٢)؟

(١) أخرجه البزار في مسند عائشة من «البحر الزخار» برقم: ٤٢، والصحيح أنه موقوف وليس من كلام النبي ﷺ، ولما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠: ٢٠٤ رقم: ٧٤٣٨ أعقبه بلفظ آخر عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «لَا تَسْتَرْضِعُوا الزُّهَّاءَ». ثم قال الهيثمي: «وإسنادهما ضعيف» ثم أعقبه بحديث ٧٤٣٩ عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ نَهَى عَنْ رَضَاعِ الْحُمْقَاءِ. وأشار إلى ضعفه أيضاً، والمهم هنا الفائدة، وإن كانت حكمة لا حديثاً مرفوعاً.

(٢) جاء في «مجموع الفتاوى» ٢٢: ٦٢٥: وسئل: عما إذا قرأ القرآن ويعد في الصلاة بسبحة هل تبطل صلاته أم لا؟ فأجاب: إن كان المراد بهذا السؤال أن يعد الآيات أو يعد تكرار =

أمور كثيرة من شعائر التدين عند الترك، ويفتي من لا صلة له في واقع هؤلاء أنها بدعة، أين البدعة؟

جلس التُّركُ عشرات السنين يثبِّتون المسلم عن طريق المناسبات الدينية، كالمولد النبوي، وليلة القدر، وليلة النصف من شعبان، ومواسم رمضان بتمامه، ولا يستطيع الداعي إلى الله جلب هؤلاء الناس، من أقبح العراة إلى أقرب ملتزم إلا عن طريق مواسم الدين، وكم تحرك القلب من التحلل إلى التدين عن طريق مواسم الدين هذه، وسل الأمم الشامية والمصرية والتركية والمغربية، كم استطاعوا أن يجذبوا الشاب غير المتدين إلى التدين بدعوته إلى إحياء ليلة في المسجد لموسم من هذه المناسبات!

في تركيا: الاحتفال بالمولد النبوي شعار عظيم لإثبات أهل الإسلام أنفسهم أمام غيرهم، فيأتي من لا يعرف هذا ليقول لهم: إن عمل المولد بدعة! فتصيب الداعية شرارة أعدائه، مع شرارة أبناء جلدته، ويفرح العدو بتحوّل المعركة من ساحته إلى ساحتنا، وكم كان الشائئ يحارب الداعي لأنه يدعو إلى الإسلام، ويجذب الشباب عن طريق المواسم، ولكنه تحقّق لديه الهدف على يد غيره، حيث تفرّغ لمحاربة هذه المواسم من لا يعرف قيمتها الدعوية.

في تركيا: كان يعاني المسلمون مرارة الاضطهاد على مر الساعات، ويُحارب فيه المسلم حرباً شديدة، وما أعظم ألمه، ولكن ألمه الأكبر من مسلمين حوله ديدنهم الطعن بإمامهم الأكبر أبي حنيفة (ت: ١٥٠ هـ)

= السورة الواحدة مثل قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] بالسبحة فهذا لا بأس به وإن أريد بالسؤال شيء آخر فليبينه، والله أعلم.

رحمه الله، وهم يرونه الباب الأكبر للوصول إلى الله تعالى، وأكثرهم يتعبد الله على مذهبه.

في تركيا: أكثر الناس أعاجم، يستمعون عقب الأذان بخشوع إلى دعاء الوسيلة من الإمام لأن السواد الأعظم من المسلمين لا يحفظه، ولا يقوى على حفظه، فيأتي من يقول لهم: هذه بدعة، والسنة أن تقرأ الدعاء، لا أن تبتدع السماع للدعاء، فتفوت السنة ويسكت الناس، ولا يحفظ الأعجمي الدعاء.

في تركيا: أمة جُلهم لا يعرف قراءة القرآن، يجلس المصلون بإنصات وخشوع لسماع آيات من القرآن الكريم، يتلوها الشيخ الإمام الذي أم الناس عقب صلاة العصر، فيأتي من يقول: هذه بدعة، لأنه ما جاء عن النبي ﷺ أن يقرأ القرآن عقب الصلاة للناس، وهم يستمعون.

في تركيا: أمة تعظم حُرْمَاتِ الله تعالى، قد سمعوا الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، أنه رفع يديه يدعو لصاحب البيت عقب الدعوة، فتراهم يحرصون على الدعاء الجهري عقب كل طعام يدعون إليه، يدعو العالم أو الصالح، والباقون يؤمنون على الدعاء، ولا يستطيع العامي الأعجمي أن يدعو بنفسه، فيأتي من يقول لهم: إن الاجتماع على الدعاء الجماعي بدعة^(١).

(١) وقد ثبت في الأحاديث الصحاح دعاء النبي ﷺ لأهل البيت، وما أظن الصحابة يسمعون دعاء النبي ﷺ ويسكتون ولا يأمنون على الدعاء أبداً، فمن هذه الأحاديث ما جاء عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي، فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ طَعَامًا وَوُطْبَةً، فَأَكَلَ مِنْهَا، ثُمَّ أَتَى بِتَمْرٍ فَكَانَ يَأْكُلُهُ وَيُلْقِي النَّوَى بَيْنَ إصْبَعَيْهِ، وَجَمَعَ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى، ثُمَّ أَتَى بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ، قَالَ: فَقَالَ أَبِي: وَأَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّتِهِ: =

يا أُخَيَّ: يجوز عند الأعاجم ما لا يجوز عند غيرهم، ويباح للأعجمي ما لا يباح لغيره، فمن الصعوبة بمكان أن يحفظ الأعجمي العامي الأدعية والأذكار الواردة، ومن الطُرُق الدَّعَوِيَّة أن يرفع المعلّم صوته بالوارد كي يسمع من لا يحفظ فيحفظ، وليس هذا ببدعة، وإنما هي طرق للتَّحَايُل على الجهل، وإرغام الشيطان في الحفظ، والوصول إلى الله تعالى.

تكرار المكرر

اسلك الطريق الدعويّ الأزرق، واحذر الأحمر، فهو وإن كان أقصر لكنه مزدحم.

فتحت مَخْطَط الطريق - وأنا أريد أن أزور أخًا لي في الله تعالى - ووضعتُ خريطة بيته وفوجئت أن رأيت راشد الطريق يَحْيِيّني بين مسلكين: أحدهما وقد حدده باللون الأحمر، وهو علامة على اختناق مروري قاتل، والآخر أزرق مفتوح، ونظرت إلى عدد الدقائق المحددة بين الطريقين فإذا الفرق بينهما واسع، لأن الطريق الأزرق أَقْلُ وقتًا، وإن كان أطول من حيث المسافة المقيسة.

أحب أن تضع جهاز: جي بي إس لسلوكه في الدعوة إلى الله تعالى، فعندما ترى طريقًا دعويًا مزدحمًا، فيه الكثير من الدعاة فاتركه، واذهب إلى طريق

= ادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَهُمْ فِي مَا رَزَقْتَهُمْ، وَاعْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمَهُمْ». رواه مسلم برقم: ٢٠٤٢. ومنها: ما جاء عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَجَاءَ يُحْزِرُ وَزَيْتٍ، فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْطَرْتُ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلْتُ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّيْتُ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ». رواه داود برقم: ٣٨٥٤، والحديث صحيح.

سريع، ولكن السالكين فيه قِلَّةٌ، ولا تَبْتَثِسُ بِطُولِ المسافة، فَإِنَّكَ ستصل أسرع.

يفتح المسجد الأول حلقات للقرآن الكريم، فيفتح المسجد المجاور له حلقات مثلها، فلم لا تتوجَّهون إلى حلقات التدبر للقرآن؟ أو حلقات الحديث الشريف، أو حلقات الفقه؟ ليتكامل العمل.

وتستضيف مؤسسة دعوية عالمًا معروفًا وداعية شهيرًا، فتقلِّدُها المؤسسة الثانية بالفكرة نفسها، ولو استضافوا غيره لانتفعت الأمة بدُعَايَها جميعًا، ولما زاد الضَّغْط على عالم فريد.

وحَقَّقَ كتاب: «رياض الصالحين» عددًا كبير من العلماء، ثم أرى من شَمَّرَ عن ساعديه لطبعة مُحَقَّقة، وقد أقنع نفسه بأن طبعته ستأتي بأمر زائد، وعناية فريدة، وهذا لا شك فيه، فما من رجلين يعملان عملاً إلا تميَّز أحدهما على الآخر بِمَزِيَّةٍ، ولكن يجب على كل واحد منا أن يسأل نفسه: هل الأمة بحاجة لتكرار هذا العمل؟ أم حاجتها إلى غيره من الأعمال التي لم تُحْدَمْ بعد؟

والسؤال: لم لا تتوجه الجهود للتضافر، فيترك هذا الأخ «تحقيق رياض الصالحين»، وينصرف إلى العناية بكتاب جديد، وهكذا حتى تحظى الأمة بتراث علمائها، ولا تُحْرَم منه شيئًا؟

كما أنه لا يُمنَع تكرار العمل عند الحاجة الداعية للتكرار، كأن يكون الكتاب المطبوع غيرَ مُخدوم، أو كثير الخطأ، أو يكون الحيُّ محتاجًا إلى المزيد من حلقات القرآن، وليس لدى المسجد قدرة على هذه الزيادة.

جَعَجَعَةٌ وَلَا إِبداعَ يَشُدُّ النظرَ

قال لي شيخنا العلامة الشيخ صلاح الدين الإدلبي حفظه الله مرة: إن من أَفْذَحَ أخطائنا الجمودَ في طريقة التأليف وعدمَ الإبداع فيها، فيؤلف العالم كتابًا، ويأتي مَنْ يختصره، ثم مَنْ يختصر المختصر، ثم من يشرح المختصر، ثم توضع الحاشية على الشرح، ثم يُشْرَحُ الشرح، ثم تختصر الحاشية، وهكذا يبقى الدوران في فَلَكَ كتاب واحد، اختصارًا وتعليقًا وشرحًا وإيضاحًا وحاشية واختصارًا للحاشية.

ومن جملة العلوم التي أبدع فيها قدماء المسلمين علم الطب، وعنهم أخذ الغربيون، ثم طَوَّرُوا وأحسنوا وأبدعوا، والسؤال الآن: ماذا لو عمل الغربيون بطريقة الاختصار والحاشية واختصار الحاشية وشرح المختصر وهكذا؟ أكان يصل الطبُّ إلى ما وصل إليه؟

والعذر قائم لأئمة سابقين فعلوا هذا في وقت لا وجود فيه للطباعة، والعالم مضطَّر لِنَسْخِ كتاب مَنْ سبقه، فبدلاً من أن ينسخه بحاله يجمع كتاباً من عدة كتب أمامه بما يصلح لخصوص درسه وطلابه.

ولكن لا عُذْرَ أبداً لمن يُحَقِّقُ كُتُباً لا جديد فيها في هذا الزمن، ويصرفُ من الوقت والجُهدِ على إخراج كتاب مجمَّع من كُتُبٍ أخرى، أو مختصر لكتاب آخر، وقد أغنى غيره عنه تماماً.

آه ما أحوجنا إلى النظرات الجديدة، والأساليب الجديدة، ليأتي بالجديد فيما يمكن الإبداع فيه، فالشيخ عبد الرحمن حبنكة (ت: ١٤٢٥ هـ) رحمه الله لم يخترع علمَ منطق جديداً، إنما أعاد صياغته وقَدَّمه بثوبٍ مختلفٍ عن سابقه،

وسماه: «ضوابط المعرفة»، وشيخنا العلامة الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٢٩ هـ) رحمه الله لم يبدع علمَ بلاغة من بنات أفكاره، ولكنه أبدع في طريقته وجدّد في تأليفه: «تيسير البلاغة».

التميُّز في الطُّرق الفارغة

إنه الطريق الأحمر المزدحم، وليس التمييز في غير الطريق الأزرق، انظر إلى عناية الأمة بكتاب العز بن عبد السلام (ت: ٦٦٠ هـ): «القواعد الكبرى» الذي لم يُنْسَج على مِنْواله، وكتاب: «الموافقات» لأبي إسحاق الشاطبي (ت: ٧٩٠ هـ)، وانظر عنايتهم بشرح فلان على متن المنهاج للنووي (ت: ٦٧٦ هـ)، لن يكونا سواء، لأن «القواعد الكبرى» و «الموافقات» كتبَ تميّزت في طرح الجديد، أما شروح المنهاج فهي متشابهة، وهيئات أن يكون التميُّز كالتقليد.

وكم أَرْهَبَ طريقُ الدعوة الفارغ الطويل أناسًا، توهّموا أن السير فيه عسير ولن يصلوا، فسلّكوا الطريق الذي يَعُجُّ بأمثالهم، ولكنّهم في النتيجة يكرّرون الأعمال، وما تميّزوا، والفائز من سد الثَّغَر المتروك، ولو تكلف المشي أبعدَ، ولكن أسرع وأنجز، حتى صار كأنه شامةٌ في الناس.

وأنقل كلمة سمعتها عن بعض الدعاة، - والله أعلم بقائلها الأول -: إن كنت تريد أن تعمل للإسلام فخذ مبدأ: «دعم الموجود، وإيجاد المفقود». وإن شئت فليكن شعارك: عملي في الدعوة: «تأييد الصحيح الواقع، وتأمين المطلوب النافع».

لأن الفطن القوي من يرمّم قديم المباني ويستثمرها، وينشئ ما يحتاج من المحاريب ويستخدمها.

مبالغات قاتلة

سلوك المبالغة عكس التوازن تمامًا، فالإنسان المتوازن لا يبالغ ولا يعطي أيّ أمر أكثر من حجمه الذي تقلّده، وويل للمبالغة الزائدة فإنها لم تدخل حَلَّةً من خلال الدعوة إلّا أفسدتها، وما أحسن هدي رسول الله ﷺ، وما أفسد المبالغة فوق الأمر النبوي! وقد يلجُ المبالغُ في دين الله بَابَ قَلَّةٍ الأدب مع الشارع، فَمَنْ أمر بالسنن الرواتب وصوّر أنها كالفريضة فقد أساء، ومن حطّم خطأ تحطيمًا أكثر مما يستحق سقط نقده من أعين السامعين.

ولو أراد الله أن تكون صلاة الجماعة في المسجد فرضًا على الرجال كفرضية الصلوات الخمس لأنزل فيها قرآنًا صريح اللفظ يُتلى، أو لما اختلف العلماء في ذلك، ولكنَّ سعة الاختلاف أمرٌ يريده الله تعالى.

أحسن ما يعبر عنه في الإقرار والنقد هو الحجم الذي أَرَادَهُ الشارع الحكيم، فليس إنكار الموسيقى كإنكار الزنى، ومن سوّى في اللفظ واللهجة عند الإنكار فقد خلط وأساء.

حدثني شيخنا السيد محمد علوي المالكي (ت: ١٤٢٥ هـ) رحمه الله، قال: كان فيما سبق يقال عند بعض مُنْكَرِي شَدِّ الرحال لزيارة النبي ﷺ: إِنَّ شَدَّ الرحال للزيارة غير مشروع، ثم خلف من بعدهم مَنْ يقول: إنه غير جائز، ولكننا فوجئنا بتأليف جديد ينصُّ في كتاب عَقْدِيٍّ على أن شَدَّ الرحال ينافي التَّوْحِيد، وأنه باب من أبواب الشرك الأكبر بالله تعالى.

قلت: ولا أنكر أن بعض الغلاة كان على عكس ذلك، فكان يقول في مسألة شدِّ الرِّحال أشدَّ الأقوال، ثم خَفَّفَهَا وخَفَّفَهَا، حتى وافق الجمهور.

وخلاصة رأيي في التعامل مع الأحكام الشرعية: أن المبالغة القاتلة كالسرطان، هي تكبير للشيء الصغير، ولن تخلو في الدعوة من سوء الأدب مع المشرِّع الذي أعطى كُلَّ حُكْمٍ حجمه اللائق به.

حوار مع سُنيٍّ متطرف

هكذا تكون سوق المزايدة، وأصدقكم الحديث، ولا أبالغ، وأنا قد وصلت في كتابة هذه القاعدة، تأتيني مراسلة من أحد السائلين، وهو سُنيٌّ تأثر بشيخ من خطباء حلب، يَلْعَنُ بعض أصحاب النبي ﷺ، ويقول: لا يجتمع في قلبي حب عليٍّ ومعاوية، ويسألني الأخ: ما تقول في معاوية؟

قلت: صحابيٌّ بلا نزاع، من بني آدم الخطَّائين بلا نزاع، في إمارته ما له وعليه بلا نزاع.

قال: فهل تلعنه؟ قلت: أعوذ بالله أن ألعن أيَّ ميِّتٍ مات على لا إله إلا الله، مهما كان منه من خطأ وزلل، فكيف ألعن من ثبتت صحبته؟ وهب أن أباك كانت له كبائر وأخطاء جسام، فهل هذا مسوغ لأحد أن يلعنه؟

قال: فهل تقول: إنه كاتب الوحي؟ وخال المؤمنين؟

قلت: أما كتابة الوحي، فلم تثبت، وقد تأخر إسلامه إلى فتح مكة، فهو من الطلقاء، ولم ينزل من الوحي بعدها إلَّا القليل، وهب أنه نزل الكثير، وهب أنه كتب، فالكتابة بحد ذاتها دليل على أمانة الكاتب زَمَنَ الكتابة بلا

شك، ولكن الكاتب للوحي كَمْصُور العلماء اليوم، قد يصور أكابر العلماء ثم يرتدُّ على العالم ذاته.

ثم اعلم أن عبد الله بن أبي السرح كتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتدَّ عن الإسلام، ثم رجع إلى الإسلام أخرى، وحَسُنَتْ توبته، والذي يُهْمُّك هنا أنه لم تنفعه كتابته الوحي في رده شيئا، والمعوَّل عليه: هل استطاع أن يَحْجُونَ ابنُ أبي السرح في كتابة الوحي شيئا؟ المهم أن يُكْتَبَ الوحي بحروف صدق كما أملاها النبي ﷺ، ثم إن ارتداده عليه، ولن يؤثر على الإسلام شيئا.

وأما نعتة «خال المؤمنين»، فليس لها أيُّ مستند شرعي، ولا قوَّة دليل، ولا أعرف أحداً لَقَّبَ النبي ﷺ: «أبا المؤمنين» لأنه زوج أمهات المؤمنين، وهو لنا روي فداه بمنزلة الوالد بلا شك^(١)، وأولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولكن هل يجوز التبرُّع وإطلاق الألقاب من أنفسنا عليه، فنقول: «أبو المؤمنين»؟

يا صديقي: أم المؤمنين لقب خاص بمن تزوجها سيدي رسول الله ﷺ، فيجب على كل مسلم أن يعظَّم أمهات المؤمنين، وأي امرأة كانت عند الحبيب ﷺ فلا يجوز التزوُّج بها عقب وفاته ﷺ، وتُعَامَل معاملة الأم، ولا يرى وجهها، تكريماً وحفظاً لعِرض المصطفى ﷺ، أمَّا أختها فليست خالة المؤمنين، وأما أخوها فليس خال المؤمنين، وكذلك أبوها ليس جدَّ المؤمنين.

هل سمعت أحداً قال عن حيي بن أخطب: هو جد المؤمنين؟ لم تُقَل هذه

(١) فقد جاء وصف هذه المنزلة على لسانه الشريف ﷺ في قوله: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أَعْلَمُكُمْ». أخرجه أبو داود برقم: ٨.

- حسب علمي - عن الصديق الأكبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا عن فاروق الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكلاهما آباء زوجات الحبيب المصطفى ﷺ.

ولكن لواء الردّ على الرافضة يجعل المسلم السيئ يتكلم بمثل هذه المزايدات.

ولقد تكرر معي مرّات: أن يسألني أناس عن اسم مركز من المراكز، فلما أخبرت السائل أنه باسم الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أصبح وَجْهُهُ مسودّاً وهو كَظِيمٌ، وقال: ألا يوجد غير هذا الاسم الذي يدل على الرافضة؟

سبحان الله، أأمرُ البوزي ببر الوالدين يجعلني أنفّر من برّهما؟ أم أنا صاحب منهج لا يهمني من تقاطع معي في منهجي، فهب أن شيعياً التقي معي في طريقي المستقيم في حب آل البيت، أأنحرف عن حبّهم من أجل مخالفتهم؟ وماذا عن بعض الفرق التي تعظّم رسول الله ﷺ؟ ألا أبقى على حيي وتعظيمي لحبيبي ﷺ بغض النظر عنهم؟

إن صاحب المنهج لا يغيّر طريقه، ولا يحرّف مساره، ولو تقاطع معه كل شاذّ في الدنيا، لأن طريقه المستقيم إنّما هو عن مبدأ، وليس عن انفعالات، ولا ردّة فعل عن سلوك غيره.

أهو سوق مزاد!

عبّرت عنها قبل قليل بقولي: «سوق مزاد» فهل هو كذلك؟ أو شرع يتّبع؟ تميل نفوس الناس نحو المبالغة، ولكنها في الجماعات ذات تأثير في إثبات الولاء والبراء للجماعة، فتتبع مَنْ قال بمنع شدّ الرجال إلى زيارة النبي ﷺ،

فتراه - وهو ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ) رحمه الله - يذكر الرايين للأئمة ويرجح الذي يراه مناسباً، ومن يطرح المسألة بهذا الإنصاف فهو محل احترام إذا وافق أو خالف.

ثم خلف من بعده خَلَفَ ذكروا رأي المنع الذي رجَّحه ابنُ تيمية، وسَفَّهوا الرأي المخالف، ثم تطور الأمر فصار حَكْمُ شد الرحال حراماً، ثم دخل في كتب العقائد، وشَنَعَ بعضهم على ابن تيمية رحمه الله، ووصفه أنه ممن مَيَّع المسألة، وكان الواجبُ عليه أن يكون صارماً في طرحها.

لعل من المزايدة الخاسرة أن يزحف الحكمُ من كتب الأخلاق إلى الفقه، إلى فروع العقائد، ثم ما يلبث أن يستلم مَنْصِب الصدارة في العقائد.

وعلى صعيد الفئة المقابلة، فقد دخلتُ البيت مرة - أثناء سكوني مع الطلاب وقت الدراسة - وإذا بصديقي قد ارتفعت أصواتُهما، فصاح أحدهما أترضى بفلان - وَسَمَّاني - حَكَمًا بيني وبينك؟

الثاني: أجل والله.

الأول: أنا أقول يا الله، ولن أطلب من غيره.

الثاني: وأنا أقول يا سيدي محيي الدين بن عربي (ت: ٥٥٨ هـ) أغثنى، ولن أطلب من غيره. وقال قولاً شنيعاً، لساني عاجز عن قوله.

التفتُ إلى الثاني وقلت له: على رأي من يرى الاستغاثة، وأنها مجاز، فإنهم لا يجوزون الاعتقاد بغير الله تعالى، وَيَعُدُّونَهُ شِرْكَاً أكبر، والله لا يرضى عَمَّن يطلبُ من غيره بهذه الصراحة والبِجَاحَة الواضحة.

أتصرّح بصريح العبارة أنك لا تريد الله؟ هو يقول: لن أسأل غير الله، وأنت تقول: لن أسأل الله تعالى؟ ما أظن أحداً يفتيك بجواز هذا في شريعة الإسلام أبداً.

لا للمزايدة يا أحباب، لا لِقَلْبِ الحقائق يا كرام، أُحِبُّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نعم، ولكن أحد الشيوخ قال لي: إن ما حصل مع الصحابة من مسائل الغلول والزنى وشرب الخمر والنداء من وراء الحجرات والإغلاظ على الحبيب ﷺ بالقول، كله لم يحصل منهم حقيقة، ولكن الله تعالى أجراه عليهم كي يتم التشريع.

أَيكون هذا من عدل الله تعالى أن يجري أمراً على صحابي جبراً، ثم يرجم حتى الموت من أجل التشريع؟ إنها رَدَّةُ الفعل عن وقاحة بعض الفِرَق الضَّالة، وإنها لمزايدة.



تقديم الدعوة





ابداً بواجب الوقت في الدعوة

لا يكاد ينقضي عجبني من دعوتين دُعِيَ إليهما رسول الله ﷺ، وفي كل منهما طعام وصلاة، لكن في الأولى: أتى من أجل الصلاة، فلم يجلس، ولم يأكل، حتى أنجز المهمة التي أتى من أجلها^(١)، والثانية: دُعِيَ إلى طعام أصلاً، وأراد أن يصلي بهم، فأنجز المهمة التي أتى من أجلها أولاً، ثم صلى، مع عظم

(١) عَنِ عِثْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً مِنَ الْأَنْصَارِ، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ أَنْكَرْتُ بَصْرِي، وَأَنَا أَصْلِي لِقَوْمِي، وَإِذَا كَانَتْ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ، فَأَصْلِي لَهُمْ وَدِدْتُ أَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَأْتِي فَتُصَلِّيَ فِي مُصَلًّى، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قَالَ عِثْبَانُ: فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ نُحِبُّ أَنْ أَصْلِيَ مِنْ بَيْتِكَ؟» قَالَ: فَأَشْرَفْتُ إِلَى نَاحِيَةِ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا وَرَأَاهُ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، قَالَ: وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرٍ صَنَعْنَاهُ لَهُ، قَالَ: فَتَابَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ حَوْلَنَا، حَتَّى اجْتَمَعَ فِي الْبَيْتِ رَجُلٌ ذَوُو عَدَدٍ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخْشَنِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ، لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُلْ لَهُ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ؟» قَالَ: قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّمَا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ لِلْمُتَافِقِينَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ». أخرجه البخاري برقم: ٨٤٠، ومسلم برقم: ٦٦٠، واللفظ له. والأحاديث كثيرة في هذا الباب، منها ما حكاه سيدنا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الصَّلَاةَ مَعَكَ وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا، فَصَنَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا فَدَعَاهُ إِلَى مَنَزِلِهِ، فَهَبَّطَ لَهُ حَصِيرًا وَنَضَحَ ظَرْفَ الْحَصِيرِ صَلَّى عَلَيْهِ رَكْعَتَيْنِ. أخرجه البخاري برقم: ٦٧٠.

أهمية الصلاة^(١).

خلاصة الأمر: أنجز واجب الوقت، ولا تُقَدِّم عليه أيَّ مهم، وبعد إنجاز الأهم لك أن تُرتَّب الأولويات كما ترى.

أدار ﷺ الوقت فأفلح، وأهدره أناس فخابوا

خطابي هذا للدعاة وليس لغيرهم.

تسأل طالب العلم: لم لم تُكْمِل دراستك؟ فيجيبك: لا وقت لديّ، وتسأل ثانيًا: لم لا تبذل من علمك شيئًا لمن يسمع منك؟ أجابك: وأين الوقت؟ جُلّ الدعاة يَشْكُون من قِلّة الوقت، وبرأيهم هم على صنفين:

الصَّنْف الأول: من ازدحم الوقت عنده كثيرًا، فهو ممن يقاتل على جبهات كثيرة، أو تفرغ لجبهة واحدة، كأن يكون مؤلفًا متفرغًا لمهمته، أو مربّيًا وقف عمره على ذلك، أو شِبْهَهُ.

الصنف الآخر: خَلَطَ أوراق الوقت، وتعثّر في ترتيب أولوياته، ولم يجعل المهام رُتَبًا، فهو غير مُكْتَثِر بالدعوة، ولم يجعلها أولوية عظمى في حياته.

تصدقون أنني لم أعر على حديث واحد اعتذر النبي ﷺ من أحد

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِبَطْعَامٍ صَنَعَتْهُ لَهٗ، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «قُومُوا فَلَأُضِلَّ لَكُمْ». قَالَ أَنَسٌ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لَبَسَ فَتَضَحَّيْتُ بِمَاءٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفَّقْتُ وَالْيَتِيمَ وَرَأَاهُ وَالْعَجُوزَ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْم: ٣٨٠، وَمُسْلِمٌ بِرَقْم:

لضييق الوقت^(١)؟

فإنك تجد أن لدى النبي ﷺ وقتًا ليتسابق مع أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٢).
ولديه وقت ليسمع حديثها، وهي تنقل أخبار إحدى عشرة امرأة من
نساء الجاهلية^(٣).

(١) وقد يَعْتَذِرُ ﷺ لأمر أخرى، وموازنات يراها، أو تأجيلًا قليلًا، كما جاء في حديث
أَسَمَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ، فَأَتَيْنَا، فَأَرْسَلَ
يُفَرِّئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ،
وَلْتَحْتَسِبْ»، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُفَسِّمُ عَلَيْهِ لِيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ،
وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّيِّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعَّقُ، قَالَ:
حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ كَأَنَّهُا شَرٌّ، فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «هَذِهِ
رَحْمَةُ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ». أخرجه البخاري برقم:
١٢٨٤.

(٢) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ
أُبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَعَالَيْ حَتَّى أُسَاقِكَ». فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ،
فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَلَسِيْتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ
لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَيْ حَتَّى أُسَاقِكَ» فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ
يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «هَذِهِ بِئِلَافِكَ». أخرجه أحمد في مسنده برقم: ٢٦٢٧٧، وأبو داود برقم:
٢٥٧٨، وقال محققو المسند: «إسناده جيد».

(٣) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدَنَ وَتَعَاقَدَنَ أَنْ لَا يَكُفُّنَّ مِنْ أَخْبَارِ
أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتِ الْأُولَى: زَوْجِي لَحْمٌ جَمَلٌ عَنَّتْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ لَا سَهْلٌ فُيْرَتَقَى وَلَا سَمِينٌ
فَيَنْتَقَلُ، قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أَبْتُ حَبْرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرُهُ، إِنْ أَذْكُرُهُ أَذْكُرْ عَجْرَهُ
وَبَجْرَهُ، قَالَتِ الثَّالِثَةُ: زَوْجِي الْعَسْتَقُ، إِنْ أَنْطَقَ أَطْلَقْتُ، وَإِنْ أَسْكُتَ أَعْلَقْتُ، قَالَتِ الرَّابِعَةُ:
زَوْجِي كَلِيلُ تِهَامَةٍ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةٌ وَلَا سَامَةٌ، قَالَتِ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ =

ولديه وقت أن يلبي دعوة من دعاه للطعام^(١).

= فَبَدَّ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِيدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهْدَ، قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَى، وَإِنْ اضْطَجَعَ التَّفَّ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ، قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَّايَا، - أَوْ عَيَّايَا - طَبَّاقًا، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكَ أَوْ فَلَّكَ أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكَ، قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمُسُّ مَسُّ أَرْزَبٍ، وَالرَّيْحُ رِيحُ زَرْزَبٍ، قَالَتِ الثَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ التَّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ، قَالَتِ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِجِ، وَإِذَا سَمِعْتَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكٌ، قَالَتِ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ! أَنَّاسٌ مِنْ حَيٍّ أُذُنِي، وَمَلَأٌ مِنْ شَحْمٍ عَضْدِي، وَبَجَحِي فَبَجَحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةِ دِشْقٍ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ، وَدَائِسٍ وَمُنْقٍ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ، وَأَرْفُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَفَنِّحُ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ! عَكُومُهَا رَدَّاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَّاحٌ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ! مَضْجَعُهُ كَمَسَلُ شَطْبَةٍ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجُفْرَةِ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ! طَوْعُ أَبِييْهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَبِظُ جَارَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ! لَا تَبْتُ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا، وَلَا تُنْقُتْ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا، قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوْطَابُ تُحْصَضُ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ حَصْرِهَا بِرِمَانَتَيْنِ، فَطَلَّقْنِي وَتَكَحَّهَا، فَتَكَحَّتْ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ سَرِيًّا، وَأَخَذَ حَطْبًا، وَأَرَّاحَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةِ زَوْجَا، وَقَالَ: كُلِّي أُمُّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكَ، قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ». أخرجه البخاري برقم: ٥١٨٩، ومسلم برقم: ٢٤٤٩.

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْظَلْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ، وَغَسَلَ يَدَهُ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ وَلَا يُطْعَمُ، مَنْ عَلَيْنَا، فَهَدَانَا، وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلُّ بِلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». أخرجه ابن حبان برقم: ٥٢١٩، وقال محققه: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

ولديه وقت ليسمع مشكلات العباد^(١).

ولديه سَعَةً ليفتي كل ما يأتيه من فتاوى^(٢).

ولديه مُجْبُوحة ليحلّ خِصام زوجاته، ويُرضي الساخطةَ منهن، ويمسح دموعها بيده الشريفة^(٣).

(١) وهذا أكثر من أن يحصى، منها ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ حَدَّثَهُ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتِي يَسْفُونَ بِهَا النَّحْلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرَّحَ الْمَاءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عَلَيْهِ، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: **«اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ»**، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: **«اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَحْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَذْرِ»**، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]. أخرجه البخاري برقم: ٢٣٦٠، ومسلم برقم: ٢٣٥٨.

(٢) وهذا أكثر من أن يحصى، منها ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: **«إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحْجَّ فَلَمْ تَحْجْ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قَاضِيَةً، اقْضُوا لِلَّهِ، فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ»**. أخرجه البخاري برقم: ١٨٥٢، ومسلم برقم: ١١٥٠.

(٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَتْ صَفِيَّةٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَهَا، فَأَبْطَأَتْ فِي الْمَسِيرِ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ: حَمَلْتَنِي عَلَى بَعِيرٍ بَطِيءٍ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ بِيَدَيْهِ عَيْنَيْهَا وَيُسَكِّتُهَا، فَأَبَتْ إِلَّا بُكَاءً، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَرَكَهَا، فَقَدِمْتُ فَأَتَتْ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَوْمَ هَذَا لَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّ أُنْتِ أَرْضَيْتِهِ عَنِّي، فَعَمَدَتْ عَائِشَةُ إِلَى خِمَارِهَا، وَكَانَتْ صَبَغَتْهُ بِوَرَسٍ وَرَعَقَرَانٍ، فَنَضَحَتْهُ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ جَاءَتْ حَتَّى قَعَدَتْ عِنْدَ رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَالِكٍ؟»** فَقَالَتْ: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَدِيثَ، فَرَضِي عَنْ صَفِيَّةَ، وَانْطَلَقَ =

ولديه سعة ليدخل في مشكلة سمع بها، ولم تُرفع له أصلاً^(١).

واسمع هذا الحديث، لأعلق عليه بعده إن شاء الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُ الْمَسْجِدَ^(٢)، فَقَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقَالُوا: مَاتَتْ، قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي». قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا، فَقَالَ: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا» فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ»^(٣).

والسؤال لكل من يعاني ضيق الوقت، أيضيق عليك الزمن ويتسع

= إِلَى زَيْنَبَ، فَقَالَ لَهَا: «إِنَّ صَفِيَّةَ قَدْ أَعْيَا بِهَا بَعِيرُهَا، فَمَا عَلَيْكَ أَنْ تُعْطِيَهَا بَعِيرَكَ»، قَالَتْ زَيْنَبُ: أَتَعْمَدُ إِلَى بَعِيرِي، فَتُعْطِيهِ الْيَهُودِيَّةُ؟ فَهَاجَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، فَلَمْ يَقْرَبْ بَيْتَهَا، وَعَظَلَتْ زَيْنَبُ نَفْسَهَا، وَعَظَلَتْ بَيْتَهَا، وَعَمَدَتْ إِلَى السَّرِيرِ، فَأَسْنَدَتْهُ إِلَى مُوَحَّرِ الْبَيْتِ، وَأَيْسَتْ أَنْ يَأْتِيَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَيْنَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ الْبَيْتَ، فَوَضَعَ السَّرِيرَ مَوْضِعَهُ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَارِيَتِي فَلَانَةُ قَدْ طَهَرْتُ مِنْ حَيْضَتِهَا الْيَوْمَ، هِيَ لَكَ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهَا. أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «السنن الكبرى» برقم: ٩٣١٤، وإسناده صحيح.

(١) عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنُ أَبِي حَدَرٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، فَتَادَى يَا كَعْبُ، قَالَ: أَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «اصْغِ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا وَأَوْمَأْ إِلَيْهِ أَيْ الشَّطْرَ، قَالَ: لَقَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: قُمْ فَاقْضِهِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْم:

٥٤٧، ومسلم برقم: ١٥٥٩.

(٢) يعني: تنظف منه القمامة.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْم: ١٣٣٧، ومسلم برقم: ٩٥٩، وهذا لفظه.

لرسول الله ﷺ ليتفقد حال امرأة خادمة، أو عبدٍ ينظف المسجد؟

وفي بعض ألفاظ الحديث من طريق ابن عباس: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرِ قَدْ دُفِنَ لَيْلًا، فَقَالَ: «مَتَى دُفِنَ هَذَا؟». قَالُوا: الْبَارِحَةَ، قَالَ: «أَفَلَا أَذْنُتُمُونِي؟». قَالُوا: دَفَنَاهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ فَكَرِهْنَا أَنْ نُوقِظَكَ، فَقَامَ فَصَفَّفْنَا خَلْفَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَأَنَا فِيهِمْ، فَصَلَّى عَلَيْهِ^(١).

وَلَدَيَّ الْآنَ وَقَفَات:

١- هل أَعْبَاءُ رسول الله ﷺ تسمح له أن يتابع صغائر الأمور، كشأن هذا الخادم أو الخادمة؟

٢- فهمنا أنه تابع أمره، وأخبر أنه مات، فالمتوقع أنه اكتفى بالترحم عليه.

٣- هل الأمر يستحق أن يذهب النبي ﷺ ويترك أعماله ومهامه العليا من أجل الصلاة على من دفن وانتهى الأمر؟

٤- لو كان الميت أو المرأة من ذوي الوجاهة، أو النسب لعرف السبب أنه تأليف لقلب القبيلة، ولكن المرأة أمة سوداء، مملوكة في مكة، ولا أهل لها ولا عشيرة، إنما طلبت عتقها لتعفو عنهم عما اتهموها به من زور في حادثة.

الجواب: أنه ﷺ أدار الوقت بطريقة صحيحة فرأى السعة، أما نحن فالكثير مما قد أهدره، أو لم يرتب أولويات الوقت كما ينبغي.

ولعل أفضل كتاب يفصل البرنامج اليومي عند الحبيب ﷺ كتاب: «اليوم

(١) أخرجه البخاري برقم ١٢٥٨.

النبي» لفضيلة الدكتور عبد الوهاب الطريري حفظه الله، وفي الكتاب بيان شاف لمعرفة:

- الوقت الذي كان يجلس فيه المصطفى ﷺ في المسجد لاستقبال أي أحد من غير ميعاد^(١).

- والوقت المخصص لمسامرة جميع الزوجات، وهو بعد العصر، حيث يطوف على نسائه جميعاً، فيدنو من كل امرأة منهن في مجلسه، فيقبل ويمس ما دون الوقاع، حتى ينتهي إلى التي هو يومها، فيبيت عندها، وأما إن كان أيام قصر النهار، فإنهن يجتمعن في بيت التي هو يومها، لأن الوقت لا يتسع للطواف على كل واحدة في بيتها^(٢).

- والوقت المحدد للتجهّد بين يدي الله تعالى^(٣).

- والمحدّد لمؤانسة الصحب في المسجد النبوي، وقد يزيد فيه كلام الصحابة رضي الله عنهم على كلام الحبيب ﷺ^(٤)، وهكذا لسائر اليوم النبوي.

بين ساذج العقل و شيطان الفكر

- وما أكثر الناس ولو حرصت بمترنين، بل تميل الكفة لدى الإنسان حتى يحنح يمنة أو يسرة، فمنهم الذي يصدّق كرامات مكدوبة، ويسلم

(١) «اليوم النبوي» ص ٢٧ وما بعدها.

(٢) «اليوم النبوي» ص ٧٠.

(٣) «اليوم النبوي» ص ٨٩.

(٤) «اليوم النبوي» ص ٢١ وما بعدها.

لِحُزْغَبَلَاتٍ لَا تَدْخُلُ فِي عَقْلِ مَجْنُونٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِيْسُ الْمَغِيْبَاتِ عَلَى عَقْلِهِ، وَيَجْعَلُ عَقْلَهُ الْحَكْمَ عَلَى مَا وَرَدَ مِنْ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ.

- عقل وإيمان مع غيب: إعمال نقد العقل في أمور المغيبات الثابتة قد يودي بصاحبه إلى الكفر، كما أن إهمال العقل بالكلية لا يعطي الإيمان الراسخ.

- يكثر في زماننا نوعان من الناس: منهم من يصدّق كلّ أكذوبة أُصِقَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، بدعوى المحبة له، والمدح له، ومنهم من يُعْمِلُ النّقد في أحاديث الفضائل كأنها واردةٌ في أصول العقيدة.

- من التّوازنِ الخِطَائي أَلَّا يركّز الداعي أحاديثه دائماً بصورة رفيعة تليق بخطاب العلماء، ولا بصورة يسيرة تليق بالعامّة، ولا يركّز على المواعظ، ولا يُدْمِنَ طرح المناقشات العقلية، بل يكون لديه لكل مقام مقال، ولكل فن رجال، وعند الكلام أمام الجمهور المتنوّع فإنه يُنَوِّعُ في الحديث، ويُعَيِّرُ في الأساليب.

لا تمرق تنمة دفترك

كثير من الدعاة يختم على أفكار الناس في خطابه، فيوهمهم أن فلاناً من الدعاة لم تلد أنثى مثله، وفلاناً لم يأت الزمان بشبهه، وفلاناً خاتمة الحفاظ، أو خاتمة الفقهاء، وأشبّهها بمن آتاه الله دفتراً يكتب فيه، فكتب فيه ما شاء الله أن يكتب، وبقيت صفحات بيض نقيّة، فمزّقها جميعها، واكتفى بما كتب، وختم الدفتر وأقام عليه بما فيه من أفكار وآراء صباح مساء، والحق أن يترك الصفحات الجديدة ليكتب فيها الحديث، ويبقى دائماً على تجديد المعرفة، وهذا الختم يأتي على صور:

التضخيم من صورة المحبوب: الناس تتفاوت في الاتزان، وعندما تجد من يمدح معلمه فهي حالة جيدة رائدة، فإذا ما بالغ في تكبير صورة الشيخ مثلاً فاعلم أن نقصاً ما قد وقع، فإما أن يكون من تصوير التلميذ، أو محاولة ترقيع صورة الشيخ غير السوية، فلا بأس أن تمدح، ولكن اترك القفل مفتوحاً، وقل إن الذي أمدحه هو أحد بني آدم، «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(١).

إن إغلاق القفل ليجعل السامع - بشعور أو عدمه - يبحث عن أخطاء مَنْ بالغت في مدحه، لأنك سَوَقْتَ المدح وَصَدَّرْتَهُ، وَصَادَرْتَ - ولو بطريقة خَفِيَّةٍ - وجودَ الزَّلَلِ والخطأ.

النقد اللاذع للخصم: ويُحْكِمُ بعض الناس إغلاق القفل على أفكار خصومهم، فيصورها على أنها لا تحتل الصواب ولا بأي حال، فهي كُتْلَةٌ من الخطأ والخطل، وهذا ما يفتح للناس أفقَ البحث عن محاسن ذاك المذموم.

الانبهار بالجديد: جاءت قبل سنوات مسألة الرسوم المسيئة لحضرة مولانا رسول الله ﷺ، وتحركَ العالمُ للدفاع عن الذي لا ينطق عن الهوى، وصار كلُّ يتقدَّمُ المعركة بسلحه الذي يحسنه، وقُدِّرَتِ على التحرك، فمن كاتب جاهد بقلمه، ومن شاعر نافح بنظمه، ومن خطيب هزَّ القلوب بحكمه، بل تأسست هيئات كبرى للتعريف بهذا النبي العظيم ﷺ، والدفاع الكريم عنه.

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢٤٩٩.

وكلها خطيَّ صالحهً، وأعمالٌ مبرورةٌ، وكان أحد المشاركين فنائاً قضى عمره في التمثيل، والله يغفر له ما كَدَرَ، ويقبل منه ما صفا، فأخرج أنشودةً شعبيةً جميلة، وكانت محاولةً موفقةً، وموفقاً نبيلًا، ولها رسالتها ذات البصمة، إذ أرسلت للعالم المهذّم رسالة: أن الذين كنتم تعولون عليهم من فنانيين وممثّلين قد جَارَوْا مشاريعكم في لحظة ضَعْف منهم، ولكن التّعَرُّض لمقام رسول الله ﷺ قد هزَّ الإيمان في قلوبهم هزًّا، وحرك الإيمان الراسي حتى طَفَأَ. وموضوعي بالذات عند أحد العلماء الدعاة، حيث طار صوابه بهذه الأنشودة اليتيمة، حتى شَطَّت عبارته فقال: لم يُدافع عن الرسول ﷺ أحدٌ كدفاع هذا الممثل بهذه الأنشودة القصيرة.

مهلاً عزيزي: سأشكر هذا الفنانَ على هذه اللبنة، ولكن لم مَرَّقَتْ أعمالُ أساطين العلم كلها بشَطْرِ حديثٍ وشَطْرِ كلمة، ونَسَفَتْ جُهودَ الكلِّ بِجُمْلَةٍ من طَرَفٍ لسانك.

فما أَحْيَى تحسینَ الحسَنِ وتنميته، وتقبيحَ القبيحِ وتوهيته! ولكن مِن التعدّي على حقوق الناس أن تنسف أعمالهم لإعجابك بشخص ما.

الإساءة للثاني إكرامًا للأول: كان أحد المتكلمين يعُظُّ الناس، فأراد أن يعظّم قَدْرَ رسول الله ﷺ، فتعرّض لسيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام، ثم قال: مَنْ جبريل؟ ليس جبريلُ إلا خادماً عند رسول الله ﷺ، - وكانت نَبْرَتُهُ نبرة التَّحقير والوضع - وأضاف كلاماً آخر.

قلت لصديقي الذي أسمعني هذا الكلام: ما الذي يريده هذا المتكلم تماماً؟ أيريد مدح رسول الله ﷺ، أم ذمّ سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام؟

لأن مدح الحبيب ﷺ يقتضي أن تعظم الشرع كما أراد الله تعالى، لا كما تُثلي عليك عاطفتك، فالله هو الذي اختار جبريل ليكون رسولاً عنه إلى الحبيب ﷺ، فلم الإساءة للآخر بدعوى إكرام الأول؟

التوبة لمن سقط في الذنب، لا لمن يخطط له

قد أُتِّهَم بالحدِّ لَقَّةٍ إن قرأ كثير من الناس هذا العنوان، ولم يُتِمَّوا سماع وجهتي، وها هي ذي:

طالما حججنا، ونريد الذهاب إلى الرمي بمنى، فيُنْبِرِي أحد الحجاج الأصحاء الأقوياء قائلاً: إنني لن أذهب، وسأذبح هدياً، فإن لدي القدرة المالية على ذلك!

وكأنَّ المسألة مرتبطةً بالقدرة الماليَّةِ فحسب!

وهل يُشَرِّعُ للمسلم أن يترك التشهد الأول عمداً بدعوى أنه يعوضه بسجود السهو؟ وما سُمي بسجود السهو إلا لأنه سهو وليس بعمد، وهل يحق لأحد أن يتلف مال آخر، بدعوى أنه يعوضه ويدفع الثمن؟

قَدِمَ مُهَدِّمٌ - يغلب على الظن أنه عميل لهدم الدين من الدَّاخل - إلى إحدى البلاد العربية، ونشر فيها الدعاية مُلَفَّعَةً بثوب الإسلام، فأصبح يفتي الشابَّ والفتاة أن الزنا حرام وكبيرة، أما ما دون ذلك فهو حرام صغائر، فلئن قَبَّلَ الشابُّ أو زاد ما لم يصل إلى إيلاج الميل في المُكْحَلَةِ فإن الأمر يُغْفَرُ سريعاً، باستغفار، أو وضوء، أو صلاة، أو نحوها، ويسرد لهم حديث ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾
فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْ هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»^(١).

وهذا حديث صحيح، وهو قول حق، ولكن ألا تفرّق معي بين الصحابي الذي تورّط ووقع في الذنب، وبين من يُفَيّ الشاب والفتاة ليقعا في الذنب!

وقد شبّهت هذا الموقف بمُراهِقٍ مرّ ببائع لُصّاقات الجروح، واشترى عدداً منها، وجعل يجرّح نفسه، ثم ينشف الدم ليضع اللصّاقة مكان الجرح، أعاقِلُ رشيد هذا؟ أم إن الغشاوة رانت على قلبه؟ ولو سأل طفلاً صغيراً لاستنكر عليه، وقال له: ما اخترعت اللصّاقات الطبية إلا لمن أصابه الجرح، ووقعت عليه المصيبة.

وبمثل هذا التهور حال الذي يستعمل الطلاق ليهذد، ويُرجعَ زوجه بعد كسرها.

لا وربّ الكعبة لم يُشرع الطلاق ولا الرجعة من أجل التّهديد واللّعب بأعصاب المرأة، إنّما هو رحمة لمن قرّر الفراق بعد تأنّ، ثم رأى الرجعة بعد تغيير الحال ودراسة الأمر.

حدثهم بما يفيدهم اللحظة

في الناس من تحدّث عن خلاف علي وعائشة وغيرهم من الأصحاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكان في المستمعين له من لا يصلي؟ ومنهم آكل الربا، والكثير منهم

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٢٦، ومسلم برقم: ٢٧٦٥.

ظالم للأسرة أو المرأة أو الولد أو الأخت في ميراثها.

ومن أهل الوعظ من أدمن الكلام عن الصلاة على النبي ﷺ وفي الناس من هو مرتكبٌ للسبع الموبقات دفعة واحدة!

وأعرف أحد المُختلّين في الدعوة كان يقيم في الخليج ثم استقر به المقام في بلده، وجعل يدرّس العوام، ويعقد الندوات والدروس التي فيها الردُّ على المنهج السلفي، وما عنده حديث إلا أن يحدث العوام عن أخطاء السلفيين! وإقناعهم أنهم عملاء الإنجليز؟ وأنهم يُبغضون الحبيب ﷺ، والحاضرون لدروسه لا يعلمون شيئاً عن السلفية ولا غيرها، منهم الغارق في الربا، ومنهم من هجر أباه وأمه، ومنهم آكل مال اليتيم، ومن لم يخطر بباله يوماً سؤال: هل التوحيد قسم أو ثلاثة أقسام، فعلام طرح الشبهة؟ ومن المستفيد من هذا الطرح؟ وإن أسقط علماء السلفية من عين هذا الأعمى ففي رصيد من سيكون الرّبح؟ أو أتى الحرمين الشريفين وقلبه مُوعرٌ على أئمتيه أيكون قد خدم دين الله تعالى؟

ما نظرة العامي لإنسان يبغض رسول الله ﷺ، وما الألفاظ المنتقاة ما لو تحمّس للدفاع عن المعصوم الشفيع ﷺ؟ مواقف قد تُضحك ولكنها تُبكي وتجرح القلب، وشريكه في هذا الجنون من ديدنه أن ينتقي أخطاء الصوفية ليحدث بها عواماً لا يفيدهم إلا تعليم أصول الدين والحلال من الحرام:

لِمِثْلِ هَذَا يَمُوتُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانٌ

قال لي شاب متحمّس: أنا الآن في مشروع قراءة ألف جزء حديثي! قاطعته قائلاً:

- ولم حدّدت ألف جزء؟

- الشاب: فلان من العلماء ذكر في شروط الحافظ أن يكون قد قرأ ألف جزء على العلماء.

- استفضت بالحديث عن بعض هذه المبالغات، وضربت أمثلة كثيرة، كان أهمها نصيحة ملخّصة في أسطر قليلة:

منهجي في الدعوة أن أقرأ على الناس ما يفيدهم اللحظة، فأشرت إلى أكبر الحاضرين في ذاك المَجْمَعِ سنًا، وعُمُرُهُ قد جاز السبعين، وأصغرهم سنًا وعُمُرُهُ أربع سنوات، وقلت له: ما رأيك أن أنتقي من «صحيح البخاري» حديثًا يفيد كل الحاضرين من أكبرهم إلى أصغرهم، وأشرحه لأريك المثل النافع، وأطرح عليهم حديثًا آخر من الكتاب نفسه، وأعدك ألا يستفيد من الحاضرين إلا القليل، كالحديث عن المخابرة أو المزارعة أو مكاتبة العبيد، أو نحوها، وما أجمَلُها وما أنفعُها إن دُكرت لطالب علم، أيًا كان الوقت أو السنُّ، وما أبعدُها إن جاءت إلى عاميٍّ ليس له في ذاك الفصل حَبَّةُ خَرْدَلٍ!

طَرَحُ يَكْفُرٍ، وَآخِرُ يُدَمِّرُ

ظهرت في العصر الحديث دراسات كثيرة جدًا تُسهم في التّفكير الموضوعي، وهي بمُجْمَلِها أمرٌ حَسَنٌ، يحسّن الأداء، ويقوّم الفكر، ويسهم في الوصول إلى الحقِّ^(١).

(١) من أهمها كتاب: «فصول في التفكير الموضوعي» لأستاذنا المفكر الدكتور عبد الكريم بكار يحفظه الله.

ومن أهم الأفكار التي يُركّز عليها: التجردُّ عن القائل، ومناقشة الفكرة، حتى إنّ بعضهم أرسل رسالة مُفادها: أنّ امرأة تَبَنَّتْ كلام شخص مُفكّر ينقد الثّراث في مصر، فقامت عليها الدنيا ولم تقعد، ثم وقفت على الكلام نفسه لكتاب مشهور، نقل الكلام دون عزو لأحد، مع تغيير قليل فيه، فصاح الناس يهَلِّلون ويكَبِّرون، يثنون على فِكْرِهِ، ويعظّمون أمر عقله وتفكيره. فطاش عقل المرأة وصرخت بأعلى صوتها: أتناقشون الأفكار أم الأشخاص؟

أولاً: لا شكّ أن بعض الناس يناقشون الأشخاص، فحيث عرفوا أن هذا الكلام لفلان أصبح كلاماً متّزناً حكيمًا رصينًا، ولكن الويل والثُّبور إن علموا أنه لفلان الآخر، فإن القيامة تقوم ولا تقعد، وهذا من قِلّة الموضوعية لدى المتلقّي.

ثانيًا: سأسلّط الضوء في هذه المرة على المُلقّي، وليس على المتلقّي، فما بال كثير من الناس يُغفلون عن طريقة الإلقاء؟

لا أريد تعقيد الأمور، وسأكتفي بهذين المثالين، لتعرف أن طريقة طرح الفكرة لها أثر كبير في قبولها أو ردها:

الفكرة في بيان عدل الإسلام، وأن القتل والعبث بالأرواح هو من انحراف بعض المنتسبين لهذا الدين القويم.

الرجل الأول: لو قال لي محمد اذهب فاقتل أباك لقتلته هو، ولو قال لي: اكفر بموسى وعيسى لُقلت له: أنت لست نبيًا.

الثاني: والله إن رسولنا الكريم ﷺ قد حفظ دماء الناس الأبرياء جميعاً، بل حفظ دماء الحيوانات من أن تهدر من غير فائدة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: «يَذْبُحُهَا فَيَأْكُلُهَا، وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا يَرْزِي بِهَا»^(١). ويل لمن يقتل الناس ولا يبالي بالدماء المحرمة، فقد ثبت عنه ﷺ قوله: «وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»^(٢).

وعندما أراد أن يتكلم الثاني في مسألة الإيمان بالأنبياء، فإنه قال: والله لا يصح الإيمان بالله حتى يؤمن الإنسان بكل أنبياء الله ورسليه.

أرأيتم الفروق الكبيرة بين الكلام الأول، الذي يتخيل مسألة منكرة، ويتخيل أن الأمر بهذا المنكر رسول الله ﷺ، ويذكر اسم النبي الكريم العظيم ﷺ بلفظ: «محمد» بدون تعظيم ولا صلاة عليه، إلى آخر ما في كلامه وطرحه من سوء أقوال وألفاظ وتعبير وخيال وقبح وكفر.

والله وبالله: يجب كسر قلم كل كاتب، والحجر على كل ناطق، يدعي أنه يريد الكلام عن خطورة الزنى، فيُعَبَّرُ بقوله: لو رأيت نبياً يزني لكفرت به.

وكيف مشت هذه المغالطة على عقله الضحل، أيجوز شرعاً أن يرتكب

(١) أخرجه النسائي برقم: ٤٣٥٩، وفي الحديث ضعف.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٨٤٨.

أَيُّ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَيْ كَبِيرَةٍ؟ ثُمَّ تَفَكَّرْ بِهَذَا السُّخْفِ: يَضَعُ نَفْسَهُ مَوْضِعَ الْإِنْسَانِ الشَّرِيفِ الْعَافِّ عَنِ الزَّنا، وَيَفْتَرِضُ الْكَبِيرَةَ عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُخْرِجُ بِمَوْقِفِ الْبَطُولَةِ وَالْبَسَالَةِ وَالْعِفَّةِ وَالطُّهْرِ، وَهُوَ أَنَّهُ أَبِي الْفَاحِشَةِ، لِأَنَّهُ نَبِيًّا رَضِيَهُ لِنَفْسِهِ، فَكَفَرَ بِهِ.

وَلَا بَدَّ مِنْ تَنْبِيهِ قَبْلَ وَضْعِ الْقَلَمِ، وَهُوَ: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُؤْمِنُ بِطَرِيقَةِ الْمُبَالَغَاتِ الْفَاقِعَةِ، وَيَرَاهَا أَعْظَمَ تَأْثِيرًا فِي النَّاسِ مِنَ الْبِنَاءِ الرَّاسِخِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَطَرَحَ الْانْفِجَارَاتِ وَالتَّهْوِيلَاتِ يَتَفَاعَلُ مَعَهُ أَصْحَابُ الطَّيِّشِ، وَيَأْنِفُهُ الْعُقْلَاءُ، أَمَّا الْإِقْنَاعُ بِالْحُجَّةِ وَالْبَرهَانِ فَهُوَ شَأْنُ الْعُقْلَاءِ، وَالطَّائِشُونَ لَيْسَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ إِلَّا أَمْثَالُهُمْ، وَهَؤُلَاءِ لَا كَبِيرَ وَزْنٍ لَهُمْ فِي الْمَجْتَمَعِ، لَكِنْ الْعُقْلَاءُ قَادَةُ فِي فِكْرِهِمْ، وَمُقَلِّدُونَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ وَتَبَنَّوْهُ.

هَذَا وَإِنْ التَّوْفِيقُ فِي الْعِبَارَةِ، وَالسَّدَادَ فِي الطَّرْحِ، وَانْتِقَاءَ الْحَرْفِ الْإِلَازِمِ لِتَوْفِيقِ إِلَهِي، لَا يَسْعَى الْمُسْلِمَ إِلَّا أَنْ يَفْتَقِرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَطْلُبَ مِنْهُ الْعَوْنُ وَالْمَدَدَ، وَأَمَّا الْاعْتِمَادُ عَلَى النَّفْسِ وَالْبَيَانِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْإِقْنَاعِ وَالْحُجَّةِ وَحَدَّهَا فَهُوَ أَكْبَرُ مُدْمَرٍ.

وَالسَّعِيدُ مَنْ أَرَادَ الْخَيْرَ وَوُقِّقَ لَهُ، وَلَمْ يَرْبَحْ مِنْ أَرَادَ الْخَيْرَ وَلَمْ يُوقِّقْ إِلَيْهِ، وَالْأَشَقَى مَنْ طَلَبَ الشَّرَّ فَأَذْرَكَهُ.

إِجْبَارُ لَمْ يُرَبِّ نَفْسًا، وَلَكِنَّهُ عَقَدَ حَيَاةَ

كَانَ النَّاسُ قَبْلَ سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ يَذْهَبُونَ إِلَى الْعِمْرَةِ، وَبِمَا أَنَّ الرُّوحَ شَعُوفَةً بِالْحَرَمِ وَمَا يَمُتُّ إِلَيْهِ بِصَلَةٍ، تَرَاهُمْ يَعْظُمُونَ كُلَّ مَا رَأَتْهُ أَعْيُنُهُمْ، وَيَظُنُّونَ كُلَّ عَمَلٍ هُنَاكَ مَبْرُورًا، وَكُلَّ قِرَاءَةٍ مِنْ إِمَامِ الْحَرَمِ مُبْكِيَّةٍ، وَيَزْدَادُ الْإِيمَانُ عِنْدَ

بعض الناس كفرحة العيد المكثفة، ثم ما يلبس أن ينخفض بحدة عقب الرجوع، وكأنَّ العيد قد انتهى، وانطوى بساط الزيارات ولم يعد صاحبه يفكر بصلةٍ رحم إلى العيد المقبل.

وكنْتُ ترى في بلاد الحرمين قبل سنوات إجبارَ الناس على إغلاق المحلات والصنائع، والذهاب إلى صلاة الجماعة، وكثيراً ما سمعتُ الناس يثنون على هذا العمل، وكنْتُ أعارض هذه الطريقة، ولا أجد إلا النزر اليسير من يوافقني، وأفند الأمر خطوة خطوة، وأرى نفسي أنني أُلْمُ بجوانبه أكثر من ذاك الزائر المارَّ سريعاً، بما أنني أقمت بين ظهرائي أهل ذاك البلد، ونعمت بخيراته، وكرم أهله، وأدت من فضلهم وعلمهم، وتعلّمت من سموهم وجميع خصالهم الحسنة، أقول:

اسمحوا لي أن أنتقد طريقة القسر على إغلاق المحلات التجارية والصناعية، سأحكي لكم قصة ما هي للضحك والله، بل أقولها وقلبي يعصر ألماً وحسرة، فأني إخفاق دعوي يحصل في أرجاء المعمورة يتمعر له قلب الحريص المحب الغيور، وإن حصل خطأ في أداء الدعوة لمدرسة وفرحت المدرسة الأخرى فيا له من ضيق نظر مُحْجَلٍ، عندها اعلم أن حظوظ المتابعة للجماعة قد غلبت على حب الدعوة وولائها.

إي والله، توجد حظوظ جماعة كحظوظ نفس، وأنانيّة للجماعة كالأنانية الذاتية، ومكابرة في اعتراف خطأ الجماعة تشبه المكابرة الشخصية.

حدثني صديقي - والعهد والثناء عليه - عن مُصلِح سيارات في آخر شارع بيتنا.

قال: هل تعرفه؟

قلت: أعرف المكان دون الرجل العامل.

قال: إن صاحب المحل يَمَنِّي، ولديه مساعد فِلِيبِيَّيْ نصرانيٌّ، وكفيلُ بطاقةِ الإقامة لليمني والفلبيني رجلٌ سعوديٌّ، وانقضت إقامة الفلبينيِّ، فأخذها السعودي ليجدَّدها، ووضعها في دائرة التجديد لكن التوفيق لم يحالفه، فقد انقضى الأسبوع ولم تُجدد، وعطلة الأسبوع يومان، وقرر السعودي أن يسافر إلى مصر بضعة أيام، يَهْتَبِلُ فرصة العطلة وفوقها أيام قلائل.

لكن المشكلة أن الإقامة بقيت في التجديد، والعامل الفلبيني لا يحمل وثيقة تثبت هُويَّتَه وإذن إقامته.

وجاءت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفتَّش عن المتخلِّفين عن الصلاة، فَرَأَتْ الفلبينيَّ جالسًا لا يصلي، فسألته: لم لا تصلي؟

الفلبيني: أنا نصرانيٌّ!

رجال الهيئة: أعطنا هُويَّتَكَ التي تثبت ذلك.

الفلبيني: إقامتي في التجديد!

رجال الهيئة: تريد أن تضحك علينا؟ أنت أندنوسي وتمثِّل هذا كذبًا وزورًا!

الفلبيني: صدقوني أنا نصراني.

رجال الهيئة: تعال إلى السيارة!

وحمل الرجل في سيارة الهيئة، وأُخِذَ إلى الحبس، وقالوا له: اتصل

بكفيلك السعودي لِيُحْضِرَ الإِقامة وتُخْرَجَ.

الفلبيني: كفيلي في سفر، والإقامة في التجديد.

بقي الفلبيني في الحبس حتى عاد كفيله، وأُفرج عن الإقامة من التجديد، ولكن الأمر أخذ بضعة أيام، كانت كفيلة أن تقلب الفلبيني إلى عدائي مُرٍّ، فقد حُبِسَ ظلمًا، وأُوقِفَ عَمَلُهُ، وتأخير تجديد الإقامة ليس بيده. لكن الموقف لم ينته، أصبح الفلبيني - يترصد كل يوم عند كل صلاة - قدوم الهيئة ويراقب عن بعد، ومتى رآهم أتوا سارع إلى الجماعة التي تَصُفُّ في طرف الشارع وتُصلي ولحق الصلاة بهم حيث كانوا من ركوع أو سجود، ومتى ابتعدت سيارة الهيئة ترك الصلاة ثانية، وهكذا يُمَثَّلُ.

يا له من موقف يُبْكِ المحبَّ ولا يُضْحِكُهُ، سيُدْخِلُ السرور إلى قلب ذوي الفِلِيبِينِيّ، إذ مثل هذا الموقف البارد كَفِيلٌ أن يصدَّ هذا الشاب عن التفكير ولو قليلاً في تغيير دينه ودخوله في دين الإسلام.

وكنْتُ أرى - ولا أزال على ذلك - أن إجبار الناس على إغلاق المحل مضحك، لأنني أرى أمام عيني المئات - عبر السنين - يقفلون الباب على أنفسهم داخل المحل التجاري، فإذا قُضِيَتْ الصلاة نهضوا من داخل المحل منتشرين إلى أماكنهم، يبتغون من فضل الله تعالى.

في الوقت الذي ترى المساجد عامرةً في مصر وسورية والأردن وسائر أقطار المسلمين التي لم يسلك أهل البلد طريقة الإجبار على الإغلاق.

وأخطأ من حرَّم البيع وقت صلاة الجماعة خطأً بليغاً، والصواب أنه

جائز، وإنما المحذور هو البيع وقت الجمعة فحسب.

وإن اتهمني الظأن أنني التقطت صورة أحاول تعميمها، فإنني أخبره أنني على معرفة من كُتِبَ بعدد من القصص التي تصبُّ في الخانة نفسها، وتثبت أن الإجبار على غير الفرائض، وبدون برنامج طويل المدى هو إجبار قليل الجدوى، ضعيف الأثر.

صَلَّيْتُ الفجر صباح هذا اليوم في أحد مساجد سورية، فرأيت عدد المصلين يفوق ١٦٠ شخصاً، وما دخلت المسجد إلا قبيل الإقامة، وقد أخذ الناس مقاعدهم، وصلوا السنة القبلية، وجلسوا يتلون كتاب الله تعالى.

يا له من منظر مهيب، لم تأت هيئة الحِسْبَةِ إلى فراش أحد وتُجْبِرَهُ على صلاة الجماعة، ولا النزول إلى المساجد، ولم يكن عليهم رقيب يحمل العصا لفرض قراءة القرآن، إنها التربية الجادة التي جمَّلت حضور الصلاة في أعينهم، ورفَعَتْهَا فوق لذة النوم، وريِّ الفِرَاش.

ألا توافقني في نهاية هذه الدورة، وبعد هذه الجولة أن الإجبار على صلاة الجماعة لمن ليس على قناعة بها يُعَرِّقُ مسيرة الدعوة!

وليت الذي يختبئ داخل المحل - خوفاً من المخالفة - فتح المحل، وقضى حوائج العباد، ولم يتجمل بفضيلة لم يعملها، ولم يتشبع بما لم يُقَدِّم، فإن حال هذا كلايس ثوئي زور.

النقد المنضبط المحدد الشحيح

كتبت لأحد إخواني مرّة: مجازفة العبارة شلل يحجب الساعي عن قبول

الخطاب، إلا لدى عُشاقِ الأمور الفاقعة.

قد يكون الرجل جبلاً في العلم، ولكن المبالغة تقتل الفكرة وتحوّل الإصلاح إلى جدل.

قال الإمام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) - طيب الله ثراه، وجزاه عن أهل الحق خيراً - في ذم التعصب وبيان شيء عن الخلاف في العلوم الإسلامية: «التعصُّبُ سبب يرسخ العقائد في النفوس، وهو من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوافر بواعثهم على طلب نصره الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نُسِبُوا إليه، ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة - لا في معرض التعصب والتحقير - لنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع، - مثل: التعصب واللعن والشتم للخصوم - اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم، وسمَّوه ذُبًّا عن الدين، ونِضَالًا عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاكُ الخلق، ورسوخُ البدعة في النفوس، وأما الخلافات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف، فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل، فإنها الدَّاءُ العضال، وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة، على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتِها، وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلوا، فلا تظن

ذلك، فعلى الخير سقطت»^(١).

فإن رُمّت الوصول إلى نشر فكرة فقدّمها بحجمها العادي، واحذر الورم السرطاني، فإنه لن يكون خيراً على كلامك، وقد عاب النبي ﷺ تكبير الأمر عن حجمه، بل حاربه بعبارة شديدة، فأكثر العلماء يعرف حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا، فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَغْتَرِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَّقَاكُمْ لَهُ لِكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

نقد شحيح كآكل الميتة للمضطر

كان أحد الدعاة قد رزقه الله تعالى الالتفاف حوله من جمهور بلده، وكان يحاضر ويدرس، حتى عَظُمَتْ عليه نفسه، ودخلها استعلاء وكِبَرٌ منهجيٌّ، فأصبح حاله يقول للناس: أنا خير منكم، ولي زمام العلم، ولقد أوتيته على علم عندي.

ثم انحرف به السبيل وَبَعُدَتِ التُّجَعَةُ، وزادت الفَجْوَةُ، فبدأ يخصص

(١) «إحياء علوم الدين»: طبعة دار المعرفة ١: ٣٩ - ٤٠.

(٢) رواه البخاري برقم: ٥٠٦٣، ومسلم برقم: ١٤٠٢.

فيديوهات للرد على أقرانه من الدعاة، وزادت الأمور حتى أوقف العمل الدعوي لديه بأجمعه، ولم يعد له غير فيديوهات متتالية للتعقيب على غيره، ونقد أعمالهم، وتمحيص أقوالهم، وتتبع زلاتهم.

ولو سألته ما مشروعك؟ لأجابه عَمَلُهُ: دَمُ الجميع، وتتبع العثرات، وإظهارُ شرِّ ما عند الخلق، مع الحرص الشديد على طمس المحاسن، ولو استطاع أن يفسر الخير بشرِّ ما قَصَّر.

والله غيورٌ على عباده، يقبل من العبد جملةً، لأنه «من كَثُرَتْ حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يُحْتَمَلُ له ما لا يحتمل لغيره، ويُعْفَى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خَبَثٌ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخَبَثَ»^(١).

فَمِنْ الدعاة من فرَّغ نفسه للرد على هذا الداعي كلما سنحت الفرصة، ولكن العاقل أكثر: من لم يلتفت إلى تسجيلات هذا الرجل أبدًا، ومضى نحو عمله مسرعًا، وجدَّ السير ولم يلتفت، وما مثله مع ذاك الداعي إلا كهذا التشبيه:

العامل في حقل الدعوة كالبنَّاء، والمخرَّبُ في الدعوة كالسارق يسرق من ذاك البنَّاء، ولكنَّ أقصى ما عنده أن يسرق الحجر والحجرين لا أكثر، ولو ترك البنَّاء عمله ليجري وراءه لضاع عُمرُهُ، وما وَصَعَ حجرًا على حجر، ولكن يَسْعُهُ أن يرقِّع ما سرقه السارق بسرعة، ويتابع عمله، وشتان ما بين

(١) العبارة من كلام الحافظ ابن القيم رحمه الله، انظر: «مفتاح دار السعادة» ١: ١٧٢.

هذا، وبين آخر: ترك العمل الجاد، ومضى يجري خلف اللص، فلا أدرك ردَّ المسروق، ولا أتمَّ عمران الدار.

حق نخاف من ظلاله

أَكْثَرَ كَثِيرٍ من العلماء في الكلام عن فضل بلاد الشام، والسؤال الآن الذي يطرح نفسه: هل وردت كل هذه الأحاديث في فضل بلاد الشام؟

الإجابة الأولى: بل وردت آية في بركة ما حول المسجد الأقصى الذي هو ضمن بلاد الشام، فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ عَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]. وصحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا»^(١)، وغيره، كما صحت أمور من كلام بعض الصحابة عليهم رضوان الله تعالى.

الإجابة الثانية: لن أحكم على جميع الأحاديث، ولكنني سأضع بين يدي القارئ بعض الإحصاءات.

وردت في فضل بلاد الشام أحاديث تبلغ خمسة وعشرين حديثًا، لا يكاد يخلو منها حديث من مَطْعِنٍ، إلا القليل الخالي من المبالغات ونكارة المتن، والصراحة الزائدة، منها سبع عشرة رواية وردت عن كعب الأبحار اليهودي الأصل، من كلامه، ومن طريق آخر عن النبي ﷺ ! ألا يُحْدِثُ لك وقفة تدبّر وتأمّل ودراسة وتأنّ؟

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٠٩٤.

لما بدأت الحرب في سورية سارع شيخنا المحدث الشيخ صلاح الدين الإدلبي حفظه الله إلى تأليف كتاب في تخريج الأحاديث الواردة في بلاد الشام، وقلت يومها لبعض إخواني - والشيخ في مدينة جدة من السعودية، وأنا في ولاية عينتاب من تركيا، ولم أسمع منه ولا عنه حرفاً في تعليل هذا العمل - : إن مقصد الشيخ لبعيد، إذ هو يسمع المشايخ كيف هبوا لنبلش الأحاديث الواردة في فضل بلاد الشام، وكل منهم يصرخ على المنابر وفي المحافل: إن الله تكفل بالشام. وينسب القول للحبيب المصطفى ﷺ، ثم إن الشيخ يخشى أن تُحشَى أذهان الناس بهذه الأقوال، ويصدقوها على أن النصر وعد من الله تعالى، ثم ماذا عن الأمر لو ازداد أزمة وازداد انحطاطاً؟

الشيخ يخاف من إغراق الناس بهذه الأحاديث، وتصديق الوعد المنسوب إلى الله بعاطفة، وإن تعذر النصر لأسباب أخرى فإن الذي آمن بعاطفة دون عقل، سَيَرْتَدُّ بالعاطفة دون تعقل.

وقلت لإخوتي: حاولوا أن تسألوا الشيخ: أليس هذا مقصده؟

وجاء اليوم الذي اجتمعت فيه بسيدي الشيخ، وسألته أليس هذا قصدك؟ هز برأسه بحرارة وابتسامة عريضة، وقال: قد عرفت المرمى.

أي وربي: جاء اليوم الذي قال فيه بعض الناس: لا نريد المكان الذي تكفل الله به، إنما نريد أماكن الكفر التي حاربها الله؟

أهكذا تورد الإبل؟

أهكذا يكون التشجيع؟

فضل الشام ثابت بلا ريب، ولكن ليس بتلك الكثرة والصراحة في الأحاديث، وظلالُ الكلام يُوقِعُ الناس بما لا تحمد عقباه.

سحور متعددة

١- سِحْرُ المعلومة الأولى:

كن يقظًا عند طرح الكلام على الناس، فمن سمات الكثير منهم أن المعلومة الأولى هي التي تتركز في أذهانهم، فلو حضر الناس محاضرة جماهيرية، وأثنى أحدهم عليها، وطار بأوصافها، فإن الذي ينطبع في أذهان الجماهير الشناء على المحاضرة، ولو جاء كلام مغاير بعد ذاك الكلام فلن ينفع، لأن العوام تتلقى المعلومة الأولى، وَيَتَبَنَّوْنَهَا ثم يدافعون عنها، وهيهات أن تَمَسَّحَ من أذهانهم.

٢- سحر أحكام الأقوياء:

ويلحق بسحر المعلومة الأولى سحر ثان، وهي أحكام الأقوياء، فالناس أتباع كبرائهم، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا الْسَبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ويرى ابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ) رحمه الله: «أن المغلوب مُولَعٌ أَبَدًا بالاقتداء بالغالب: في شِعَارِهِ وَزِيَّهِ وَنِجْلَتِهِ وَسَائِرِ أحواله وعَوَائِدِهِ»^(١).

فترى الكثير من الناس وَاجِمِينَ ساكتين باهتين، وبمجرد أن يصرِّحَ

(١) «مقدمة ابن خلدون»، هكذا عنون بهذه العبارة انظر المقدمة، الفصل الثالث والعشرون:

القويُّ برأيه مالوا إليه جميعاً، وتنَفَّسُوا الصَّعْدَاءَ، وكانوا قبل إفصاح القوي يتهربون من التصريح بالجواب، لكنهم بعد سماع كلام القوي يرددونه دون نقاش، بل دون وزن أحياناً.

٣- سحر الإعلام:

الإعلام سحر جديد، إذا ما عمَّ الخبر وانتشر رأيت غير الواعين من الناس يصدِّقون الخبر، بل يدافعون عنه بشدة، وكأنَّ صاحبه قد تحبَّطه الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، ذلك بأنه قد أصيب بسحر الإعلام، فأصبح لا يفرِّق بين حقيقة، وبين خبر انتشر، وقد يكون كَذِبًا وتلفيقًا.

٤- سحر الجماهير:

إن من السحر العجيب سحر الكثرة، وأكثرُ الناس إذا مروا إلى درس مزدحم حكموا على المتكلم أنه بحر مُظْمَظٌ في المعرفة والعلم، وإن رأوا العكس زهدوا، وربما حقَّروا من شأن المتكلم، ذلك بأنهم اتبعوا الجماهير، وأهمَلُوا محاكمة الكلام إلى النقد الصحيح، من جهة الموازين التي لها علاقة بموضوع المتكلم.

٥- سحر الشهرة:

أَمْسَكَ بِي رَجُلٌ عَقِبَ مُحَاضِرَةٍ لِأَحَدِ مَشَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ، وَجَعَلَ يَثْنِي بِأُضْخَمِ الْعِبَارَاتِ، وَأَشَدِّ التَّرَاكيبِ عَلَى مُحَاضِرَةِ ذَاكَ الْعَالِمِ، وَأَنَا أَقْرُبُ بِهَذَا، وَأَقُولُ: إِنَّهُ عَالَمٌ بِحَقِّ وَائِمِ الْحَقِّ، وَلَكِنَّ كَلَامَهُ فَلَسْفِيٌّ يَتَعَثَّرُ مَرُورُهُ بَيْنَ خَلَايَا الْعَقْلِ.

تعجبت من هذا المثني خيراً، ورُحْتُ أدرس الموضوع في ذهني: ما الذي دعاه أن يمدح محاضرة لم يفهم جُلّها؟

وسرعان ما اهتديت للجواب: إنه التقليد في حب المشاهير، والثناء عليهم، ولا أستبعد أن يُكثر هذا العامي من الثناء على هذه المحاضرة، بل يصنع مناسبة أمام الناس ليخبرهم أنه حضر محاضرة فلان المشهور!

٦- سحر قديم الأحكام:

إذا تعلق العوامُ بشخص فمن الصعب أن ينجح بجانبه ثانٍ في ندوة علمية، فضلاً عن أن يخلفه في إمامة أو قيادة مكان.

كنا ندرس في السنة الثالثة من المرحلة الإعدادية، وهو الصف التاسع في الترتيب التسلسلي، وكان أحد العلماء يدرسنا وهو عالمٌ مكيٌّ، وله روح عالية في جذب الطلاب: قلباً ونظراً وعقلاً.

وفجأة احتدم الاختلاف بين إدارة المدرسة وهذا الأستاذ، وأخرجوا المدرّس المتميّز من المدرسة، وخرجت قلوبُ طلابه معه، وأُلقيَ على أجساد الطلاب وعقولهم غلافٌ من رصاص، فلم يعد أكثر الطلاب يفهم كلمة من المدرّس الجديد البديل، وأشهد لله وبالله أن المدرّس الجديد كان على قدم عالية من الفهم والتحضير، ولكن قلوب الطلاب مع الذي أُخرج من المدرسة، وأدّكى الموضوع كثيراً اعتقاد الطلاب وقوع الظلم على شيخهم، وأن الجانين عليه بالإخراج حسدةٌ لا غير.

٧- سحر التعاطف مع المظلوم:

حدثني أخ أثق به، قال: كان في قريتنا رجل مِصْقَعٌ في الخطابة، إذا خطب على المنبر هَدَرَ الكلام هَدْرًا، وشَقَّ صَوْتُهُ شَوَارِعَ القرية، حتى إن بعض العجائز لتتعتمد الجلوس أمام باب الدار كي تسمع الخطبة.

وكانت خطبة الرجل يومها عن «العاقبة للمتقين»، ودارت رحي الخطبة من أولها إلى آخرها على قصة سيدنا موسى مع فرعون، وكانت خطبة الرجل تُرَسِّمُ أمام المستمعين كأن شريط فيديو يحضرونه ويستمعون إليه.

ومن بين الجالسات على باب الدار امرأةٌ مشدودةُ السمع، والقلب نحو الحادثة وسردها، حتى إذا بلغ الخطيب مرحلة غرق فرعون بعد أن لحِقَ بنبي الله موسى عليه السلام، وكيف أدركه الغرق، تَصَوَّرَتِ شدة عذابه في الغرق، فصاحت بأعلى صوتها: فَعَلَ اللهُ بك كذا وكذا يا موسى؟ أقتلت الرجل وفي رقبتَه أطفال صغار وعيال؟

هذا شعور العامّة عامّة، والغوغاء إجمالاً، يجدون الموظف الذي خرج من العمل فيتعاطفون معه على أنه مظلوم، ولا يتكلّفون السؤال والبحث والتنقيب، ولو أنهم فعلوا ذلك لأصبحوا في عِدَادِ المفكرين، فمن أكبر الأخطاء الدعوية الدخول في مَعَمَّةِ انتصار الداعي لجهة يراها العامة أنها ظالمة أو قوية، وإن كان يعتقد عدلها وإنصافها، ولكنه يمكن أن ينصرها بطريق مُلَفِّعٍ بالحيادية، أو مخفي غير ظاهر، أما الاصطفاف الواضح فله ضريبة، يُقدَّرُ الداعي ثمنها مقابل جدواها، ويأخذ بالراجع لديه.

٨ - سحر طلاسـم الألفاظ:

حدثني خالي الأستاذ عاطف بيانوني حفظه الله، قال: حدثني رجل من الصالحين، أن عددًا من الوعّاظ الفارغين من حلب كانوا يأتون من أنحاء البلد إلى حيهم: «حي الكلاسة» ليُلقي درسه على الناس، قال الرجل الصالح: وكنا لا نفهم من كلام أيّ مدرس إلا كلمتين: «الله»، «محمد»، فكنا على انتظار وشدّ أعصاب نحو الشيخ المتكلم، ومجرد أن يذكر الله تعالى سارعنا إلى مسح أيدينا بوجوهنا وألسنتنا تلهج بقولنا: «جل جلاله»، أما إذا ذكر رسول الله ﷺ فنبادر إلى الصلاة عليه باللسان، ومسح اليد على القلب.

وكان الناس يعتقدون أن الكلام الصعب دليلٌ على فهم العالم، لأنه يحكي كلامًا لا يُفهم، فهو بضاعة أهل التخصص والتمكّن العلمي، أما الكلام المفهوم فهو دليل على الضّحالة العلمية.

وبَقُوا على هذه الحال حتى جاءهم العلّامة المربي الورع الشيخ المحمدي عيسى البيانوني (ت: ١٣٦٢ هـ) رحمه الله، فغيّر لهم الوجهة، وأصبح يدرسهم ما يحتاجونه، ويشرح لهم، فعلموا عندها أن صعوبة الكلام لا تعني فهم المدرس.





العلاقة مع الدعاء





غَضُّ الْبَصَرِ الدَّعْوِي

تعلم المبدأ النبوي الذي قاله ﷺ في الأنصار: «فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»^(١)، فهو مبدأ فيه أكبر إشارة إلى غَضِّ الْبَصَرِ عَنْ هَفَوَاتِ الْقَرِيبِ.

وغضُّ البصر الدعوي يكون على صور كثيرة:

١- منها: غَضُّ الْبَصَرِ عَنِ الْاِخْتِلَافِ الْفَقْهِيِّ، أَوِ الزَّلْزَلِ، أَوْ فِي الْأَسْلُوبِ.

من أهم نجاح الداعية أَنْ يَغْضُ بَصَرَهُ عَمَّا هُوَ حَكَمٌ مَعْتَمَدٌ فِي الْمَذَاهِبِ، وَإِنْ خَالَفَهُ، أَوْ زَلَّةٌ لِدَاعٍ، أَوْ أَسْلُوبٌ رَأَاهُ غَيْرُهُ صَالِحًا، أَمَّا هُوَ فَلَمْ يَرَهُ.

قال تاج الدين السبكي (ت: ٧٧١ هـ) رحمه الله: «فلعمر الله! لا أحصي من رأيته يشمر عن ساعد الاجتهاد في الإنكار على شافعي يذبح ولا يُسَمِّي، أو حنفي يلمس ذكره ولا يتوضأ، أو مالكي يُصَلِّي ولا يُبَسِّم، أو حنبلي يقدم الجمعة على الزوال، وهو يرى من العوام ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، يتركون الصلاة التي جزاء من تركها عند الشافعي ومالك وأحمد ضرب العنق، ولا ينكرون عليه، بل لو دخل الواحد منهم بيته لرأى كثيرًا من نسائه يتركن الصلاة، وهو ساكت عنهن!

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٣٧٩٩، ومسلم برقم: ٢٥١١، ولفظ البخاري بتمامه: «أَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ». ومن أحب التوسع فإنه سيجد غير هذا الكلام في كتابي: «هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى»، القاعدة: ٢٥، ص: ٧٤.

فيا لله وللمسلمين^(١)! أهذا فقيهٌ على الحقيقة! قبح الله مثل هذا الفقيه.
ثم ما بالكم تُنكرون مثل هذه الفروع، ولا تنكرون المُكُوسَ^(٢)
والمحرمات المجمع عليها، ولا تأخذكم الغيرة لله تعالى فيها! وإنما
تأخذكم الغيرة للشافعي وأبي حنيفة والمدارس المزخرفة! فيؤدي ذلك إلى
افتراق كلمتكم، وتسُلُّط الجهال عليكم، وسقوط هيبتكم عند العامة،
وقول السُّفهاء في أعراضكم ما لا ينبغي^(٣).

هذا عند صريح المخالفة في أصل، فما الحال عند الاختلاف في وجهة
نَظَر؟

٢- غَضُّ البصر عن مجتهد في ميدان لم تحضره

لقد انبرى كثير من النُشطاء لاسترداد حقوق الإسلاميين المسلوبة من
عدوهم، وخذ منها:

مقام الإفتاء، أو أوقاف المساجد، أو أيَّ منصب ديني، فتفاجأ كثير منهم

(١) أظن أن إقحام الواو هنا خطأ، لأن في اللغة تفتح همزة المستغاث به، وتكسر لام
المستغاث له، فتقول مثلاً: «فيا لله لِلضُّعَفَاء».

(٢) المُكُوس: جمع مَكُوس، وهي: الضريبة التي يأخذها الماكس، وقد روى أبو داود في سننه
برقم: ٢٩٣٧ قول النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مَكُوسٍ». وهو حديث حسن، فعَلَّقَ
الخطابي رحمه الله شارحاً الحديث: «صاحب المكس: هو الذي يُعشر أموال المسلمين، ويأخذ
من التجار والمختلفة إذا مروا عليه وعَبَرُوا به مكسًا باسم العُشر». انظر: «معالم السنن»
للخطابي ٣: ٤.

(٣) «معيد النعم، ومبيد النقم» ص: ٦٣.

بِاتِّهَامِ إِخْوَتِهِمُ الدَّعَاةَ لَهُمْ، وَصَارُوا مَوْضِعَ التُّهْمَةِ بِأَنَّهُمُ الْمَاشُونَ فِي رِكَابِ الظَّالِمِينَ، وَكَمْ سَبَّهَمُ أَصْدِقَاؤُهُمْ وَأَحْبَابُهُمْ بِقَوْلِهِمْ: «لَوْ تَرَكَ هَؤُلَاءُ أَوْلَئِكَ الظُّلْمَةَ لَانْهَارَتْ عُرُوشُهُمْ»!

لَقَدْ نَقَلَهُمُ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حَظِيرَةِ الْأُخُوَّةِ، إِلَى رِكَابِ الظَّالِمِ، وَلَمْ يَفَرِّقُوا بَيْنَ الْمُسْتَرِدِّ ٩٧ ٪ وَالتَّابِعِ ٣ ٪.

إِذَا وَاللَّهِ، مَنْ جَاءَ إِلَى حَقِّ مَسْلُوبٍ، وَاسْتَرْجَعَ مِنْهُ ٩٠ ٪ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ بِحَالٍ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ تَبَرَّعَ بِـ ١٠ ٪.

وَلَا عَجَبُ مِنَ الْعَامِيِّ أَنْ تَكُونَ رَأْيِيَّتُهُ بِهَذِهِ الْأُطُرِ الْمُعْتَمَةِ، وَرَأْيِيَّتُهُ بِهَذِهِ الضَّبَائِيَةِ الْقَاتِمَةِ، وَلَكِنْ حَالُ كَثِيرٍ مِنْ أَقْرَانِهِ مِمَّنْ يَنْسَبُونَ إِلَى الْعِلْمِ لَيْسَ أَحْسَنُ مِنْ حَالِ الدَّهْمَاءِ، وَسُوقَةِ الْمَجْتَمَعِ.

لَا وَاللَّهِ، إِنَّهُ اسْتَرَدَّ كَذَا وَكَذَا، وَمَا تَبَرَّعَ بِشَيْءٍ، وَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى اسْتِرْدَادِ الْكُلِّ، فَغَضَّ الطَّرْفَ عَنْ قِلَّةٍ مِنَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكُلِّ.

ثُمَّ إِنْ أَخَاكَ مِنْكَ وَلَيْسَ مِنْ عَدُوِّكَ، وَصَحِيحٌ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ إِلَّا التَّنَازُلَ عَنْ جُزْءٍ، فِي سَبِيلِ اسْتِرْجَاعِ الْأَجْزَاءِ الْأُخْرَى، وَلَكِنَّهُ مَدْبُوبُ الْأَطْهَارِ إِلَى لِقَاءِ الْأَشْرَارِ، وَفَارَسَ عَشِيرَتَهُ الْمُنْتَدِبَ لِلدَّفَاعِ عَنْ حَرَمَةِ مَالِ أَهْلِهِ.

٣- مِنْهَا: غَضُّ الْبَصَرِ عَمَّا يَفْلُقُ الصَّفَّ وَيَصْنَعُ الْفُرْقَةَ

وَمِنْ سُلُوكِ مَرْضَى الدَّعْوَةِ أَنَّهُمْ يَشْتَدُّ تَشْنُجُهُمْ فِي أُمُورٍ صَغِيرَةٍ، وَلَا يَقْدَرُونَ حِجْمَ خَطَرِ الْفُرْقَةِ، فَرُبَّمَا أَحْدَثُوا أَكْبَرَ الْأَخْطَارِ لِتَحْقِيقِ هَدَفٍ صَغِيرٍ، وَمَا دَرَوْا أَنَّ الْجَمَاعَةَ عَلَى مَفْضُولٍ، خَيْرٌ مِنَ الْإِخْتِلَافِ عَلَى الْأَفْضَلِ.

فما جاء الأمر القرآني بغضّ البصر للرجال عن النساء فحسب، ولا النساء عن الرجال فحسب، بل الأمر أن يغضُّوا من أبصارهم عام، لذا وجب في عيوب الأخ، وزلات الزوج، وسقطات الصديق، فضلاً عن موقف يحتمل الخطأ والصواب^(١).

علاقة مع الخطّائين، لا مع المرسلين

يصيب بعض ذوي الإنتاج والعمل والتميز مرضُ الأنا، فيرى عمل نفسه، وينسى عمل غيره الذين يتفانون في الميدان معه، وتكبرُ في عينه أخطاؤهم، وتُبرر عنده أخطاء عمله، ويرى لكل أخطائه حججاً وأعداراً.

وسأصف له وصفة: وهي إن رأى نفسه مجرّاً فلا حرج، ولكن بشرط أن يرى الناس مجاراً أيضاً، والبحر يرمي بالجواهر والردىء، فالنظر الأول: يُرَيِّ نفسه على وجود أخطائه، بل كثرتها، إلى جانب الخير عنده، الثاني: يُرَيِّ نفسه على وجود جواهر عند غيره، فليس هو البحر الوحيد، وإن رأى العيب في غيره فليعلم أن مجره يحوي العيوب كما يحوي الدرر.

لَوْ نُظِرَ النِّظَارَةُ تَحْكَمُ

زرت دوحة قطر قبل فترة، وزرت فيها أحد العلماء الأفاضل، وهو من المتخصصين في علم الحديث الشريف، ولكنه كثير الطعن بالإمام

(١) يشهد لما ذهبت إليه قول الشبلي رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا

مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] فقال: أبصار الرؤوس عن المحرمات، وأبصار القلوب عما

سوى الله تعالى. انظر تفسير الآية عند الرازي في «مفاتيح الغيب» ٢٣: ٢٠٥.

الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله، ومَنْ على شاكلة الإمام ومدرسته.

عقب رجوعي سألني عدد من إخواني: عَجَبْنَا من زيارتك فلانًا، وبينكما من الاختلاف ما لا يعلمه إلا الله، ولا سيما في ذات الإمام الغزالي عليه الرحمة والرضوان.

أجبتهم: لما دخلت لزيارته، وضعت على عيني نظارة: «هذا خدم سنة النبي ﷺ أكثر مني»، ولو أني وضعت نظارة: «هذا الذي طعن بالإمام الغزالي» لما استطعت رؤيته.

عَلِمَ أحد الناس أنني متخرج في مدرسة شيخنا العلامة المحدث الحافظ الشيخ عبد الله سراج الدين (ت: ١٤٢٢ هـ) رحمه الله، فأراد الغمز بالشيخ من خلف ستارة، قارئًا بين الغمز به ومدحي، يُظْهِر لي أنه معجب بي، ولكن اعترافي بفضل شيخي أدخله في صِرَاع، وظنُّه الحسنُ - حسب الذي يدَّعيه - أن أكون ممن تخرَّج في المدرسة، ثم ارتدَّ عليها وعلى شيخها، وصاح بأعلى صوته: «ثم اهتديت».

لم أدافع عن شيخي رحمه الله بحرف، لكنني ذهبت إلى أمور يجب أن تكون من المتفق عليها مع البشر عامة، سألته قائلًا: أتظن أنني أتبع شيخي على أنه نبي مرسل؟ قال: لا. قلت: في تعاملتي مع كل مشايخي أنظر إلى أي شيخ من خلال نظارة على عيني عنوانها: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ»^(١)، وشيخي من بني آدم.

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي برقم: ٢٤٩٩، وقال عنه: «حديث غريب».

رد علي: صحيح أنه من بني آدم وأنه خطّاء، لكن أيصل بحاله أن يذكر حديثاً موضوعاً؟

سردت لصاحبي أسئلة كثيرة، كان بعضها:

- أُنسَقِط الإمام ابن ماجه (ت: ٢٧٣٦ هـ) رحمه الله من فطاحل علماء الأمة لأنه أورد بعض الواهيات والموضوعات في سننه؟

- أُنسَقِط من الصحابة ماعزًا والغامدية وعبد الله الملقب بالحمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأنهم أصابوا حدًا من حدود الله تعالى؟

- أُنفي العلم والمعرفة عن ابن حزم (ت: ٤٥٦ هـ) لِمَا شَذَّ به عن الأئمة في الفقه ومنهجه الظاهري؟

- أترك الفائدة العلمية من شيخك فلان، لأنه شَذَّ عن علماء الأمة في مسألة كذا؟

عند الأخيرة قاطعني قائلاً: أَمَا قَلْتَ قَبْلَ قَلِيلٍ: كل ابن آدم خطّاء؟

قلت: نعم لم أقلها، بل الذي قالها هو رسول الله ﷺ، وأنا نقلت عنه، وشتان ما بين قولي وقول سيدي رسول الله ﷺ.

يا سيدي: اختيار النظارة هو الذي يحدد لك الفائدة أو عدمها، وخذ الأمثلة الآتية:

- أضع نظارة الفائدة التربوية عندما أقرأ «إحياء علوم الدين»، ولا أضع نظارة البحث عن حديث صحيح في الكتاب نفسه، ولن آخذ منه حديثاً واحداً إلا بعد الرجوع إلى أقوال المحدثين، كأن يقول: رواه البخاري.

- أضع نظارة التفسير حينما أقرأ في كُتُب التفسير، ولا أضع نظارة الحديث الشريف فيها.

- ولكني أستعمل نظارة الحديث في «صحيح البخاري»، ولن أطلب منه علم الأصول ولا القراءات.

ولو أنا أحسنّا استعمال النظارات، لاتضحّت عندنا كثير من المخبات الصغار التي لا ترى في العين المجردة، وَلَطُمِسَتْ أمامنا كل ما ليس من اختصاص النظارة، ولتغيرت نظرة كل واحد منّا بمن كان يعدّه عدوّاً، وهو من أحبّ خلق الله إلى الله تعالى، وأقربهم إلى نفس المُبْغِض.

حربك واحدة فلا تتعدّها

كتبت على غلاف كتابي: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى»: أسوأ الدعاة حالاً من نصّب نفسه محارباً لإخوانه الدعاة، وقد سلم أعداء دينه من لسانه وقلمه، وأحسنهم من توجّه إلى الكفر ومن حاربوا الإسلام، ورَتَّب أولويات الردود والمناقشات العلمية الهادئة مع إخوته.

إذا كانت الدول المتقدمة تفخر بتهذئة العلاقة مع الجوار والإقليم ودول العالم، فهل من حكمة الداعية أن يفجّر العلاقة مع إخوانه.

جلست في مجلس أحسب أن أهله من أهل الحبّ والودّ، وما دريت أن بعضهم قد شَحَنَ قلب بعضهم عليّ، وامتلاّت النفوس حقداً، وقد جلّلتها الشيطان بِجِلَال طاهر اسمه: «الغضب لله»! إي ورب الكعبة هكذا كان يُحَيَّل للحاقد أن يحقده من أجل الله، وانتصاراً لدينه القويم، ويرى نفسه أنه متحدثٌ رسمي في دين الله تعالى، وأنا المتهم العاقُّ المارق الذي يجب أن

يُقْتَصَّ منه، أو يؤدَّب على أحسن الأحوال.

فأثار الرجل مسألة يصارحني بها أنني على خطأ وضلال، قلت: وما وجهة نظركم؟

أشاح الرجل القناع عن وجهة نظره، ورأيتها حقاً فوافقته عليها، فعاتبني: وكيف تقول خلاف هذا؟

قلت: لأن السبب اختلف، والحالة غير هذه.

صعد الرجل في لهجته: أليس من دين الله الاحتياط في الشرع؟

أجبت: بلى، فتابع الحديث على أن جوابي كان: نعم، وكأنني قلت: نعم ليس من دين الله الاحتياط! سبحانك هذا بهتان عظيم^(١).

كررت عليه: أوافقك الرأي.

فكررت، وكررت، ثم علمت أنني لو أتيت بلوحة مُحَظَّطَةٍ عند أكبر خطاطي العالم، ورفعتها فوق رأسي أنادي بها: أنا أوافقك فلن ينفع مع الذي امتلأ قلبه حقداً، وتوجَّهت ذرأته للحظَّ علي.

خرجت بنتيجة أن بعض الناس ديدنه فتحُ الحروب مع الآخرين، ويرى متعةً روحه في ذلك، بدلاً من أن يوحدَ جبهة قتاله.

ولن أتردَّد قِيدَ أنملة أن مثل هذا يخسر في المعارك الكبرى التي تكون

(١) يجاب عن الاستفهام المنفي إن صدَّقت النفي ب: نعم، وإن نفيتَه ب: بلى، قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ولو قالوا: نعم: لكفروا، أي: لست ربنا.

ضُرُوسًا مع الأعداء الحقيقيين، لأنه قد فتح جبهاتٍ كثيرةً صغيرةً مع الأقربين، فهيهات هيهات أن يصل إلى معركة أبعد، والأقربون يحولون بينه وبين الكبار، حتى يصل إلى حالة ينسى فيها المعركة الحقيقية الكبرى، وهو غارق بمن حوله.

أجل: الموقِّق لا حرب لديه مع الأخ القريب، بل يوحد جبهة قتاله ويجعلها ضدَّ العدوَّ الأبعد، مهما تعددت مدارسهم وتلَوَّنت عداواتهم، ولو اضطرَّ لفتح معركة ثانية فقد يؤذن له، ولكن لن تكون هناك ثالثة ورابعة وعاشرة، وإلا فهو خاسر مع البعيد شاء أو أبى.

دعاة أضعوا البوصلة

يقولون: إذا لم تكن لك وجهة، فكل الطرق توصلك، والداعي إذا أضع البوصلة تَوَّهم أن كلَّ الطُّرُق خدمةٌ للدعوة، وعندها لن يفرِّق بين عدو، وبين عدو مُتَوَّهم.

الحمد لله الذي منَّ عليَّ بقولي: حربي ليست على أهلي، وإنما هي مع الكافرين المحاربين، ثم رأيت حربًا لا بد من خوضها، ألا وهي: جبهة الدفاع عن السنة، وإعلان الحرب على مُحاربيها، وإن كان من مسلمي الهوية والشهادتين، سواء أكان مخدوعًا، أم عدوًّا لدودًا، وقد أقاتله حبًّا فيه ليفيء، أو ليرتدع: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي حَنَافَةَ تَفِيءَ إِلَىٰ آلِ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

تخاصم شخصان من أبناء طريقة واحدة وعند شيخ واحد، وكان شيخهم طاعنًا في السن والقدر والمرض، وكان سبب خصامهم اختلافهم في جزئية في أثناء الذكر الجهرى جماعة، حتى بلغ التشاحن والتدابير أوجَه، وعَمِلَ طلابُ

كل واحد منهما على زيادة الشَّرْخ وتأجيج النار.

حَدَّثْتُ شيخنا الداعية الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٢ هـ) رحمه الله آنذاك بهذا الخبر، وشكوت له حُرْقِي، وكان من جملة ما قلت: ظني: أن لو كان رسول الله ﷺ في زماننا لَحَثَّهم على عدم الاختلاف في سبيل جزئيات كهذه؟ ولا سيما أن عدوَّهم المشترك حاضر يستثمر مثل هذه الفرص لزرع الخلاف، فقال لي شيخنا: لا والله ليس هذا فحسب، بل كان يرضى بإلغاء هذا النوع من الذكر كله، فإلغاؤه أَقْلُ من الاختلاف.

الحرب عند الداعي لا تكون إلا على مُتَّقٍ على خطئه، أو أمرٍ ذي بَالٍ شرُّه مستطير، فلا حرب في وجهات النظر، ولا الاختلاف الفقهي المعتبر، ولا غير المعتبر - وإن كان لا بدَّ من الإنكار ورفع الصوت بالدليل والحجة والبرهان -، إنَّما الحرب خاصة بمن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ.

انسحاب خير من غرق

تعجَّبت وأنا أقرأ عن فن إنقاذ الغريق، فقرأت قولهم: إن كنت تحسن السَّباحة، فلا تظن نفسك أهلاً للإنقاذ، فالإنقاذ فن آخر غير السباحة، والسؤال: لو سقط ولدي الطفل أمام عيني في بركة، فهل أتركه؟ يجيبك مدربو الإنقاذ: نعم، لأننا أمام غريق واحد، ومحاولتك الإنقاذ تسبب في الأغلب لنا غريقاً آخر.

لن أعلق على صحة أو خطأ هذه المعلومات، ولكنني وجدتها صحيحة في مجالس الداعي إن لم يستطع أن ينقذ غريقاً، فلا يجلس، لأنه سيكون الغريق الثاني.

جلست اليوم أتدبر هذه الآية العظيمة: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلَهُمْ^١ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فقلت في نفسي: وماذا عن الداعي إن حضر مجلساً يُظلم فيه أخوه الداعي، ولم يستطع أن ينصره؟ أو لم تُجِدْ نصرته له؟

ماذا لو تشرذم الدعاة، وأصبحت مجالسهم مجالس نيل بعضهم من بعض؟

ماذا لو جلس مجلساً بين مَنْ ظاهرهم العلم، وحقيقتهم أخلاط من الناس، منهم من له همٌّ دعوي، ومنهم من همُّه الفقاات والتحريش بين العلماء؟

ماذا لو انتسب إلى لفيف ثم اكتشف أن وقت الاجتماعات تقتل جزءاً من دعوته، وتصدّه عن الأهم؟

ماذا لو قُتِلَت أوقات أهل العلم والدعوة في التنظيمات لاجتماعاتهم؟ ومضى شطر من العمر دون جدوى؟

الأولى في وَجْهَةٍ نظري هو الانسحاب، وعدم ضياع البوصلة التي تكلمت عنها آنفاً.

ورحم الله الإمام الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) إذ قال: «ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعين في الإنسان رمضان: أحدهما يفوت، والآخر لا يفوت، أو فضلان: أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ

الترتيب فيه كان مغرورًا، ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فإن المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد^(١).

سامحوني: كأنني نقلت النص في غير مكانه! الغزالي رحمه الله يتكلم عن ترتيب الخيرات، وأنا كنت أوازن بين الخير والشر!

قيل لطفل: هل أضيفك على حلوى، أم أضربك؟ فسخر من عقل السائل وأجابه: الموازنة بين خيرين أو شرين، ولا تصلح بين الخير والشر: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤].

خاصم في العلم ففجر

قرأت لعدد من المعاصرين ممن لهم صَوْلَةٌ وجَوْلَةٌ سلبية في قصيدة البردة للبوصيري (ت: ٦٩٦ هـ) رحمه الله، وَلَدَيَّ وقفات عند الفجور في الخصومة العلمية:

١- الكلام على الحقيقة يحتمل الشرك، كما هو محمول على الإيمان مجازًا، فمن الفجور في الخصومة العلمية ألا يحمله المخالف إلا على الشرك، وألا يصدر للناس إلا هذه الوجهة.

(١) «إحياء علوم الدين» ٣: ٤٠٣.

ولو أراد أن يعامل كلام أبي بكر في هذا لكفره، وكذا الصحابة الذين قالوا: هلا متعتنا به يا رسول الله^(١)، والجارية التي قالت: «وفينا نبي يعلم ما في

(١) عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ، فَمَرَرْنَا لَيْلًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ: يَا عَامِرُ، أَلَا تَسْمِعُنَا مِنْ هُنِيهَاتِكَ؟ وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلًا شَاعِرًا، فَتَزَلَّ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا أَبْقَيْنَا وَالْقَيْنَ سَكِينَةَ عَلَيْنَا
إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا وَبِالصَّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟». قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ، قَالَ: «يَرْحَمُهُ اللَّهُ». قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْلَا أَمْتَعْتَنَا بِهِ... فَلَمَّا تَصَافَّ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عَامِرٍ قَصِيرًا، فَتَنَاولَ بِهِ سَاقَ يَهُودِيٍّ لِيَضْرِبَهُ وَيَرْجِعَ ذُبَابُ سَيْفِهِ، فَأَصَابَ عَيْنَ رُكْبَةٍ عَامِرٍ فَمَاتَ مِنْهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَفَلُوا، قَالَ سَلَمَةُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي قَالَ: «مَا لَكَ؟». قُلْتُ لَهُ: فَذَلِكَ أَبِي وَأُمِّي زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَذَبَ مَنْ قَالَهُ، إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ، وَجَمَعَ بَيْنَ إِضْبَاعِهِ إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قُلْ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ». أخرجه البخاري برقم: ٤١٩٦، والشاهد في قوله: لولا أمتعتنا به. حيث كانوا يعلمون أن النبي ﷺ إذا قال: يرحم الله فلانًا بأنه سيموت، فقالوا له: لولا أمتعتنا، أي: سألت الله ذلك، ولكن الكلمة قيلت على سبيل المجاز. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٧: ٤٦٦: «قوله: قال: «يرحمه الله»، في رواية إياس بن سلمة قال: غفر لك ربك، قال وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد، وبهذه الزيادة يظهر السر في قول الرجل: «لولا أمتعتنا به»، قوله: قال رجل من القوم: «وجبت يا نبي الله لولا أمتعتنا به»، اسم هذا الرجل عمر سماه مسلم في رواية إياس بن سلمة، ولفظه: فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له يا نبي الله: «لولا أمتعتنا بعامر». وفي حديث نصر بن دهر عند ابن إسحاق: فقال عمر: وجبت يا رسول الله، ومعنى قوله: لولا، أي: هلاً، وأمتعتنا أي: متعتنا أي أبقيته لنا لنتمتع به، أي بشجاعته، والتمتع الترفُّه إلى مدة، ومنه أمتعني الله ببقائك».

غد^(١)، أو يكفر السيدة الشريفة فاطمة عليها السلام عندما نادى أباه بصريح النداء بعد وفاته فقالت: «وَأَبْتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ»^(٢).

٢- من الفجور في الخصومة إيهام السامع أن العلماء مجمعون على ضلال بعض الكلام في القصيدة، دون تبين للناس أن هذه القصيدة عمل عليها نحو ٢٠٠ عالم من أساطين الإسلام، شرحاً وتسبيحاً وتخميساً وتشطيراً ومعارضة وأمثالها، وقد وجَّهوا الكلام توجيهاً بلاغياً يليق بحال المؤلف ومكنته العلمية.

٣- كما أن من الفجور ألا يبيِّن للناس وجهة نظر الناظم التي يراها.

٤- ولكن من حق أي عالم أن ينقل وجهة نظر الكاتب، ويخالفه بما يشاء، فالباب مفتوح.

(١) عَنْ الرَّبِيعِ بْنِتِ مُعَوِّذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ عَدَاةُ بُنَيَّ عَلَيٍّ، فَجَلَسَ عَلَيَّ فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي، وَجُورِيَاتٍ يَضْرِبْنَ بِالْذُّفِّ يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ». أخرجه البخاري برقم: ٤٠٠١. والشاهد في هذا الحديث، أن النبي ﷺ نهاها عن القول، لأن الناس حديثو عهد بجاهلية، فأراد أن يُبعد عنهم ألفاظ الإيهام، ولكنه علم منها صحة العقيدة، فلم يأمرها أن تجدد إسلامها، ولو علم منها سوء الطَّوَيَّةَ لأمرها أن تعيد إسلامها، وأن تتلفظ بالشهادتين.

(٢) عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ: «وَاكْزَبْ أَبَاهُ» فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ». فَلَمَّا مَاتَ، قَالَتْ: يَا أَبْتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبْتَاهُ مَنْ جَنَّتْهُ الْفِرْدَوْسُ مَأْوَاهُ، يَا أَبْتَاهُ إِلَى جَبْرِيلَ نَنْعَاهُ. فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ؟ أخرجه البخاري برقم: ٤٤٦٢.

على أنني ما قصدت التعميم في كل من ردّ على هذه القصيدة، لأنه لن يخلو الحال من منصف يخرج عن رأي جماعته، ويفتح نوافذ عقله، لينصاع إلى الحق، ويحكم العلم، ويعمل موازين الفهم في كلام الخصم، فأنا مع شدة حبي للقصيدة، وحفظي لها، وتكراري الدائم لأبياتها، أراها قصيدة من شاعر أديب ذوّاقة، وليس نبياً مرسلًا لا ينطق عن الهوى، فيؤخذ من كلامه ويرد عليه.

لكن المنصف يُقَابَل - لا محالة - بالعداء من أبناء مدرسته، تدري لم؟ لأن التقليديين يقرّون بعضهم، ويحاربون مَنْ خرج عن خطّهم.

محاربة المبتكر، وإقرار التقليدي

وسأشرح لك هذا: لو ألّف أيُّ كاتب كتابًا في أربعين حديثًا في فضل الجار؟ هل يجد اعتراضًا؟ لكن المجدّد هو مَنْ يناله الاعتراض، وربما بُولِعَ في الخصومة إلى حد الفجور.

وما أُحِيلَ الحرب من عدو مقاتل، ولكن تبّاً لها إن كانت من أخ لصيق. ولا تنس أن هذا مثال يصدر من كل مدرسة، فلست أبرئ رؤاد المدارس الأخرى من التعصب والخصومة العلمية، والفجور في الردود، والشُّهْم من غير تقوى، وتحميل الكلام ما لا يحتمل، والإلزام بلازم الكلام، وإفشاء السمعة السيئة، والافتراء من غير أصل، وتقديم سوء الظن على حسنه، وهلم جرّاً. والسؤال الآن: لم لا ينال الأذى إلا من خرج عن خط مسير الناس؟

الجواب: هو خُلُق قديم، لأن الناس يالفون ما اعتادوا عليه، وتنفر طباعهم من التغيير، ومن القديم قال معارضو الرسل لأنبيائهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وقالها أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية لأبي طالب عند النزاع: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١)؟ وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

مرحبًا بكل مناقشة علمية وَرَدَّ، فإن كان الفجورُ في الخصومة خلقًا من أخلاق المنافقين في توافه الدنيا، فإنها لأشد وأعظم في أمور العلم ونقل الشريعة.

عداء متوهم

عاداتك غيبيًا دون سبْقِ معرفة، ولو رآك لتغيّر كثيرًا، وكم في الناس من ناصب غيره العداء، حتى إذا فقد أخاه لم يجد بديلًا عنه، ولم يعرف له شبهًا! وذلك لأن مشكلتنا ليست بالصدق، وإنما بالتصديق، فالكل صادق، ولكنه متحفّظ على أخيه، فهناك الذي يتحفّظ للعداء المدرسي، وهناك من يتحفّظ لتوهم الغلط، وهناك من يتحفّظ على الشخص كله من أجل مسألة من صغار المسائل التي بلغته، وهي صحيحة، وأنكأها وأشدّها من يُحَوَّن

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٧٥، ومسلم برقم: ٢٦.

أخاه الصادق الذي لا تكاد تعرف عنه شائبة سوء، ولكن الزَّلَّ بلغه - والبلاغُ كاذبٌ - أو ظَنَّهُ - والظنُّ أكذبُ الحديث - أو تَوَهَّمَ والوَهْم يشبه السَّمادير^(١).

قال لي أحد شيوخ حلب: لما رد علي فلان من الخطباء على المنبر، ومسح سمعتي بأرض المدينة، حملت في قلبي عليه من الغيظ كمَّا يزيد يوماً بعد يوم على امتداد عَقْد ونصف، ثم شاءت حكمة الله تعالى أن ألتقي به في مجلس عام، فلما دنا مني وكلمني ألفيته كُتْلَةً لُطِيفٌ وأدب وحياء، وكنت أزيئُهُ من خلال رفع صوته على المنبر، ولو سئلت عنه قبل لقائي به لأوصيت أحفادي أن يَتَرَبَّوا وجوه أحفاده لما له من الغيظ في قلبي، ولكني فوجئت به أنه عالم تقيٌّ، خانه الموقف، وأخطأ التقدير في الرد علي.

أنكر أحد العلماء على بعض أتباع الطريقة النقشبندية صُراخَ بعض المريدين، وذلك عند ذكر الرسول ﷺ، أو ذكر الشيخ، أو أحد الصالحين، وأبدى إنكاره، وكَلَّمَ هذا العالمُ شيخَ الطريقة في هذا، وشيخ الطريقة رجلٌ علم وصفاء لا يظنُّ بمسلم إلا خيراً، فراجع الشيخُ التقيُّ بعضَ أتباعه، فأوهمه الكاذبون منهم أنه حال صادق، فما جاءت ذرَّةُ احتمال أنهم كَذَبَةٌ، فصَدَّقَ الشيخُ حالهم، ولا غرابة، فهذا من تقواه وحسن ظنه بالمسلمين.

ولكن الواقعة فرضت شِقَاقاً بين الشيخين، وتخاصم الشيخان: الناصح

(١) في لسان العرب، مادة: «سَمَدِر»: «السَّماديرُ ضَعْفُ البصر، وقد اسْمَدَرَ بَصَرُهُ، وقيل: هو الشيء الذي يَتَرَاى لِلإنسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب، وَعَثِي الثُّعَاليس والدُّوَار».

والمنصوح، وأذكى طلاب كل شيخ نار الفتنة من خلال حبهم لشيخهم، بحسن نية أو غير ذلك، واعتقادهم وجوب نصرته، فلما توفي الشيخ المنكر للصراخ أراد طلابه التواصل مع شيخ الطريقة، وما إن جالسوه حتى اندهشوا بشدة طيبه، وصفاء قلبه، وقد حدثني أحد شيوخى ممن كان في الزيارة قائلًا: ما كنت أظن في الوجود قلبًا صافيًا كهذا القلب، وندمنا على أيام اشتدّ الخصام فيها من غير مبرر، وكان الواجب أن نقبل الاختلاف، لتتصافح قلوبنا، وتتعاون عقولنا على هداية شباب بلدنا.

قَبَّحَ اللَّهُ وَهَمَّ الْعَدَاءُ، وَلِيلَ الْهَجَرِ، وَظِلَامَ الْقَطِيعَةِ، مَا أَضَرَّهَمْ! فَمَنْ كَانَ مُعَادِيًا فَلْيَكُنْ مُتَحَرِّيًا قَبْلَ الْعَدَاءِ، وَمَنْ كَانَ مُقَاتِعًا فَلَا يَقَاطِعْ أَخَاهُ إِلَّا عِنْدَ الْخَبَرِ الْقَطْعِيِّ فِي سُوءِ وَفَحْشِ يَسْتَحِقَّانِ ذَاكَ الْهَجَرَ الْمَشْرُوعَ.

ذمه من باب الاحتياط

ضحكت بشدة وأنا أستمع إلى حديث أنيسي يقول: إن طبيباً وضع يده على بطن مريض، وتكهن أن به المرض الفلاني، وطلب صورة توضّح حقيقة المرض، وبالع في إثبات كلام نفسه، وهو يقول: ستثبت لكم الصورة أنني أسرع منها، وأني أكشف المرض مجرد لمس بطن المريض.

وشاءت حكمة الحكيم أن الصورة أثبتت ألا ذرة من المرض الذي سماه، وإنما هو وجع زائل، وألم عارض، فشعر الطبيب بالحرج، فطلب نوعاً ثانياً من التصوير أدقّ وأعلى، فكانت النتيجة أثبت وأوضح، فشعر بالإحراج أكثر، وكأن عيون أهل المريض تقول له: لقد نزلت من أجفاننا، فطلب نوعاً من التحليل في بلد آخر، وصرّح لبعض مَنْ حوله: أن أمله بالله كبير أن يكون

المرض موجودًا، وأن تثبت صحة كلامه.

أَيُّ رُغْوَةٍ وَصَلَهَا هَذَا الْجَزَارُ بِلُحُومِ الْبَشَرِ، الَّذِي لَا يَرْفُقُ بِمَرِيضٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَرْفُقُ بِكَلَامِ رَمَاهُ مِنْ غَيْرِ مِيزَانٍ، وَضَخُمَتْ نَفْسُهُ فِي عَيْنِهِ حَتَّى رَاهَنَ فِي ثَنَائِهَا عِبَارَاتِهِ، ثُمَّ لَمْ تَطَاوِعْهُ أَمَّارَتُهُ بِالسُّوءِ أَنْ يُظْهِرَ الْبَهْجَةَ وَالْفَرَحَ وَالسُّرُورَ بِبَرَاءَةِ الْمَرِيضِ مِنْ خَبِيثِ الْمَرَضِ.

بَعْضُ النَّاسِ فِي الدَّعْوَةِ يَطْعَنُونَ بِالْمَرَّةِ مِنْ بَابِ الْإِحْتِيَاظِ، فَتَسْمِي لِهَمْ دَاعِيًا قَدْ نَفَعَ اللَّهُ بِهِ، فَيَسْكُتُ وَلَا يَجِيبُ، وَهُوَ يَبْحَثُ سِرًّا عَنْ خَطَأِ لَهُ، وَرَبَّمَا فَاهُ بِكَلَامٍ وَإِشَارَةٍ يَدِ تَقُولُ: اغْسِلْ يَدَيْكَ مِنْ فُلَانٍ.

تَسْأَلُهُ بِكُلِّ بَرَاءَةٍ: وَهَلْ عَلِمْتَ عَلَيْهِ شَرًّا؟

يَجِيبُكَ: قَلْبِي لَمْ يَرْتَحْ لَهُ.

وَسُوَيْدَاءُ قَلْبِهِ وَقَلَّتْ لِسَانُهُ تَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَزِلَّ ذَاكَ الْمَذْمُومَ بِهَفْوَةٍ أَوْ سَهْوَةٍ أَوْ خَطَأٍ، كَيْ يَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ وَيَقُولُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنْ نَفْسِي لَمْ تَرْتَحْ لَهُ. سَامِحَ اللَّهُ مِنْ فَرَحٍ لَزَلِ الدَّعَاةُ، وَهَدَى مِنْ تَنَاسَى قَاعِدَةِ السُّتْرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلِلَّهِ دَرَجَاتُ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، فَقَدْ تَعَلَّمَتْ مِنْهُمْ دَرْسًا فِي صِفَاءِ الْقَلْبِ هَزَنِي: فَإِنَّهُ إِذَا انْتَدَبَ أَحَدُهُمْ لِلْكَلامِ تَوَجَّهَ أَصْدَقَاؤُهُ بِالدَّعَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَنْ يَوْفِقَ أَخَاهُمْ وَيَكْتُبَ فِي كَلَامِهِ الْهُدَى وَالْهُدَايَةَ، وَهُمْ يَسْتَمْعُونَ كَلَامَهُ، ثُمَّ يَشْكُرُونَهُ بَعْدَهَا، وَيُعَزِّزُونَ الْكَلَامَ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ.

مَقْلَدٌ يَعْجِبُ عَلَى مَقْلَدٍ!

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، وَلِغَيْرِهِمْ مُتَّهِمُونَ، نَتَّهِمُ غَيْرَنَا بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ

الأهواء، وفي صفوفنا أصحاب الأهواء، وهم مقلدون لا مبدعون، تعلم وأنت خالي الذهن، وإذا ما عرض أمر جديد فحذارٍ من معارضته وردّه، إلا إن ثبت لديك الدليل بما يؤيد ممشاك.

كنت في سفر، وجرت مسألة الجمع في السفر، فقلت لصديقي: مذهبنا الشافعي أنه يجوز الجمع تقديمًا وتأخيرًا، فما مذهبكم؟ قال: ليس لنا مذهب، نحن نأخذ بالكتاب والسنة، قلت: وما الرأي الذي تأخذون به؟ قال: جواز الجمع تقديمًا وتأخيرًا.

فلما توسّعت قليلًا في إعلال بعض المحدثين بعض أحاديث الجمع تعجّب صديقي، فقلت: يا فلان، أنت لست بمجتهد، وإنما أنت مقلدٌ لشيخك، وما لدي مانع أن تكون مقلدًا لشيخك، ولكن المانع أن تدّعي الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، وأنت تتبرأ من التقليد، والواقع أنك لم تجمع أحاديث الباب، ولم تدرس النصوص، ولم تُعْمِل الأدلة، أمّا أنا، فقد كنتُ أشجع منك، إذ كنتُ مقلدًا واعترفتُ بهذا، ولم أتبجّج بدعوى الاجتهاد مع الفراغ، ولعل انتقائي في هذه المسألة أكثر توفيقًا من انتقائك، فقد اخترت فحلًا من فحول أئمة اللغة والأصول والفقه، وهو الشافعي المطليبي (ت: ٢٠٤ هـ) رحمه الله وقلّدتَه، وفقهه صرح يَعْمَل على تصحيحه وتنقيحه وتحسينه أئمة على مدى القرون، أما أنت فقلّدت معاصرًا منفردًا.

لم يَرُق لصاحبي هذا الحوار أبدًا، وما كنت أدري أن هذا الحوار الأخوي سيسبب لي قطيعة أخٍ أحرص على ودّه، وصِلتي العلمية به.

كم عاب الناس على بعضهم التعصب، وذلك في رمي غيرهم، أما إذا

انتقل الأمر إلى ساحتهم جعلوا التعصب تمسُّكًا بالمبادئ، وألبَسَ التَّحِيُّزَ قِنَاعَ الثِّبَاتِ عَلَى النُّهْجِ الصَّحِيحِ.

قام عدو من أعداء كتاب الإحياء للإمام الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله، وَتَبَّئْ مَسْأَلَةً مِنْ مَسَائِلِ الْإِحْيَاءِ، ثُمَّ طَرَحَهَا عَلَى غَارِقٍ فِي بَحْرِ حُبِّ الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ، لَكِنْ هَذَا الْغَرِيقُ تَحَسَّسَ مِنَ الرَّجُلِ وَرَدَّهَا رَدًّا عَنِيقًا، وَأَغْلَظَ الْقَوْلَ عَلَى صَاحِبِهَا، وَمَا دَرَى أَنَّهَا مِنْ كُنُوزِ «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ»، فَلَمَّا بَالِغٌ فِي الشُّجْبِ وَأَغْلَظَ فِي الْإِنْكَارِ كَشَفَ الْقِنَاعَ أَخُوهُ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ هَذَا عَيْنَ مَا قَالَهُ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَكِنْ بُغِضَ النَّاقِلُ أَصْبَحَ حَاجِزًا عَلَى عَيْنِ السَّامِعِ، فَلَمْ يَفَكِّرْ بِعَقْلِهِ مَا لَوْ كَانَ الْكَلَامُ صَحِيحًا أَوْ خَطَأً.

فمُتَحَرِّرُ الْعَقْلِ يَنَاقِشُ الْفِكْرَةَ، وَصَاحِبُ الْهَوَى يَنْظُرُ مِنَ الْقَائِلِ أَوْ النَّاقِلِ لَهَا، وَصَدَقَ اللَّهُ الْقَائِلُ فِي إِنْصَافِ الْخَصْمِ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنَاطِرٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وَصَدَقَ رَسُولُهُ ﷺ الْقَائِلُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاصِفًا الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»^(١).

النائم لا ينقد الحارس السهران

يَبْقَى الْمُؤَلَّفُ فِي تَأْلِيفِ كِتَابٍ مَا سَنَّةٌ كَامِلَةٌ، وَهُوَ يَرَاجِعُ فِيهِ وَيُعَدِّلُ

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٥٠١٠.

وَيُنْقَحُ وَيَزِيدُ وَيُنْقَصُ، ثم يقدمه هدية لأحد أصدقائه، إذا بالرجل يمسك الكتاب وهو غير راض أن يقرأه، يسأل المؤلف: عن ماذا يتكلم الكتاب؟ فيجيبه: عن مسألة كذا.

العابث الكسول: وهل مشكلتنا في هذا الأمر الجزئي الصغير؟ برأيي لا فائدة من هذا الكتاب.

من أعجب ما شَيَّب عقلي، ما حصل مع بعض الشيوخ، حيث إنه ألف كتاباً، وعرضه على أقرانه قبل طباعته، ليزودوه بالملاحظات والوقفات، فما نَشِطَ واحدٌ لقراءة الكتاب، وليس في الأمر غرابة، إنما الغرابة أن ينشط الجميع إلى قراءته بعد الطباعة، ثم كل منهم يكشف الوشاح عن وجه خُلُقٍ اسودَّ من أخطاء الكتاب وهو كَظِيمٌ - حسب زعمه - ويقول لمؤلفه: ليتك لم تكتبه ولم تطبعه.

نعم، وكذلك لا يجوز للجالس أن يَنْقُدَ المَرابِط، ولا الكسول أن يَنْقُدَ صاحبَ العمل.

ولستُ مُبرِّئاً كاتباً مِنْ خطأ أو خَلَل، أفلا يدرون أن صاحب العمل هو مَنْ تَقَعُ منه الأخطاء؟ ثم ألا يعلمون أن من لم يخطئ - من غير الأنبياء - هو الذي لم يعمل قط؟

نَشِطَ أحد العلماء فكتب في ترجمة عالم، وأزاح فرض الكفاية عن كاهل كل تلامذته وعارفي فضله، الذين تقاعسوا عن ترجمة وَفِيَّةٍ بذاك الشيخ الراحل الجليل، وما إن رأى الكتاب نورَ الشمس حتى سارع النقدُ إلى نقد الكتاب، وتَصَيَّدَ ما يروونه أو يتراءى لهم أنه خطأ، مع إساءة الظن، وتحميل

السوء للكتاب فوق ما يحتمل.

أفلا تقدمتم لحمل عبء هذه المهمة؟ أم هو النقد من أجل النقد فحسب؟ أم هي رعونات طفت بعد ضُمورٍ، وأبت إلا الظهور، بل أبى الله أن يترك بعض أصحاب النية الحبيثة حتى فضحه في ثنايا حديثه، وصفحات وجهه، وفَلَتَات لسانه.

رأيت شبابًا من رجال الدعوة قد شَمَرُوا عن سواعدهم، وَدَشِطُوا في العمل لهداية الناس، وصارت لهم صَوْلَاتٌ وَجَوْلَاتٌ في تأمين فُرص العمل الدعوي لإخوانهم أهل العلم.

سارع بعض الكُسَالَى وَسَقَطِ المتاع وَمَنْ لا يتحرَّكُ خُطْوَةً واحدةً ليحاسب ذاك الأبيَّ الحرَّ المِغْوَارَ بقوله: من أين لك النقود؟ وما المعايير في التعامل مع الناس؟ وماذا قدمتم؟ والله لنحاسبَنَّكم!

مهلاً يا عزيز: أيجاسب النائم ذا الحركة والتَّحرُّك والنشاط؟

سبحانك! هذا تجاوز مَهِين.

فمن يحق له النقد إذن؟

ولا يُفْهَم من كلامي إلا شيء واحد، وهو أن النقد حقٌّ لكل عامل، أما النائم فلا ينقد السهران، والمتقاعس لا يُظهر أخطاء المتحرِّك.

وحذارٍ أن ترد علي فتقول: القائد نائم، وقد ينقد وزيره وعامله! أقول: ما دام هو القائد فهو عامل وليس بنائم، أما النائم فهو ذو البطالة والتقاعس.

سمعت النقد الموجَّه لمن اشتغل بالتصحيح والتضعيف من علماء هذا

العصر، وقد قَبِلْتُ هذا النقد جدًّا من علماء اشتغلوا في الحديث وقَدَّمُوا أروع الصور، ولم أقبَلْهُ من رجلٍ لا يفرق بين «المدلّس» و «المرسل الخفيّ إرساله» مثلاً، كما لا يفرق بين «المقطوع» و «المنقطع»، فلمَ جاز للأول وحُظِرَ على الآخر؟ لأن الأول عالم بما يقول، وصاحب جهود سامية فيما يقدم في علم الحديث، فهو متحرّكٌ يرد على متحرّكٍ، أما الحُمُول فليس بأهل أن يرد على الدَّوُوب.

ومثلها أضف مَنْ قرأ الكتب قراءة من غير ممارسة، كمن قرأ مئة كتاب في إصلاح السيارات دون أن يمارس الصنعة بيده، هل يحق له العبث؟ وأعظم منها من قرأ الكتب الكثيرة في إصلاح الطائرات ولكن دون التدريب العملي، ومثله من قرأ مئة كتاب في الطب، ولا يقدر أن يعمل عملية واحدة.

حقّق ما تريد من عمل، وكن من أهل العمل والحركة، ولا تكن من أهل الكسل والنوم، ولك الحق أن تَفْلِي أعمال غيرك من العاملين بكل رحابة صدر.

أختم بالحديث عن شيخ التقيته، وقد رد على أحد شيوخه، فشكرته شكراً بالغاً، وقلت له: لم أوافقك علمياً في الرد على شيخي فلان، لا لأن الشيخ شيخي، - خَبْتُ إذن وخسِرْتُ إن فعلت هذا، ولا بارك الله بطالب الحديث إن غدا ولاؤه لغير الحديث النبوي الشريف - لكنّ شُكْرِي لك لأنك أديب في الردّ، رصينٌ في المناقشة، سَلَكْتَ طريق الردّ الصحيح، بعلم وفهم، فكلامك محترم وإن لم نتفق في النتيجة.

المراهقة الدعوية

أشبه المراحل الدعوية عند من يمارس الدعوة بالمراحل العمرية، فهناك مَنْ دعوته في سن الرضاع والمهد، ومنهم مَنْ في الطفولة المتأخرة، ومنهم مَنْ في المراهقة، ومنهم مَنْ بلغ النضج مع القوة، وهو الكهولة، وبعضهم وصل الشيخوخة، وآخرهم قد رُدَّ إلى أرذل العمر والحرف والتخليط.

وقليل مَنْ يكون في مرحلة النضج، وما أكثر أهل المراهقة!

تمثل بعض المدارس مرحلة المراهقة الدعوية، وكثير من الناس يعرف أن مرحلة المراهقة هي مرحلة الأفعال والآراء والتصرفات والقرارات غير المتزنة، وقد تجد فيها اتزاناً ونُبلاً وعقلاً، ولكن هذا خير في غير مظهره.

المراهقة الدعوية: ليست سنًا معينة، بل وصف لحالة من اختل ميزانه الدعوي، واضطرب سُكَّانُ المركب لديه^(١).

فمن صفات مراهق الدعوة - ولو كانت سنه بلغت السبعين -:

- ضياع سُلَّم الأولويات، فقد يعمل بالمفضول ويترك الفاضل، ويعادي القريب الحميم ويتودَّد لعدوٍّ أبعد.

- تكبر في عينه جزئيات وكأنها كليات.

- يحمل الظني الذي تبناه حمل القطعي ويحاسب عليه.

(١) السُّكَّانُ هو ما نسميه المِقْوَد في وقتنا، وهي الخشبة التي تعدل السفينة في توجيهها. انظر:

«لسان العرب» مادة: سكن.

- ليس لديه نصٌّ حمَّالٌ أَوْجُهُ.
- ظاهرية الفهم للنص والركون إليه.
- يرى نفسه - أو جماعته - المرجعَ الأوحَدَ الذي يمثِّلُ الصواب.
- رأيه صوابٌ لا يحتملُ الخطأ ولا ذرة.
- أكثر حروبه مع الأقربين لا الأبعدين.
- يصرخُ ويرفع صوته مع الأقربين للدفاع عن فكرته، وكأنه يخاطب عدوًّا.
- أكثر حروبه مع مَنْ يُلايئُهُ وَيَلِينُ في يديه، ولكنه سميعٌ مجيبٌ لمن يتسلَّط عليه بعنف.
- التحولات عنده من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال.
- تبعية الأصغر للأكبر تبعية عمياء.
- من يتجاوز هذه المرحلة يعلن تَرْكَهُ لها وتَبَرُّؤَهُ منها.
- كثير الاضطرابات في العلاقة مع الناس.
- لديه الاستعلاء المنهجي، وتأبط الحق مع الإخوة الأقربين^(١).
- علاقته مع أبناء مرحلته علاقةُ التعصب.
- شَرِسُ الأخلاق مع مَنْ يَعُْدُّه خصمًا.

(١) التعبير بـ: «الاستعلاء المنهجي» أفدته من فضيلة الدكتور: عبد الكريم بكار حفظه الله.

- المراهقون معجبون بما يأتون، وغير مُقَرَّين لأعمال غيرهم.
- أكثر إنكارهم المنكر بمنكر، وأمرهم بالمعروف من غير معروف.
- يُجْرُونَ الظنون مجرى اليقين، ويحاسبون الناس على هذا الفهم الشديد.
- إن تَحَمَّسُوا كانوا كسيارة تهوي دون كوابح، وإن أَمْسَكُوا أضحوا معملاً سُحِبَ منه تيار الكهرباء.
- منطق المزايدة يكثر في حديثهم.

- هم أغرار، الحق والباطل عندهم لوان لا تدرج بينهما، والحياة عند الغرّ عامة كلوحة مقسومة إلى قسمين: نصفها أبيض والآخر أسود متلاصقين، وليس بينهما منطقة رمادية، لكن طبيعة الإنسان كلما تقدمت سِنَّهُ توسَّعت مساحة المنطقة الرمادية على حساب الأبيض والأسود، حتى يفارق الدنيا، ومساحة الأبيض صغيرة جدًّا، والأسود كذلك، وأكثر لوحة الخبرة عنده رمادية.

- من تَخَرَّجَ من هذه المرحلة لا يستطيع الانتساب إليها بحال، بل يعدُّها تاريخًا مضى، ومرحلة دَرَجَتْ.

- المتخرج من هذه المرحلة امرؤ مغضوب عليه مُتَبَرِّأٌ منه من قبل أبناء الصبا والمراهقة، ويعدونه من المتساقطين في الطريق.

- لئن تَخَرَّجَ أحد المراهقين من هذه المرحلة غالبًا ما تَشَبُّ الحروب والضغائن من المراهقين نحوه، دون عكس.

في أوصاف أخرى، ولكن هذه أهمها.

ليس في الدعاة من ولد في سن الرشد والسداد

ولا يكاد يخلو الكثير من الدخول في مرحلة المراهقة الدعوية، وهي بوجهة نظري كالخدمة العسكرية الإلزامية لأبناء الوطن، منهم من دخلها غير محبِّ لها، ثم خرج بأسرع ما يمكن، ومنهم من عاشها مجذافيرها، واستمتع بكل لحظة فيها، ومنهم المخلص لها الذي تطوع فيها أكثر عمره، حتى أصبح عظيم المراهقين، ومخرِّج المراهقين، وأصبحت أخلاقه مرجع المراهقة، ومدجنته لتفريخ الأغرار.

أما منهج رسول الله ﷺ، فهو البالغ ذورة الكمال، من بُعد النظر، ولين النقاش، فهو القائل ﷺ في صلح الحديبية: **«وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّجْمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»**^(١).

وقد أسلم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فانتقلوا من الظلمات إلى النور، ولكن خبرتهم في البدايات ضئيلة صغيرة، نمّاها لهم رسول الله ﷺ وعدّها وصححها وكبرّها، فانظر إلى مثال يخص التفكير بعقليّة الأبيض والأسود، وانحسار المنطقة الرمادية، عند المتحمّس، فهو يحب الصّرامة، ولا يرى إلا لونين: أبيض وأسود، وذلك في يوم الحديبية: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«وَاللَّهِ مَا شَكَكْتُ مِنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: «بَلَى».** قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: **«بَلَى».** فَقُلْتُ: عَلَامَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا وَتَرَجُعَ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَعْدَائِنَا؟ فَقَالَ: **«إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ نَاصِرِي وَلَسْتُ**

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري برقم: ٤٧٣٤.

أَعْصِيهِ. قُلْتُ: أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: **«بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ»**؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ. قَالَ فَاتَّيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ لَهُ كَمَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَدَّ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ كَمَا رَدَّ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَوَاءً، وَزَادَ: فَاسْتَمْسِكْ بِغُرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ^(١).

وشتان ما بين رؤية رسول الله ﷺ، ورؤية سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن كم طالت مدة هذه التَّظَرَّةِ عند فاروق الإسلام؟ وكم كان يبقى الموقف بين يديه ليفكر به ويطوِّر من حاله؟

إن شئت فاقراً الحادثة لما أشكل عليه مسألة صلاة رسول الله ﷺ الجنازة على رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول عندما مات^(٢)، فما استغرق الموضوع بين يدي فاروق الإسلام دقائق يسيرة، استفسر عن شبهة كانت في ذهنه، ثم سلَّم تسليمًا، ولو أن سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يقنع لزاد في الاستفسار حتى تزول الشُّبْهَةُ.

ومن أهم مواطن تركيز القرآن على إثبات المساحة الرَّمَادِيَّةِ قوله تعالى في أهل الكتاب: **«لَيْسُوا سَوَاءً»** [آل عمران: ١١٣]، **«وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِيَدَيْنِ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا»** [آل عمران: ٧٥].

(١) هو جزء من الحديث المخرج في الحاشية الآتية.

(٢) انظر الحديث بتمامه ص: ١٨٧.

والمنافقون ليسوا سواء، ففيهم شيطانهم الأكبر عبد الله بن أبيّ، وفيهم الذنّب: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

والمؤمنون ليسوا سواء: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

والصحابه العظام الأختار ليسوا على مستوى واحد، ففيهم العشرة المبشرون بالجنة، وفيهم الأعراب الذين نادوا الحبيب ﷺ من وراء الحجرات، ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

وما رَكَزْتُ الكلام على التوازن في الحكم على الأبيض والأسود إلا لفسوّ هذا المنطق في أبناء الدعوة، والسعيد من وُلِدَ صغيراً ثم كَبِرَ حتى بلغ الرُّشد ووقف عنده، لكنّ الخسران لمن وُلِدَ صغيراً حتى وصل المراهقة فأقام عندها وعاش فيها، ولم يغادرها.

لا تنس رقم مقعدك

إِذَا رَفَعَكَ الْكِبَارُ فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ أَنَّكَ مِنْهُمْ، بَلْ تَذَكَّرُ سَنَكَ وَأَسْنَانَهُمْ، وَعِلْمَكَ وَعُلُومَهُمْ، وَحَجْمَكَ وَأَحْجَامَهُمْ، وَتَأْثِيرَكَ وَتَأْثِيرَاتِهِمْ.

كنت أعجب من أحد الإخوة وهو نابه ذكي، له جاذبية في خطف قلوب الكبار، بحسن حديثه، ووعيه، بل ودهائه، فهو قادر على أن يجلس إلى العالم وقد اطلع على بعض كتبه، فينشئ الحديث الموافق لما في كتاب العالم، فيخطر ببال الشيخ أن هذا الشاب الناشئ يحكي هذه الأفكار الناضجة من بنات أفكاره، فهو لا يوافقه في الفكرة فحسب، بل توصل إلى نُضج ما وصله الشيخ إلا بعد عناء وسنين.

ومن عادة الكبار أنهم إذا رأوا نبتة صالحة شجعوها وثمروها وكبروها، فدوئهم في هذا رسول الله ﷺ الذي رأى التفاني في الحديث من أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فشجَّعَهُ، ودفعَهُ، فقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أُنْسَاهُ، قَالَ: ابْسُطْ رِدَاءَكَ فَبَسَطْتُهُ، قَالَ: فَعَرَفَ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**ضُمَّهُ**»، فَضَمَّمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ^(١).

وفي رواية مسلم^(٢) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَقُولُونَ: «إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَدْ أَكْثَرَ وَاللَّهِ الْمَوْعِدُ، وَيَقُولُونَ: مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يَتَحَدَّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ إِخْوَانِي مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَرْضِيهِمْ، وَإِنَّ إِخْوَانِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مِلءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا: «**أَيُّكُمْ يَبْسُطُ تَوْبَهُ فَيَأْخُذُ مِنْ حَدِيثِي هَذَا، ثُمَّ يَجْمَعُهُ إِلَى صَدْرِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْسَ شَيْئًا سَمِعَهُ**»، فَبَسَطْتُ بُرْدَةً عَلَيَّ حَتَّى فَرَغَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري برقم: ١١٩.

(٢) برقم: ٢٤٩٦.

حَدِيثِهِ، ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا نَسِيتُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ شَيْئًا حَدَّثَنِي بِهِ، وَلَوْ لَا آيَتَانِ أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مَا حَدَّثْتُ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٥٩]، إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ.

ولما رأى النبي ﷺ حرص ابن عمرو على الكتابة شَجَّعَهُ وَدَفَعَهُ نَحْوِ الْهَدَفِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْعُصْبِ وَالرَّضَا؟، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ، فَقَالَ: «اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(١).

وعودًا إلى خبر ذاك، حيث إن الخطر الذي أصابه نوعان:

الأول: أنه أصبح يجلس في المجالس ويرى نفسه جزءًا من مجالس الكبار، ولا تسمع من حديثه إلا: اتصل بي الشيخ فلان وقال لي، واتصل بي فلان واستشارني، وقال لي فلان: كذا، فقلت له: لا، لا تفعل، وفلان وفلان من المذكورين هم طبقة شيوخ شيوخه.

والثاني: أنه استصغر كل أقرانه ومن دون طبقة الكبار.

والرجل أحرق نفسه وطُرد من مجالس الأكابر بهذا التبجح الممجوج، ذلك لأنه - من وجهة نظري - قد ضلَّ رَقَمَ المقعد الذي يجلس فيه، ولو أنه أدرك أنه صغير القوم، وأدخله الكبار إلى صفوفهم حُبًّا في العلم، وتشجيعًا

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٣٦٤٦، وهو صحيح.

على الثبات والنبات لما ظهرت منه هذه الحروف الباردة، التي يقال فيها المثل: «اثنان أبرد من اليخِّ، شيخ تصابي، وصبيٌّ تَمَشِيخ»^(١).

نسي هذا الشاب أن مَقْعَدَه الحقيقي خارج هذه القاعة، بل في قاعة الصبيان، وإنما أدخله عَلَيْهِ القوم بينهم ليصبح كبيراً، وتأمَّل حال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما فعل معه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا العمل بالذات، فأدخله مجلس الشورى الذي لا يحضره إلا أشياخ بدر، فهل عظمت عليه نفسه؟ أم هل رأى نفسه جزءاً من ذاك المجلس؟ أنسي مقْعَدَه الحقيقي وأقرأه الأصل؟

فاسمع الرواية من فم ابن عباس، لأنها أحلى وأغلى:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَقِيَّ مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءَ مِثْلِهِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُبَيْتُهُ دَعَانِي يَوْمِيذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِثِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا؟ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا؟ فَقَالَ لِي: يَا بَنَ عَبَّاسٍ، أَكْذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

(١) يخ: كلمة فارسية تعني: الثلج، أو: الجليد. انظر: «فرهنگ دانشگاهی» فارسي عربي، مادة: يخ، ص ٨٠٢، الطبعة الرابعة، طهران، ١٣٨١، هجري شمسي. وانظر: «المعجم الفارسي العربي الموجز» للدكتور: محمد التونجي ص: ٦٢٠.

وَالْفَتْحُ ﴿ فَتُحْ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴾ ﴿ فَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ^(١).

دون مبالغة أقول: لو ظهر من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وحاشاه من ذلك - تبجح وتعالٍ لما سكت أشياخ بدر، ولقالوا لعمر: هو ناضج الفكر ولكن انظر كلامه وسلوكه، بل ما سكت سيدنا عمر عن هذا، وفي روايات توضح كيف كان ابن عباس يجلس إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جلسة الطالب المتأدب، بل الخادم المتفاني في الخدمة، المتقرب إلى الله بِبَسَالَةٍ، يخدمه في ماء استنجائه ووضوئه، يسأله عن العلم، فاقراً بعضها في صحيح البخاري في قصة زوجتي رسول الله ﷺ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْمَرَأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ لَهُمَا: ﴿إِنْ نُوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فَحَجَجْتُ مَعَهُ، فَعَدَلْتُ، وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ، فَتَبَرَّرْتُ حَتَّى جَاءَ، فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ، فَتَوَضَّأْتُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنَ الْمَرَأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمَا: ﴿إِنْ نُوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، فَقَالَ: وَاعْجَبِي لَكَ يَا بِنْتُ عَبَّاسٍ: عَائِشَةُ، وَحَفْصَةُ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ عُمَرَ الْحَدِيثَ يَسُوقُهُ^(٢).

وأختم بقولي: كم نال الألعبي بذكائه - بعد توفيق الله تعالى له - من أماكن يستحقها، وربما فوق ما يستحق، ولكن كم دمر نفسه وكان الذكاء

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٢٩٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٤٦٨، ومسلم برقم: ١٤٨٠.

سَبَبَ مَهْلَكَتِهِ! وَكَمْ رَعَى اللَّهُ أَقْوَامًا بِتَزَكِّيَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَغَرِقَ آخَرُونَ فِي
أَوْحَالٍ حُظُوظِ النَّفْسِ وَالتَّطَلُّعِ لِلدُّنْيَا!
إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَقْضِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ





العلاقة مع المدعوين

العلاقة
مع المدعوين



ابحث عن مفتاحه الصحيح

لكل إنسان مفتاح يفتح قلبه، فلا يُغْرِيه شيءٌ آخر، ولن يُلَيِّن من قلبه، فضلاً عن قَلْبِ قَلْبِهِ، وأنجح الدعاة أثراً مَنْ عرف مفتاح كل قلب ليفتحه، وتنسب المعلومات، وتتركز الهداية المهداة.

فمن الناس من يفتح قلبه الحديث عن حب الله تعالى، واثان تجذبه النصوص النبوية والمأثورة، ومنهم من تجلبه المحاكمات العقلية، وفيهم من يطرب للإحصاء والمعلومات الدقيقة، ولن تُعْديم مَنْ يهوى الشعر، وهكذا تتنوع الرغبات.

ومجرد الحديث مع مَنْ تَدْعُوه ببضعة أسطر يظهر للمتكلم هوايات الناس، وهذا فيما لو كان المقابل واحداً.

أما عند الخطاب الجماعي فلا بد من تنوع الخطاب، وحذارِ حذارٍ أن تجعله من نوع واحد.

ستخفق الخطبة العقلانيَّة البَحْتَةُ، ومثلها الخطبة المتخمة بالشعر، ومثلهما الخطبة العاطفيَّة الغارقة، ولكن الخطبة التي تحتوي على هذه العناصر وغيرها ستكون خطبة كلوحة الفُسَيْفُسَاءِ.

ولطالما انتقد بعض الناس دروس فلان من الدعاة، ووصفها بأنها عواطف مُتَهَرِّة، ولكنني أقدر تقبيح الصورة التي وقع بها هذا الواصف، فقد وصفها بالمُتَهَرِّة لأنه عقلائيٌّ بَحْتٌ، ودروس هذا الداعي خالية من العقلانية، ويغلب عليها العواطف، وعلى العكس، فكم حَكَمَ بعض العاطفيين على

فلان أنه متفلسف، أجل؛ لأن كلامه عقلائي صرف، وهم عاطفيون.
وما أبدع التنويع في الخطاب الجماعي! بحيث يبقى الكل مشدودًا إلى كلام
المتكلم، وروحه تنشد الفائدة الآتية.

ولتنويع الخطاب فائدة جديدة، ألا وهي: إلزام كل أحد بخطاب الآخرين،
فعلى سبيل المثال، عندما يتقبل العقلاني درسك من حيث الابتداء، فسيسمع
منه الخطاب العاطفي الذي لا يميل إليه من حيث الأصل، ولكن لا بد
للخطاب العاطفي المنضبط أن يؤثر فيه ولو قليلاً، حتى يصل إلى حد القبول
مع استمرار الأيام، ودوام سماع الخطاب.

فمفتاح القلب يبدأ من حيث ميل السامع، والنتيجة إيصال كل أنواع
الخطاب له، وبهذا تتلاقح أفكار الناس، ويتنوع خطاب الداعي، وبهذا يتشبه
بخطاب النبي ﷺ، الذي كان يحوي كل الأنواع، فلا يبقى جليس إلا وقد
حركه وأثر في قلبه.

ولم أتعرض لمسألة أحاديّة الخطاب، فالداعي الذي يتركز خطابه على
العاطفة ينفر منه ومن خطبه وكلماته كل مخالف، ويلتفت حوله الموافقون
فقط، المحبّون لهذا النوع من الخطاب، وتنتج عن هذه أخطاء عدة:

١- انكفاء الداعي على نفسه ومن يلوذ به.

٢- عدم تلقيح أفكار الداعي وأبناء خطابه من نوع الخطاب الآخر.

٣- جنوح الكفة في الشخصية، بحيث يزداد العقلاني عقلانيةً، إلى حد
جفاف العاطفة، والعاطفي يزداد عاطفةً إلى حدّ رفض الخطابات الأخرى،

وهذا ما يُخِلُّ في شخصية المسلم المتوازن، وتخرجه هذه العلة من إنسان عادي إلى متطرّف نحو نوع من الخطاب.

الأمن الصادق لاستيراد وتصدير المعلومات

ما أحوجنا إلى الأمن الحواري أو التعليمي أو أمن عرض المعلومات، كي يأمن المرء على نفسه من الطرد أو الزجر أو التصنيف المُخْرِق المُدْمِر، بسبب تصريح أو سؤالٍ أو وجهة نظرٍ أو توقُّفٍ!

كانت إحدى المدارس الشرعية تُلقِّنُ أبناءها أن الكلام المخالف للشرع المنسوب إلى ابن عربي الحاتمي الطائي (ت: ٦٣٨ هـ) صحيح النسبة، ولكن هو كلام ثقيل لا يفهمه إلا الراسخون في العلم، فسمع أحد الطلبة شِعْرًا لابن عربي فيه كفر، والأستاذ الملقّن للطلبة يطاردُ أفكارهم بقوله: إياك أن تعترض على أولياء الله، ومثلك كمثّل الطفل الصغير، الذي وضعوا في فمه لقمة كبيرة فلم يُسْغَهَا، فما اقتنع الشاب بكلام أستاذه، وأسَرَّ إلى أحد أصدقائه بعدم قناعته، وخشي المؤمن على الخبر أن يعاقب إن اكتشف صاحبه المنكر فخرج مسرعًا إلى إدارة المدرسة يشكو صديقه، وقامت القيامة على رأسه، ولم يهدأ أمره إلا عندما فتح عينيه فرأى نفسه خارج المدرسة الشرعية، قد طُرِدَ منها، وبوجهة مسؤولي المدرسة أنَّهُم كانوا ينصرون الله ورسوله بهذه الممارسة السّامّة، يُعْقَلُ طردُ شابٍّ من أجل مسألة كهذه؟ هَلَّا حاورته أو أقنعتَه؟ أو كنتَ على البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ.

ولقد حدثني أحد أصدقائي قائلًا: رفع طالب في الصف السابع - الأول

الإعدادي - يده أمام المدرس سائلًا: نعلم أن الله خالق كل شيء، ولكن ما الجواب على سؤال: «من خلق الله»؟

إنه لسؤال عارض، وبَدَّهِي أن يأتي به الشيطان الموسوس إلى ذهن مسلم كبير، بل إلى ذهن صحابي، فكيف بطفل!

لم يكن ردُّ الأستاذ بحروف من الفم، بل كان يدًا تطير من أعلى الكتف إلى خدِّ طريٍّ كأنه خدُّ عذراء بريئة، وبعدها تمَّ إبعاد الطفل خارج المدرسة، ليقف ذليلاً حقيرًا على أبوابها، يرجو رحمة الأستاذ، وشفاعة أستاذٍ مسمومٍ لا يقل خطورة عن صديقه، وفي دقائق غليان خدِّ الصغير المتألم يمرُّ مُلجِدٌ فيرى الطفل يبكي، رَقَّ له وحنأ، وتواضع إليه وانحنى، وسأله بكل رحمة: ما بك؟ وما الذي أخرجك من الدرس؟

اعتذر الطفل خوف سطوة جديدة عليه، لكن المُلجِدَ أصرَّ إصرارًا شديدًا: حتى أجابه بما حصل.

وطار المُلجِدُ فرحًا، وحقَّ له ذلك، أفلا يطير فرحًا بصفقة من قَصَب، لا تَعَبَ فيها ولا نَصَب! ألا يفرح بلُقْمَةٍ سائغة، وجسدٍ غَضٍّ وعقلٍ مَرِنٍ، قد وصلته فظاظَةُ الإسلام - حسب وجهة نظره السقيمة - على طَبَقٍ من ذهب، وصورةُ الملحدِ صورةُ المخلصِ المخلص، والشفوقِ الرحيم، كما أن صورةَ المعلمِ في ذهن الطفل المظلوم كجَبَّار يريدُ العلوَّ في الأرض والفساد!

مسح الملحدُ دموعَ الطفل بلطف، وأخذ بيد كأنَّها القُطْنُ الصَّافي، ليوصله إلى بِقَالَةٍ ويُهْدِيه بعضَ الحُلُويَّات، ويُثْنِي على ذكائه الوقاد الذي اكتشف خُرَافَةَ وجود الإله - على حد زعمه الباطل -

لا والله لا توصف سعادة الطفل الذي رأى من فِهم شكواه، وشكر اليد الحانية التي أقامته بعد سقوطه، وعدّلته عقب انكسار، وتوالت الاتصالات والتواصل بين الملحد والطفل حتى شب على الإلحاد، وصار من المقتنعين به اعتقاداً، مبنيّاً على مَظْلَمَةٍ.

ثم لم يلبث في صفوف أولئك الملحدين إلا بضعة سنين، حتى نشب قتال بين الدروز وتلك العصابة من الملاحدة، وقُتِلَ ذاك الشاب الفَقِيّ في صفوف المنكرين لوجود الله تعالى!

من هي اليد الآثمة التي نقلت الطفل من موحّدٍ لله إلى منكرٍ عنيد؟ أليست يد الأستاذ الغيور على الدين في الظاهر، الخادم الأمين لأعدائه عن جهلٍ وضلال!

كيف يجرؤ بعد هذا الموقف أن يسأل أيُّ طالب أيّ سؤال خارج السياق المألوف؟ لقد أرهب الجميع، وكُتِّمَت الأفواه، وأخرست الألسُن، وطوى كلُّ ذي شُبْهَةٍ على شبهته، ولكنَّ الشبهة إذا لم تعط ما تستحقه من الإماتة نمت وكُبُرَتْ حتى تسيطر على صاحبها، وتصبح معتقداً راسخاً.

الأمن النفسي والفكري في الحوار

ما أصعب النقاش والحوار والأخذ والردّ إذا كان أحد الطرفين يتوجَّسُ خِيفَةً من صديقه أن يصرخ في وجهه فجأة، وأن يصبح المارق الهارب في لحظة!

ما أحرانا أن نوزَّعَ الأمنَ النفسيَّ على مَنْ نناقش، لتهدأ نفسه، ولا يشعرَ

بهجوم ذئب التضليل، والأحكام المعلبة الجاهزة!

لَمْ يَهْدِد الطالب بالطردِ إن سأل خارج المألوف؟ أليس الواجبُ على الأكبر وصاحبِ اليد الطُولَى أن يَتَّسِعَ للأصغر، وأن يعطيه الأمان الوافي للسؤال بحريّة، والتعبير بما يَجُوبُ في النفس؟

لقد حدثني طالب علم مُضْطَهَدٌ، أن مدير مدرستهم سمع عنه أنه يذكر لأصدقائه قول من يجيز المسح على الجوربين الصفيقين الشخينين في الوضوء، وأنهما يقومان مقام حُفّ الجِلْدِ في منع وصول الماء، أرسل مسؤول المدرسة إلى الطالب، يستفسر منه بلهجة ظاهرها الحزم، وباطنها التهديد بالطرد، وحقيقتها الضرب باليد، إن تكرر منه نشر هذه الفتوى الباطلة، وهذا التهديد جعله يبطن الحكم دون اقتناع ببطلانه، بل ما سَنَحَتْ له فرصة يَبْثُ فيها هذه الفتوى إلا نشرها بين يدي المالكين للمساحة الآمنة في الحوار.

لكن العجب يكبرُ ويعظم إن علمت أن ذاك المنكِرَ المُهَدَّدَ قد وقف بعد سنين طويلة على فتوى لعالم يثق به، فجعل يدعو هو إلى المسح على الجورب الغليظ، استنادًا إلى كلام من يثق به، سبحان الله! أهكذا حال المقلّدين الجامدين المولعين بتقليد أكابرهم دون عقل؟ أيسلُ به الحالُ أن يهدّد أخاه بمستقبله؟ أَسْتَجَازَ توتيرَ أعصاب أخيه لمجرد تقليده وقصور بحثه؟

وليست أعيب عليه التقليد فهذا فَخْرٌ لمن قَلَدَ الأئمة الهداة، ولكن العيب في قصور البحث، وإرهاب الناس على رأي واحد ليس له أخ معتمد.

أما يملك المرء منا مِترًا من الأرض الآمنة لِيُوقِفَ عليها مَنْ يُناقِشُهُ من

المخالفين؟ أما يسعنا إلا أن نفرض على القريب منا الوقوف على أرض مُكْهَرَبَةٍ تؤذي ثواني وجوده عليها، حتى تُسْرَعَ في انسحابه وهَرَبِهِ!

ولا أمل من سؤال طالما سألته: ما حال المخالف إن رأى الحق لاحقاً عند مخالفه المضطَّهَد؟

وكم جالست من بني الإنسان من هو متصف بالإرهاب الفكري، يسيطر على جلسيه، وعينه تدور كأنها الشُرْطَة، ما أوقعت بأحد إلا انهيار أمامها!

حوار مع البعيد، وإرهاب للقريب

توسَّعت المساحة في الحوار مع الأجنبي، وضُمُرت مع الولد، وفي حالتنا التي نعيشها، يَهْرُبُ شاب من شبابنا إلى صفوف العدو، فيجدُ التلقّي والحفاوة، وتستقبله الصدور الواسعة، وتوسَّع له المجالس، ويُلان له الحديث، فيجدُ أبناءنا أصحاب التساؤل المساحة الحرة في الحوار التي كانوا يبحثون عنها، وقد فقدوها لدى آبائهم وذويهم، لكن الكَرَّة تعود مرة أخرى إلى العكس، لأننا أصحاب صدور واسعة، وعقول تقبل الحوار مع أبناء العدو الذي هرب من أهله إلينا، فما لنا كيف نحكم؟

ألم يكن التوجيه الإلهي في استثمار القريب قبل البعيد؟ ألم يعلم الرحمنُ تبارك وتعالى نبيه في حادثة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢]. أن التضحية تكون فيمن قُرب قبل مَنْ بَعُد، وأن العمل مع الصاحب مقدَّم على المخالف المتأمل به؟ ألم تَفْتَحْ ساحة الحوار رحبة أمام الهارب من الإلحاد اللاجئ إلى دينك؟ فلم أَغْلَقْتَهَا بوجه ولدك السائل عن أمور من صميم فكر مدرسة أخرى؟

لِمَ سَمِيَتْهُ: الأَمْنُ الصادق؟

وما سَمِيَتْهُ بـ «الصادق» عبثًا، بل لأنني عثرت على أَمْنٍ مُتَصَنِّعٍ، كالجاسوس على عورات الناس، المتواطئ مع جهات شديدة البأس، عندما يجلس يصبح في أكرم خُلُقٍ، ويسأل الأسئلة البريئة، ويستفتح الحديث وعينه تبث عن الفائدة، وحقيقته جاسوس عميل رخيص، لا وري لم أبالغ، إذا قلت لك: إن في بعض الساكتين والمنصتين للحديث وبرآء العيون مَنْ هم أهل صنعة وتمثيل، لم يجلسوا جلسة المتأدب، ولم يسمعو سماع الواعي إلا لتأمن لهم، فمتى أفرغوا كامل ما عندك واستوفوا مِلءَ ما يطلبون تغيرت الوجوه والألوان، وانقلب الحديث، وكُشِرَ عن الأنبياء، لأنه ممثل للأمن وليس صاحبًا له، ولا متخلِّقًا به.

وبعد هذا وذاك خذ مثالًا للأمن الصادق الذي يرقى بجماعته، ويرفع من مستواهم، ويزيل عنهم غشاوة أي شبهة تلقتها عقولهم.

مثال للقدام من جماعة أخرى: قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آفَقًا». قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيَادَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدَ». قَالَ: أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهَّتْ فَاسْأَلُهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَجَاءَتْ الْيَهُودُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ»** قَالُوا: أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مِثْلَ ذَلِكَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَتَنْقُصُوهُ، قَالَ: هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ^(١).

ومثال للسائل من جماعته:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُولٍ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَبَّتْ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أَبِي، وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا: كَذَا، وَكَذَا، قَالَ: أَعَدُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: أَخَرُ عَنِّي يَا عُمَرُ، فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: **«إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا»**، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمُكُثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةِ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا نَفْسٌ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]، قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٣٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٧١.

ولولا الأمن العالي من سيدي رسول الله ﷺ، لما استطاع سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَصَارِحَ الْحَبِيبَ ﷺ بِسْؤَالِهِ.

انظر من اتجاه المخالف لا اتجاهك

لو جلس شخصانِ أمام بعضهما لرأى كُلُّ واحد منهما ما خلف صديقه، لكن لن يرى أحدهما ما خلف نفسه إلا إن قام وجلس في صف المقابل له، وعند التعامل مع المدعو المخالف لا بد من نظرتين:

الأولى: وجهة نظرك فيما آل إليه اجتهادك حسب الأدلة الشرعية.

الثانية: وجهة نظره هو، لتعرف ماذا أراد.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكُهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَدَهُ بِرِدَائِهِ جَبْدَةً شَدِيدَةً نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَمَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ^(١).

من وجهة نظري: هو موقف إساءة من هذا الأعرابي نحو أطف البشر ﷺ، وهذا ما آل إليه اجتهادي حسب دراستي الشرعية، لكن لو تحولت إلى وجهة نظره لرأيت أنه ما أراد الإساءة ولا الإغلاظ، إنما أراد تلبية طلبه، ومن عادة أولئك الأعراب أنهم إن أرادوا التأكيد على الطلب شددوا بطرق كهذه، فهو مريد للخير لا مسيء.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣١٤٩، ومسلم برقم: ١٠٥٧.

وسيتحول حكمك عليه كثيراً عندما تجمع بين النظرتين، ولو كنت معه وقتها لَعَذَّرْتَهُ، وَحَكَمْتَ أَنَّهُ مَا أَرَادَ السَّوْءَ، وَلَكِنْ الْإِعْذَارُ لَا يَعْنِي تَرْكَ النَّصِيحَةِ لَهُ، لِيَتَعَلَّمَ الْأَدَبَ مَعَ الْحَبِيبِ ﷺ.

لا يزيل القمع شبهة

يَتَعَنَّى كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْبُسْطَاءَ بِحَوَادِثِ حَدِثَتْ أَمَامَهُمْ، أَوْ تَنَاقَلُوهَا، مَفَادَهَا أَنَّ الشَّيْخَ فَلَانًا، أَوْ الْمُرِيَّ فَلَانًا سَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ مَسْأَلَةِ فَصَاحٍ فِي وَجْهِهِ، فَسَكَتَ سَكْتَةً لَمْ يُجِرْ بَعْدَهَا جَوَابًا، وَلَمْ يَنْبَسْ بِبَنْتِ شَفَةِ، وَيَذْكُرُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ عَلَى أَنَّهُ إِنْجَازٌ لِلشَّيْخِ، وَرَبِّحٌ عَلَى ذَاكَ الضَّعِيفِ، وَتُسَرَّدُ الْعَنْتَرِيَّاتُ تَفَنُّنًا فِي أَسَالِيبِ الْقَمْعِ وَالتَّسْلُطِ وَالْإِسْكَاتِ وَأَخَوَاتِهَا.

لَا عَجَبَ أَنْ تَسْمَعَ مِثْلَ هَذَا مِنْ حَضَرَ أَوْ نَقَلَ الصُّورَةَ، وَلَكِنْ الْعَجَبُ أَنَّ يَنْقُلَهَا الْمَسْكِينُ الَّذِي جُنِيَ عَلَيْهِ، وَصَاحَ الْمُرِيَّ بِوَجْهِهِ، وَيَقُولُ لَكَ: لَقَدْ صَاحَ بِوَجْهِهِ بَعْدَ أَنْ سَأَلْتَهُ صِيْحَةً لَمْ أَعُدْ أَفْكَرَ بِالشَّبْهَةِ!

أَوْ أَمْلِكُ وَقَدْ نُزِعَتِ الشَّخْصِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ مِنْ بَيْنِ جَنْبِكَ! أَمْ هَلْ أَقْدِرُ عَلَى قَلْعِ الْمَازُوحِيَّةِ^(١) مِنْ شَخْصِيَّتِكَ، إِنْ كُنْتَ كَذَلِكَ فَمَا لِي وَلَكَ، لِأَنِّي عَلَى نَهْجِ سَيِّدِي ﷺ الَّذِي كَانَ يَتَّسَعُ لَصَحْبِهِ لِيَسْأَلُوهُ، وَيَعْرِضُوا عَلَيْهِ الشَّبْهَةَ دُونَ قَمْعِ.

علمني شيخي فأحسن تعليمي

ذَهَبْتُ فِي أَوَّلِ رَحْلَةٍ لِي فِي عَمْرِي خَارِجَ سُورِيَّةَ، فَالْتَقَيْتُ أَحَدَ مَنْ وُصِفَ

(١) المازوخية: هي اضطراب نفسي، يمنع المريض من الشعور بأي متعة، إلا إذا كانت ممزوجة بالعذاب الجسدي أو النفسي، كالإهانة.

بالعلم، وأهداني مجموعة كبرى من كتبه، وفيها الشبهات مُحشَوَّة بكثافة، وكان من جملتها نفْي السحر عن رسول الله ﷺ، فرأيت الكلام غريباً مقنعاً، وأصبحتُ في حَيْرَةٍ من أمري، بين تكذيب حديث في صحيح البخاري، أو إصاق تُهْمَةٍ - حسب قناعاتي المؤقتة تلك - في أعظم رجل عرفه الناس ﷺ.

لم أجد طريقاً آخر، فذهبت ألجأ إلى بعض الشيوخ بحثاً عن طريق فَقَدْتُهُ، فراجعت الشيخ الأول، فكان جوابه كُثْلَةٌ تحطيم لي يَشُوبُهَا كَمٌّ من الألفاظ العَفِنَةِ، والعبارات البذيئة، مفادها: اترك مِن يدك هذه الكتب، فأنت ممن تَزَبَّبَ قبل أن يَتَحَصَّرَ^(١)، والعلم ليس بكثرة القراءة، ولكنه بكثرة الفهم، والرجوع إلى أهله.

وكان الشيخ ما درى أنني جئته لأني رأيت شبهة، وكان الواجب عليه أن يرحَّبَ بي، ويشجَّعني على الخير، ويقول: هذا الطريق هو الصحيح، أنعم وأكرم بعملك أيها الهمام النجيب، فقد لجأت إلى من هو أكبر منك بمجرد عرض الشبهة عليك، فتعال نتعاون على حلها.

لكن التوقُّع الوحيد الذي لا شريك له في نفسي إلى يومي هذا: أن الشيخ جاهل بالمسألة، فهرب من جهله إلى رمي التُّهم علي، ولو كان عنده جواب لجاد به ولم يَحْبِسْهُ.

مرَّت الأيام والسَّنُون، وأنا أراجع من توفر لدي من المشايخ واحداً تلو

(١) أي: صار زبيياً قبل أن يمر بمرحلة الحصرم، ثم العنب، وهي كناية عن النضج السلبي، أي: آكل طعام الكبار الذي هو سم للصغار.

الآخر، وبعض الناس يرد بالسخرية، وثان بالغضب، وثالث بالتهكُّم، ورابع يسألني بالله عليك: هل فتح الله لك بما لم يفتح على غيرك من العلماء؟ وأنا في حيرة من أمري أتهَيَّب من تخطئة صحيح البخاري، ولكن الهيبة الكبرى أن أنسب النقص لرسول الله ﷺ، ثم لَمَّا لم أجد جواباً مُقْنِعاً حكمت بكذب الحديث، وناجيت ربي: إلهي تكذيب حديث في «صحيح البخاري» أحبُّ إلَيَّ من نسبة العظائم لنبيك ﷺ.

حتى قَيَّض الله لي وأنا أقرأ على سيدي الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٢٩ هـ) رحمه الله، فمرت بي عبارة لها مناسبة للموضوع الذي أقلقني، فخطر ببالي أن أسأل الشيخ، فقلت في نفسي: إن الأساتذة الشباب لم تحمل عقولهم أن يردوا بجواب، فهل من الحكمة أن أسأل شيخاً تسعيناً هذا السؤال الغريب؟ أليس من المتوقع أن يرد علي الشيخ بجواب قاس يدمر العلاقة معي، ويطرّدني من درسه؟ فتجرأت قليلاً بعد حوار وحيرة في صدري، بيني وبين نفسي، وتلطّفت بالسؤال بعرض خفيف، وسألته: سيدي كيف نفهم الحديث الذي في البخاري، وفيه لفظ: «يُحَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلُهُ وَلَا يَأْتِي»^(١)، هل يعقل أن يصل النبي ﷺ إلى درجة لا يدري نفسه، هل جامع زوجه أم لا؟

إذا بالشيخ يُلْقِي بَحْنَان حُرُوفِهِ: لا يا ولدي، السحر كان جسدياً ولم يؤثر على العقل، فكان يُحَيَّلُ للنبي ﷺ أنه يستطيع الجماع، فإذا اقترب من أهله لم يجد القوة الجسدية على ذلك.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٠٦٣.

أزال شيخي الإشكال كله من صدري، فلم أملك زمام صوتي، وكأن النار قد اقتربت من حَفْنة بارود، صَحَّت بصوت رفيع: هكذا الجواب! فرد الشيخ: وإلا فماذا؟ قلت له: لقد أزلت إشكالاً من صدري كدت أن أياس من وجود محيب له.

وفتح الله علي ببركة جواب شيخي في حل باقي المسألة حرفاً حرفاً، حتى أكرمني الله بالعمل في تحقيق كتاب: «المواهب اللدنية» للإمام القسطلاني (ت: ٩٢٣ هـ) رحمه الله، فزال الإشكال بتمامه، ورأيت جواب شيخي مرة ثانية عند الإمام القسطلاني، وفي البحث حلٌّ لكل إشكال من القاضي عياض (ت: ٥٤٤ هـ) وغيره من الأئمة، رحمهم الله أجمعين، فحمدت الله تعالى على ذلك.

سوق قَمْع لأن البائع جاهل

كم عانى أهل طبقتي من القمع العلمي! فإن نسيْتُ فلن أنسى يوم جئت إلى أحد المدرسين، وسألته: ولكن السؤال ما كاد أن يغادر فمي من وَجَلِي وخوفي، وأنا أتوقع القمع والسخرية والتحقير والاستهزاء فأسال الكلمة، وأزج بجملة معترضة مفادها أنني أريد التعلم لا الاعتراض، ثم حرفاً ثانياً وجملة اعتراضية أخرى تبرئني من وَصمة الجريمة، ثم آخر وأنا أتهم عقلي وفهمي وأقرُّ بقصوري وقلة علمي، والسؤال بدون جُمْلٍ مُعْتَرِضة: هل في بعض مواقف سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَسَرُّعٌ فيما يظهر لنا؟ هل من حقِّ السائل عن دينه أن ينال التهديد من سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدل الجواب؟

هذا سؤالي الذي بقيت أتلعثم فيه دقائق طويلة، وَفَقَد السؤال حقيقته أو كاد من كثرة الجمل الاعتراضية، فما إن وصل تمام إشكالي إلى الشيخ حتى شد منزر

غضبه، وصاح بوجهي: من أنت أيها الحقير لتعترض على سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! وايم الله لم أعترض، ولكني تساءلت عن موقف أشكل علي، وأخرسني بطريقته التسلُّطية التي تثبَّتُ الشبهة عند أمثالي ولا تمحوها.

وتمر الأيام والليالي ولا يزال في قلبي السؤال: لم كان رد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الأعرابي المتعلم بهذا الأسلوب الفظ، أثبت هذا عن عمر الفاروق؟ أم للحادثة تنمة لم تذكر؟ أين الملابس المخفية؟ ثم يأتيني الجواب الشافي مجرد تحقيقي في المسألة كما يقال: أثبت العرش ثم انقُش، فبمجرد بحثي عن صحة القصة بدا لي أن القصة غير ثابتة أصلاً! بل كل القصص التي تثبت التسلط المشين، والتعالي المرفوض التي تنسب لفاروق الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما هي أكاذيب.

سبحان الله! أما كان يُوسَع ذاك الرجل أن يقول لي: لا أدري! أما آتاه الله لساناً يحيلني بجملة منه إلى صديق له عنده تحقيق في المسألة؟ إنه الكبر عن أن يقول الإنسان لا أدري، والانشغال عن البحث والدَّرس.

وسأختم الحديث بمحاضرة أخرى - وليست الأخيرة - وكنت قد التقيت أحد الباحثين، وله اشتغال في صحيح البخاري، مع عدااء كبير للرافضة، فسألته: كيف يروي البخاري في صحيحه عن بعض الرافضة، وهو القائل: جعلت الجامع الصحيح حجة بيني وبين الله؟ فأجابني: الرافضة لا كرامة لهم، ولا يسمح لرافضي خبيث الدُّبر - وعبارته أشد من هذه ولكني شَدَّبْتُها في كتابتها هنا - أن يروي عنه البخاري.

وكأن البخاري لم يكتب الصحيح، وهو الآن بصدد الاستشارة هل يروي عن الرافضة أو لا؟ أما الحاضرون فقد ضحكوا من شغاف قلوبهم لما

سمعوا هذا الجواب، وبقي السؤال عندي أبحث عن جواب مقنع له، حتى هداني الله له.

وهو أن مصطلح الرافضة الأول يختلف عما هو في زماننا اختلافاً كبيراً، فأولئك كانوا كالسنة تماماً ديناً وعلماً وتقوى، إلا أن قلوبهم مع سيدنا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث دار، ويرون تقديمه في الخلافة والمكانة على أبي بكر وعمر، ولا يكفّر أحدهم أحداً من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل يروون عنهم، ولا يسيئون إلى أمهات المؤمنين، فضلاً عن الرمي بالعرض، والإساءة إلى حضرة الحبيب ﷺ، أو تكون له عقائد زائفة، فمثل هذا الصنف، كان يُنعت بالرافضي كي يُتحرّى في روايته عندما يروي ما يوافق بدعته، لزيادة الثبّت، من أن يكون قد مال قلبه أحياناً ولم يحكم إنصافه.

ولئن سألتني: ما الذي دعا ذاك الباحث وأمثاله لمثل هذه المواقف المُحزّنة والأجوبة غير المقنعة؟ لأقولن: عَجَزَ عن الجواب، وفتور عن البحث والاستزادة، وكِبَرُ عن الاعتراف بعدم العلم، وقل رب زدني علماً.

فخذ - بالله عليك - كلامي مأخذ الجدّ، وقل فيما تعلم: هذا جوابي، والله أعلم، وإذا لم تعلم فاعتذر بالجهل، فإنه أهناً وأكرم لحياتك، وإياك واستعمال التسلط والبطش، فإن هذا كاللاصق المثبّت للشُبّهة.

بين التهويل والتهوين

من الدعاة من صوّر للناس أن أمر الكلام في الدين، والفتيا، والحكم على الحديث صحة أو ضعفاً، والكلام في الفكر، والعمل الإسلامي وغيره أمور سهلة، لا تخصصية، يستطيعها كل مسلم، ومنهم من صوّرها لطلبة العلم على

أنه باب مغلق مُوصَدٌّ، قد انتهى بموت آخر عالم قبل مئات السنين.

العلم قسمان: قسم للمتخصص، وقسم لكل طالب ومستفيد.

كنت أميناً لمكتبة إسلامية وفُفِيَّةٍ مرة، فأحببت أن أرتّب المكتبة بطريقة تخصّصيّة فَنِيَّةٍ فَدَّةٍ، فسألت عن متخصص في هذا الفن، فأشار الكل عليّ برَجُلٍ واحد، وأشادوا بعلمه وخبرته، فلما زرته عرضت عليه بلهفة شوقي لتعلم فن ترتيب المكتبات.

أشار بسبابته في وجهي قائلاً: اسمع يا أخي، إن كنت صاحب شهوة عابرة، تنهزم من التعلم بعد أول الطريق أو في منتصفه فلا تضيع عليّ وقتي. أجبت: وايم الحق إني لصادق الرغبة في هذا الفن.

أعاد علي: هل ستبقى إلى آخر المرحلة؟!

قلت: ليس من عادتي العبث وقطع العمل، فلا بد لكل مشروع اقتنعت به أن أمشي طريقه حتى نهايته.

الرجل: أثلجت صدري، لأن مُشْتَهِي التعلم كثير، ولكن الثابتين نادرون.

تابع كلامه: جاء ثلاثة نفر وتعاهدوا وتعاقدوا ألا يتركوا العلم حتى نهاية الطريق، ولكنهم انسحبوا وما وقّوا بعد أقل من عشر سنوات!

فتحت فمي دهشة، وقاطعته: وكم يستغرق تعلم فن ترتيب المكتبات إذن؟

الرجل: إن كنت تظن أنك تتعلمه في خمس سنوات، أو عشر سنوات، أو

أكثر فلا تخدع نفسك! فلان الوحيد الذي يلازمي منذ عشرين سنة، وما ملّ ولا كلّ ولا فلّ.

قاطعته أخرى: وما انتهى تعلمه!؟

الرجل: أوّه أوّه، هيهات أن يكون هذا، ما انتهى ولن ينتهي.

صدمته بجواب ذي حماس لا يقل عن حماسي الأول في طلب التعلم: سيدي: ظننت أن هذا العلم ينال في بضع جلسات خلال أسبوعين.

اأذن لي أن أصارحك بالاعتذار عن البدء بهذا المشروع!

لقد صدق من قال: «العلم نُقْطَةٌ، كَثَرَهَا الجاهلون»!

الشرع المحمدي بأكمله تم في ٢٣ سنة، ونزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

زرت أحد علماء باكستان وعمرى ٢٣ سنة في مكة المكرمة، فعرضت عليه أسئلة في الحديث الشريف: إذا به يَصْفَعُنِي بكلمة: أنصحك أن تترك العلم الشرعي وتلتفت إلى صنعة تطعمك الخبز الحلال، لأن العلم صعب المنال.

وفي المقابل: دعاة على أبواب الانحلال يصوِّرون للعالمي أنه أهل للاجتهاد ودراسة متون الحديث - لا أسانيدها - والحكم على الحديث من خلال نقد متنه! من خلال ذائقة عقله الفريدة!

لَقَدْ هُزِلْتُ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا كَلَاهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسٍ

يخاصمك الجاهل بكل يسر: وهل الدين حِكرٌ على الشيوخ؟
لا، عزيزي: العلم حِكرٌ على من تعلمه فقط، لكن لا يُسمَح لجاهله أن
يدخل حِمَاه.

وهنا تظهر سذاجة الداعي الذي يَشْغَل الناس بالأدلة، ويلقُّنهم دائماً:
«الراجح من قول أهل العلم كذا، والصحيح: كذا». حتى يُنتِج عوامٌ يقولون
بضلال من يقول بغير ما رَجَّحَ لهم زعيمهم، ويتولَّد من فكرهم براعم يقولون
بكفر من قال عكس القول المُتَبَيَّن. كما مر في عنوان: «سوق المزايدة»^(١).

فمتى تفقَّه في العلم بشروطه، ومنها:

١- تلقي الفن على متخصصٍ فيه تقِيّ

٢- تلقي الفن بتمامه وليس جزءاً منه

٣- خشية الله تعالى في الفتوى

فهذا الذي يحق له أن يفتي أو يشارك في الفن الذي توافر فيه هذه
الشروط، بشهادة من علَّمه، وإلا فاعرف أن صاحبه من أهل التَّهْوَر.

عَصْرِيَّةٌ لَا حَجَرِيَّةٌ

وأعني بالحَجَرِيَّة: القديمة، التي ترجع إلى العصر الحَجَرِي.

فمن العَصْرِيَّة ألا يشرح للطالب الصغير أنواع المياه السبعة، لأنه لا يرى
في أغلب الأوقات إلا ماء الصنبور، وإن سافر إلى مصيف ورأى ماء النهر أو

البحر تعلم ممن يعلم جواز الوضوء بذاك الماء، ومثله العدول عن تعليم الاستبراء بالحجر، وإنما بالطريقة العصرية السريعة، كالمناذيل فقط.

فكم درّس بعض أساتذة النحو: «السَّمْنُ مَنَوَانٌ بِدِرْهِمٍ؟»

ولم يعد في زماننا مَنَوَانٌ، ولا درهم؟

ولكنني أجزم بضرورة تعلم الأمور الفقهية بمخاديرها لمن يطلب التخصص، بخلاف من يتعلم أمور دينه وليس من أبناء التخصص، أو كان في بداية الطلب.

وكنت ذكرت في كتابي: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله»، أمثلة من شيخي الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٢٩ هـ) رحمه الله، غيّرَها من المعقّد إلى السّهل، أو البعيد إلى المشاهد، أو غير مفيد إلى مفيد، كما في قول بعض علماء التجويد: أحرف الإظهار مجموعة في قولك: «أخي هاك علماً حازه غير خاسر». استبدل بها قوله: «إن غاب عني حبيبي همّني خبره».

وقد درسنا في كتب التجويد أن أحرف الاستعلاء مجموعة في قولك: «خُصَّ ضَعُطٌ قَطٌّ»، لكن شيخنا استبدل بها أوائل كلمات قوله:

قَدْ طَالَ صَدُوكَ ظُلُمًا خَفُّ فِ ضِرَامٍ غَرَامِي

كنت ذات ليلة قمرية أَسْمُرُ مع شيخي الداعية الكبير الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٢ هـ) رحمه الله تعالى في مسجده مسجد الهدى في جُدَّة، وكعادة الشيخ لا يَمَلُّ من نثر الفوائد الجديدة، والحِكَم التوجيهية، فقال لي: لو كان الإمام الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله في وقتنا لحل مشكلة الشباب الأخلاقية،

ولما تحدث عن أدب المريد مع شيخه بما كتبه في عصره، لأنه كَتَبَ ما ناسب ذاك العصر، ولو أنه جاء إلى هذا العصر لكتب ما يعالج أمراضه.

وكان مرة في الأردن سنة: ١٤١١ هـ مع شيخه الداعية الكبير الشيخ عبد القادر عيسى (ت: ١٤١٢ هـ) رحمهما الله، وطلب الشيخ من المادح أن ينشد، فشرع ببيت لابن الفارض (ت: ٦٣٢ هـ) يقول:

هَنِيئًا لِأَهْلِ الدَّيْرِ كَمْ سَكِرُوا بِهَا وَمَا شَرِبُوا مِنْهَا وَلَكِنَّهُمْ هُمَا

فأوقف الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله المنشد قائلاً:

نحن مسلمون، لسنا من أهل الدير، ولا من أهل الخمر، قل مكانها: هنيئًا لأهل الذكر كم طربوا به، أو: هنيئًا لأهل الحب كم سَعِدُوا به.

قال شيخنا السَّقَّا فأردت استزادة الشيخ من هذه المعاني، فكلمته بما يَجُولُ في أعين بعض الحاضرين من التقليديين، الذين لا يرضون بتغيير حرف من قصيدة قيلت في وقتٍ فهمها أهلها.

فقلت للشيخ: هذا نظم ابن الفارض يا سيدي، فهل يعقل أن نكون أفهم منه؟

أجابه الشيخ بلحظتها: لو كان ناظمها في وقتنا لغيَّر المعنى إلى ما نقول.

وقد قالوا في تعريف البلاغة: «مطابقة الكلام لمقتضى الحال».

وبالبلاغة الدعوية: تحديث الناس بما يفيدهم في وقتهم، بلغة تناسب عقولهم.

فإن كانت كذلك فهي دعوة عصرية، وإن كانت بألفاظ القدامى وأمثلة

لا تليق بهذا العصر، بأن كان المثال الذي جيء به للتوضيح يحتاج إلى مزيد شرح وإيضاح، فاعلم أنها دعوة حَجَرِيَّة.

وهذا كله في تدريس العوام والمثقفين ثقافة شرعية تليق بمجآهم، لكنني أستاذني طالب العلم المتخصص، فهذا يتعين عليه دراسة الكتب القديمة كي لا ينقطع عن أسلافه، وعند اتصاله بالأقدمين وعيشه في الحاضر يكون قد جمع بين الأصالة والمعاصرة.

قتل الدين لدى الناس

إظهار اختلاف المدارس الفقهية حالة صحية بين المتخصصين والعامّة، مع عجنها بروح الشكر لله الذي جعل في الأمر فُسْحَة، أو دراسة أدلة كلا الفريقين دون إسقاط أحدهما أو الميل عليه، ولكن طرحها على العامة لترجيح رأي أو مذهب وإسقاط أخيه سَقْطَةً دعوية.

ومن خلال الذي يُشاهد يوميًا، تجد أن جُل العامة على أحد قسمين:

الأول: أن يقع العامي في الحيرة، ويصرّح بأنه لا يدري بأي الأقوال يأخذ؟

الثاني: أن يتبنى أحد القولين ويتحمس ويشغل لنصرته، فإن هذا إشغال له في غير تخصصه، وما لا يحسنه، وما وُجدت الاختلافات لِيَنْصُرَ بعضها على بعض هو وأمثاله.

لكن ما حال الذي يَذكر الآراء الفقهية للعلماء، ثم يرجح الراجح لديه، ويُسَفِّه غيره! حتى إذا انتسب إليه عامي، يحتاج غرس حب الله تعالى في قلبه إذا به ينقلب على عقبيه، وإما أن ينزل الدين من عينه، أو يحمل لواء الدفاع

عن الرأي الذي سمع أنه راجح، وما وَرَّطَهُ إِلَّا ذُو سَقَمٍ، حيث سحب البساط من تحت أكثر الأئمة، ووضعه تحت واحد فقط، وأسوؤهم: من جعل البساط تحته هو، فيكون قد نهى عن تقليد الأئمة وترجيحاتهم، ودعا إلى تقليده هو! هيهات أن تكون له العاقبة، لأنه «إِنْ كَانَ لَدَيْهِ دَلِيلٌ فَلِلْأَئِمَّةِ أَدْلَةٌ، وَإِنْ قَبْلَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ كَلَامُهُ فَلِلْأَئِمَّةِ مَحَلُّ إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ»^(١).

تَقْرِيزُ الْمَخَالَفِ

تكلّمت في نُتَفٍ من هذا الموضوع تحت عنوان: «التوازن الخطابي»، ولكنني سأحكي عن جوانب أخرى هنا:

لن أطيل في هذا الموضوع الحساس الذي كان من المفترض علينا أن نعيه في كل دروس حياتنا، ولكننا مع الأسف نقع فيه في كثير من مباحثنا، فعلى مستوى أسرة أهل السنة، وضمن الأسرة الكبيرة الواحدة ترى كلَّ حزب بما لديهم فرحون.

فمُدْرُسُ الجامعة يرى أن عمله سيدُ الأعمال، وربما استخفَّ بعمل الشيخ المربي المتفرغ القائم الساهر على تربية الناس، واستخفَّ بأهل الدعوة الذي يجوبون البلاد، ولكنه لو خالطهم لغير رأيه.

قيل للشيخ عبد القادر أرناؤوط (ت: ١٤٢٥ هـ) رحمه الله: إن الألباني (ت: ١٤٢٠ هـ) رحمه الله ليس طالب علم، فقال: لو وضعت أيَّ جاهل في

(١) هذه العبارة العبقرية من كلام شيخنا المحدث الشيخ نور الدين عتر رحمه الله وطيب ثراه، ذكرها في مقدمة كتابه «إعلام الأنام» ١: ٩.

مكتبة أربعين سنة وتركته يطالع لتعلم. وقد صدق، وشتان ما بين قولي: إن الألباني أخطأ في كذا وكذا، وعنده ضعف في كذا، وبين أن أقول: هو لا يفقه في العلم ذرة.

كان أحد الشيوخ المتعصبين للمذهب الحنفي يقول: كيف يجمع الشافعية بين الصلاتين في السفر، والله يقول في كتابه صريحاً: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

كان أحد متعصي المذهب الشافعي عندنا في حلب يسفُّ أقوال السادة الحنفية بصورة تشمئز منها النفوس، أراد أن يخفِّف دمه بنكتة سَمِجَة ثقيلة غثيثة، وكان يدرِّس طلبة العلم في مدرسة شرعية - مع كامل الأسف - فقال للطلاب: تعالوا فَلْأُصَلِّ لكم على المذهب الحنفي، هَبُوا أن الماء أمامي الآن، ثم مثَّل أنه يغسل رجليه، ثم يديه، ثم وجهه، ثم مسح رأسه، هكذا بدون ترتيب، ثم قال: كأن لدي الآن جِلْدَ كلب، مددته لأصلي عليه، فدخل في الصلاة بدون قراءة فاتحة، ولم يَطْمَئِنَّ في ركوع، وهكذا إلى أن وصل إلى نهاية الصلاة، وفي كل ركن يقول لهم: لا حاجة لقراءة كذا، ولا لفعل كذا، ولا طمأنينة، أما الخروج من الصلاة، فيكفي فيه إخراج الريح، ولن أستطيع أن أفعل هذا أمامكم، ثم سرد على آذانهم قولاً نابياً، يدل على حَقْدٍ متجذّر:

أَجَاؤُوا الْخُرُوجَ مِنَ الصَّلَاةِ بِضَرْطَةٍ فَأَيْنَ الضَّرَاطُ مِنَ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ

والطلبة المراهقون يضحكون ويتميلون، ولا عجب إذا كان المدرس بهذه الروح الخبيثة، ولا أشك قيد أنملة أن هذا قد يأتي بأمر تُخْرِجه من الملة عند الضحك، وإيراد بعض أمور الدين موردَ السخرية وخفة الدم.

سمعت رجلاً يذكر مسألة رؤية الله في الآخرة، وينقل أن المعتزلة ينفون ذلك، ثم قال: حجب الله تعالى كل معتزلي عن رؤيته يوم القيامة.

ولو ملك الشفقة في الدعوة إلى جانب العلم لدعا لكل معتزلي أن يرى الله في الآخرة، بدلاً من أن يدعو عليهم بالحرمان بعدما قرأ قوله تعالى في الكفار: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

ولو كان منصفاً غير مقلِّم لوجهة نظر إخوانه لقال: إنما أرادوا تنزيه الله تعالى، ولكننا نختلف معهم، لشبوت الأحاديث الصحيحة في ذلك.

نصراني حاورته فَهَزِمْتُ في هذا الحوار، رحم الله من كان سبباً في ورطتي، لقد قزَم في عيني شبهات النصارى، وما من إنسان يصعّر من رأي مخالفه إلا كان كلامه فتنة على من يكتشف الحقيقة، فَمَنْ تَقَوَّى بالعلم والبحث والمعرفة والإنصاف نجا، وإلا قُرِبَ قَتْلُهُ كانت على يد محب مغفل، لا حسود ولا مبغض.

تذاكرت مع شاب غيور يرى وجوب تغطية وجه المرأة في الشارع، ولكنه لا يرى أي وجهة لرأي السادة الحنفية والمالكية في جواز الكشف، فأحببت أن أبين رأيهم من خلال أدلتهم، فذكرت الحديث الذي وصف المرأة السائلة بقوله: «فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْخُدَّيْنِ»^(١). وسألت الشاب: وكيف عرفها الجالس أنها سَفْعَاءُ الْخُدَّيْنِ لو لم تكن سافرة الوجه؟ أجبني بكل ثقة: وأين الغيرة؟ قلت له: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه حاضر؟

(١) أخرجه مسلم برقم: ٨٨٧.

أجابني آخر: ليس في الحديث دليل أنه كان بعد الحجاب، فاحترمت رأيي، وشتان ما بين الجوابين.

كنّا في درس علمي، وكنا أطفالاً صغاراً، فسألنا المدرس: كيف ينكر بعض الناس الاستغاثة بالنبي ﷺ؟ فقال: هؤلاء ما قرؤوا القرآن، ألم يقل الله تعالى: ﴿فَاسْتَغِثْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥].

في كل هذه الحوادث المختصرة قاسم مشترك واحد، وهو: مسخ رأي المخالف، وتصويره على أنه هزيل لا قيمة له، وهذا التصور يُحدث ضربة قاصمة لمن استهان بخصمه إن فاجأ خصمه بضربة شديدة من الحُجَّة.

بقي أن أقول: في التعامل مع المخالف من أبناء جلدتك لا بد أن تكون على بصيرة بأن الله سيحاسب كل إنسان على وجهته: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا﴾ [الطلاق: ٧].

لكل وجهته التي يحاسبه الله عليها

فما عليك إلا إعدار الناس فيما هم عليه، وتقدير ضعف الضعفاء، فلنك وجهته يحاسبك الله تعالى عليها، ولهم اجتهادهم الذي يُسألون عنه، وما وكل الله حساب أحد إلى أحد غيره، فكم تسمع بين المغتربين اليوم الشقاق عند موت أحد في بلد فيه حاكم ظالم، فتهدب موجة يقول فيه بعض الناس:

- لا يجوز الترحم عليه.

- لم

- لأنه يعيش في أماكن الظالمين.

- هو ليس منافقًا.
- بل منافق، ألا ترى كيف حضر الحفل الفلاني؟
- من مِنَّا قادر على مجابهة الظالمين إن دعوهُ؟
- فليهاجر.
- هل وَجْهَتُكَ في الهجرة محترمة، ووجهته في الرباط في أرضه مخالفة لله ورسوله؟
- وهكذا لا تنتهي النقاشات، ومَرَدُّ هذا كله إلى عدم إعدار بعضنا، وفرح كل حزب بما لديه.

أدب لا يريده الله!

- من أدوائنا التي نكثر استعمالها الطرد، وهذا علاج جاهلي في نظري، فقد قال أبو إبراهيم لإبراهيم: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، وقد أَلَفَ الحافظ السيد عبد الله بن الصديق الغماري (ت: ١٤١٣ هـ) رحمه الله رسالة سماها: «التَّفَحُّةُ الذَّكِيَّةُ فِي أَنَّ الْهَجْرَ بِدْعَةٌ شَرِكِيَّةٌ».

وعندما لم يستطع المصطفى ﷺ أن يرى قاتل عمه حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يطرده، ولم يَرُدِّ إسلامه، إنما قال له: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّبَ وَجْهَكَ عَنِّي؟»^(١)،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٠٧٢، وانظر الروايات التي سردها الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» ٧: ٣٧٠، وفي الروايات التي سردها ابن حجر عبارة صريحة أن هذا الكلام عند إسلام وحشي، بخلاف ما ادعاه بعض من أَلَفَ في السيرة، فزعم أن هذا الكلام من رسول الله ﷺ كان عندما وفد وحشي مع قومه، فطلب منه أن يغيب وجهه عنه، وأما عندما أسلم فلم يطلب منه ذلك، وهو كلام خطأ.

فما أكثر استعمالنا للطرد؟.

- لا أعرف حديثًا واحدًا يذكر أن النبي ﷺ أخرج مسلمًا من المسجد! فما بال بعضنا يُخرج الطفل، وثنٍ يُخرج المخالف، وثالثٌ يخرج سائلًا، ورابع، وخامس.

لا تتعذر بأي عذر، فقد مر بالنبي ﷺ أشد أنواع بلايا الناس، ولا أشد من المنافقين، الذين يقفون معه، ويصلون معه، ويُبطنون الكفر ويُظهرون الإيمان، فكيف عاملهم! ثم تأمل أنك: قد تُخرج الطفل من المسجد اليوم، ثم تفرش له الأرض ورودًا ليدخل المسجد غدًا فلا يستجيب، ولا سيما إذا صار فاسدًا ذا نُفوذ، فهيهات أن تهديه!

مزايمة لا يحبها الخالق

قال لي شيخي الجليل المحدث الشيخ محمد سعيد بادنجكي (ت: ١٤٣٤ هـ) رحمه الله: لا يُمدح بالأكاذيب والأباطيل إلا البضاعة المغشوشة، فكيف يرضى بعض الناس أن يمدح المصطفى ﷺ بالأكاذيب؟ أليس عندنا في القرآن والسنة الصحيحة ما يكفي لمدحه؟ فلم اللجوء إلى الأباطيل؟

- نقل أخ كريم أبيات شعر للشيخ يوسف النبهاني (ت: ١٣٥٠ هـ) رحمه الله فيها قوله:

عَلَى رَأْسِ هَذَا الْكَوْنِ نَعْلُ مُحَمَّدٍ عَلَتْ فَجَمِيعُ الْخَلْقِ تَحْتَ ظِلَالِهِ

أنكرت ذلك وقلت: هذا ليس بصحيح، ولم يرد في ذلك شيء، فلم التَّقُولُ عليه ما لم يقله عن نفسه ﷺ؟

رد علي محب لا يُدَقِّقُ في مدح حبيبه ﷺ: الأصل أن كل إنسان يلبس الحذاء عند الخروج من بيته، والنبي ﷺ خرج من بيته نحو المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى، ثم عُرج به، وما دام أنه لم يرد الأمر بالخلع، فمعناها أنه قابل ربه وهو لا بس التعلين!

قلت: وهل هذا مدح للنبي ﷺ أنه رأى ربه وهو منتعل؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! لم أجرؤ على إكمال الحوار، وقلت في نفسي: لو تصورت إنسانًا يمدح آخر، وقد دخل على رئيس من رؤساء الدنيا، ورَكَزَ الحديث على قوله: لقد زار الرئيس وهو منتعل، أيكون الكلام مدحًا للمنتعل؟ أم ذمًا للرئيس؟

وكم في أناشيدنا التي نترنم بها في المجالس من سَمِج الحديث الموضوع، والمبالغات القاتلة، بل بلغ بنا المبلغ أن ينظم العامي المسكين قصيدة، ويخلِط فيها ما يشاء من موضوعات الحديث، وقصص الخيال، وسَمِج الأخبار، وبارد المدح، ثم يذهب بعض العلماء يمنة ويسرة كي يبرِّروا الكلام، أو يُلَوُّوا عنقه ليُقبَل، وأقبح الأجوبة وأسرعها أن تسمع قول بعضهم: «لا تعترض على أهل الله»، ومتى أُلصِقَ هذا العامي الفقير في العلم بأهل الله تعالى؟ وهب أنه من الصالحين الصَّوَّامين القَوَّامين، ولكن الحكم على العبارة جوازًا وعدمه يُرجع فيه إلى العلماء، وليس إلى الصالحين، بل المرجع فيه العالم المتخصص في العلم، لأن المسألة العقديَّة لا يُفتي بها المحدث، ولكن يُفتي بها العقدي.

سمعت أنشودة مَن أَحْقَرَ صلاتي بصلاته، وقيامي بقيامه، ولكنه يعيش في الدَّرَك الأسفل من الجهل والعامية، والثَقَلَة العليا من العبادة والتنسك، ويقول في الأنشودة مخاطبًا الله تعالى:

أَنْتَ عَيْنِي أَنْتَ رُوحِي أَنْتَ قَلْبِي أَنْتَ ذَاتِي

سارعت بالإنكار فسارع جليسي بالسبِّ عليّ، وقال: أَنْتَ أَتَقِي أم
فلان الناظم؟

أجزم أن هذا العامي التقيّ المُفْلِس علمياً كان على عقيدة التوحيد، وما
سمع في حياته بانحراف اسمه: الحلول والاتحاد، ولكنه أراد الخير وما وُقِّعَ له.
فهل يباح لمن يعرف هذا الخطأ في الكلام أو الانحراف في القول أن
يَسْكُت.

عرّف السامع أنه سلعة غالية

جلست وخليلي في روضة من رياض الجنة، يرتع فيها كل محب لله تعالى،
فتذاكرنا أحوال شيوخنا الذين بنوا فكرنا، وأنشؤوا علمنا، وُجِّتْ أصواتهم في
صناعة شخصيتنا.

سألته: من أفضل مُدَرِّسٍ قد تأثرت به؟

أجابني: فلان.

قلت: ثم أي؟ فأعاد الاسم نفسه.

قلت: ثم أي؟ فكرر الاسم نفسه وقد حَقَّ بورود الألقاب، وياسمين
الثناء.

وافقته بكل ذراقي، وبدأ شَدُّ الحديث وجَذْبُهُ بيننا عن سرِّ نجاح ذاك
المعلم والمربي والشيخ، ولم ينكر أحدنا أن توفيق الله تعالى كان يَحْقُقُهُ من كل

جانب، والشيخ مغموس بل معجون بالتزكية، فهو الذي لا يرى نفسه شيئاً مذكوراً، ولا يرى حاله أهلاً للوقوف بين يدي كتاب العلم لِيَعْلَمَ، وفي المقابل يقدّر الطالب ويراه شيئاً عظيماً، ومشروعاً ضخماً، وأمةً سيقود العالم.

فتحت الحاسب لأكتب أهم صفات ذاك المربي وكتبت عدة أسطر من عصف الذهن وعَصْرُ الذاكرة من كَلِينَا.

لكنني أوقفته وأوقفني، وأجمعنا على أن أهم صفة كانت في شيخنا رؤيته واقتناعه الداخلي أن الشباب الذين أمامه جبال المستقبل، فهو يقدّم ما عنده من علم بأكمل إخلاص، وأكبر تَقَانٍ، وأعظم صورة، وأنصع خطاب، ويتجاوز بل لا يرى الزلل والخلل من الطلاب أحياناً.

ولكنني دمعت عينايا قبل أيام وأنا أستمع إلى فيديو صنعه مسكين من مساكين الدعوة، حيث نزل إلى شباب يقفون في الشارع وسأل كل واحد أسئلة، كان منها:

كيف تعاكس - والمعاكسة: هو التحرُّش الكلامي بالفتاة - البنت إن رأيتها في الشارع وأعجبتك؟ فيضحك الشاب ويقول: بطريقة كذا.

فيسأله: ما أركان الإيمان؟ فيسكت الشاب!

ثم يسأل الذي بعده: كيف تراسل البنت عبر النت؟ ويُعَقِّبُهُ بسؤال: ما سورة الإخلاص؟

وما أشبهَ هذا السائل بخطيب جمعةٍ عاميٍّ، تسلَّق المنبر نصباً واحتيلاً ونشلاً، وجعل يعتمد على الغرائب والطرائف وما يشدُّ أنظار العوام.

فيسأل وهو على المنبر: من منكم يعرف فلانًا من اللاعبين؟ ويكون أحد من ذاع صيته في تلك الحقبة؟ فيشير إليه بعضهم أنا.

فيسأله: وماذا تعرف عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

هذه طريقة التوريط للعباد، ومنبعها الأساسي الشعور الداخلي أن الناس لا يفهمون، وأنه أعلم وأفهم وأرقى.

ولو أنني كنت قربه لقلت له: ليس على العامي وجوب حفظ أركان الإيمان سرًا كما وردت في الحديث الشريف، ومن قال لك: كل أعرابي آمن برسول الله ﷺ حفظ أركان الإيمان يسردها كسردها في حديث جبريل^(١)؟

لو كنت عنده لسألت السؤال بطريقة المساندة: وقلت له: أركان الإيمان ستة:

الإيمان بالله، والملائكة، والكتب السماوية، والرسل أجمعين، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

أأست مؤمنًا بالله؟ سيكون جوابه: بلى.

أأست مؤمنًا برسوله ﷺ؟ سيكون جوابه: بلى.

أأست كذا! أأست كذا! حتى يطلع فجرُ إيمانه على محياه، ويعتزّ بدينه.

(١) إشارة إلى حديث سؤال سيدنا جبريل، لما أتى إلى النبي ﷺ، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، وكان جواب الحبيب ﷺ لما سأله عن الإيمان: قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». أخرجه مسلم برقم: ٨.

صَبَرَ عَلَيَّ صَدِيقِي ثُمَّ قَالَ: وَمَا أُحْيَلِي أَسْلُوبَ الْخَطِيبِ فَلَان!
قلت: حدثني، بالله عليك!

قال: شحن الموقف مخاطبًا المصلين يوم الجمعة بقوله: أيها المؤمنون حقًا،
يا من تركتم اللهو وأتيتم تَلْبُؤَنَ نداء الله تعالى، يا من استَظْهَرَتِ العمل والمتع
وَحَضَرَتِ لَتَغْتَرِفَ من الرحمات الإلهية، أدلُّ دليل على إيمانكم أنكم لم
تُلْهِكُمْ تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى.

لقد مدح الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

فإن كنت داعيًا فلا تنظر لعباد الله المسلمين إلا على أنهم عظماء، ولن
تُنَزَّعَ العظمة من قلبٍ سَكَنَتْ فيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وإن كنت
تدعو غير مسلم فلا تنظر إليه إلا نظرة المنقذ من الغرق، فليس المنقذ الناجح
من تحت المياه من يحاضر في الغريق بتسفيهه، ولا التعالي عليه بمعرفته في
العم والسباحة، ولكنه الذي يأخذ يده ويرفعه، ويعطيه الأكسجين ليعيش،
فالكافرون غرق، والداعية منقذ يسحب الهلكي إلى الحياة.

ولا يحزنك تهديدُهم

إن من الدعاة من يُدَارِي المدعويين إلى آخر حدٍّ، وهذا مقبول إن كانت
المُداراةُ تُؤْتِي أَكْلَهَا كل حين يأذن ربها ولو بخطوات بطيئة، أما أن يصل الأمر
إلى تنازل الداعي، وثبات المدعو فهذا غير مرضيٍّ ولا معقول غالبًا.

تخاصم أب وولده المراهقان، وعلم بذلك صديق الأب، فرقَّ لصديقه، ثم

غاب فترة عن حبيبته، فلما التقيا سأله: كيف العلاقة بينك وبين وَلَدَيْكَ؟
أجابه: الحمد لله أحسن بكثير.

تهلّل وجهه وقال: إذن أبنائك في طريق التحسّن.

الأب: بكل أسف، بل أنا الذي اهتمت على أيديهم، فهم ثابتون، وأنا
أُتغيّر حيث أريدوا، وأجاهد نفسي وأُغيّر إلى رغبتيهما، فالحمد لله الذي
هداني على أيديهما - تَهَكُّمٌ مؤسف -.

جاء مُطربٌ موسيقي كبير إلى مجلس أحد العلماء، فأشاع أحد العامة أنه
ما أتى إلا ليتوب على يد الشيخ، وبعد فترة وجيزة عمل الشيخ عرس ولده،
وأتى بهذا المطرب ليحيي حفل ابنه بالموسيقى، فمازحني خالي الأستاذ عاطف
ببيانوني حفظه الله قائلاً: «كانت الدعوى أن المطرب سيتوب على يد الشيخ،
والحاصل أن الشيخ تاب على يد المطرب».

قال لي صديقي: أنا أعمل على تخفيف غلواء بعض الشباب السلفيين
حولِي.

قلت: كيف؟ وأنا أراك المتواضع الذليل بين أيديهم؟ أنت تستشهد لهم
بأقوال ابن باز (ت: ١٤٢٠ هـ)، فهل تقدر أن تصرح لهم بحرف من كلام
الكوثري (ت: ١٣٧١ هـ)؟

وتستشهد لهم بأقوال ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ)، فهل أنت قادر على
الاعتباس بحرف من أقوال السيد الرفاعي (ت: ٥٧٨ هـ) رحمهم الله جميعاً؟
الواقع: أنت مدعو بالنسبة لهم، فهم المرئون لك، والذين يُسَطِّرون لك خط

مشيك، فلا تتجاوزهُ في صغيرة ولا كبيرة.

تخفيف الحدة يكون عندما تتحمل عقولهم أن يُستدل بقول المخالف لهم فيما ذهبوا إليه، فلا ينقضي عجبهم منهم، وهم الذين يستدلون بأقوال الأخطل النصراني في اللغة، ولا يرون الاستشهاد بكلام مخالفهم.

عندما يطرح المربي أمام طلابه ما يوافقهم، ويكتم ما يخالفهم فهو المُرَبِّي بين أيديهم لا العكس، لأنهم يصرحون أمامه بكل أفكارهم، أما هو فمُتَسَلِّط عليه، مكتوم على أنفاسه، لا يَنبِس ببنت شفة إلا بما يروق لهم.

قلت لصديقي: لا خير في دعوة مَنْ هم المرئُون لك، وهم الذين يصرحون بمخالفتك، ولا تستطيع مخالفتهم ذرة.

أجابني: لكنني أحافظ على قدر تعصبهم وانحرافهم كي لا يزدوا، وقد جربت البعد عنهم فازدادوا بعدًا وسحقًا.

قلت: إذن أوافقك.

الطريق الأوعر هو المؤدي إلى النجاة

تتخاطف الداعي طريقان:

١- طريق مريح سهل يسير لا مخاطر فيه ولا معارضات، وهو الأسهل على النفس، الأقل للنفع.

٢- طريق صعب فيه المكابدة، ولكنه يوصل إلى نتيجة أجود.

مثلاً: إن في تدريس العوام، والتدريس الجامعي لمحاسن ومساوئ، ولن

يخلو طريق من كليهما، ولكن طريق دعوة التَّخَبِّ والمثقفين والبيئة الأكاديمية سوؤها أقل، وخيرها أقل، وبيئة العوام سوؤها كبير، وخيرها أكبر، ولكن ماذا لو خيّر الداعي بين أمرين:

الأول: التدريس الجامعي، والجلوس على منصات المناقشات العلمية، ومجالسة الأكاديميين ورفعة القوم، والعُكُوفُ على البحوث ومناقشتها، وفي نهاية الشهر يكون مرتبه عاليًا.

والثاني: العمل مع العوام، والتعب والنصب، والبعد - ولو جزئيًا - عن الجو الجامعي الهادئ، والخلطة بالأكاديميين، فهو الجو الذي تكثر فيه القلاقل، وحل مشكلات الناس، وربما يسمع كلمة الذمّ عقب حل مشكلات الناس، وقد يُتهم.

أظن أن نفس الداعي الأكاديمي المؤهل للتدريس في السلك الأكاديمي سيؤثر الأول، وينفر من الثاني.

أولاً: لي عتبُ الأخ المحبّ على كثير من إخواني الأكاديميين، ولا سيما من يعيش وليس له في السنة كلها لقاء دوري مع العوام، فهو يعيش في جو غير جوههم، ولا يشعر بكثير من مكابدتهم، ولا يذوق همومهم، كما لي العتب نفسه على كثير من الشيوخ المتفرغين للعوام، الذين ينفقون أوقاتهم ونفائسها مع العوام، فيكتفي أحدهم بما اكتسبه قديمًا من العلم، ويتعد عن مجالس الأكاديميين، وينخفض مستوى المعرفة عنده، ويخف مستوى حديثه، فهو دائم التيسير للعوام، حتى انحدر مستوى حديثه دون أن يشعر.

والصواب ما عليه عدد من شيوخه: فبعضهم يدرس في الجامعات، وله

دروس وعظيَّة للعوام، ولو كان لأسرته وأهل بيته، وبعضهم لا يدرِّس في جامعة ولكن طلبة الجامعة يأتون ناديه، ويلتقيهم لقاءً دوريًّا، وله مواعيد دائمة مع الأكاديميين، ويتابع المستجد من المطبوعات، والحديث من البحوث.

وبعضهم هو في الأصل شيخ مسجد وتربية، ثم نال الشهادات الأكاديمية العليا، وقد جمع بين الحُسنيين، فهذا غاية المنتهى، وأسمى المراتب.





القيادة الدعوية



لا جماعة بدون قائد

أَعْجَبُ حَدِيثٍ أَحْفَظُهُ فِي تَقْرِيرِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْتُمُونَ». قالوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «فُوا بِنَبِيِّهِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْظَوْهُمْ حَقَّهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ»^(١).

ومن عظيم حرص الإسلام على وجود القيادة أن الله تعالى أنزل آيات تثلى في ذلك، وأمر بالسمع والطاعة لها، فلقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]: «نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسٍ بْنِ عَدِيٍّ، إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ»^(٢). أي: تحض المؤمنين على السمع والطاعة للأمر.

ألا تشعر بعظم أمر القيادة في نظر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عندما تركوا جثمان المصطفى ﷺ عقب وفاته من يوم الاثنين، إلى الأربعاء، فما تم دفنه بأبي وأمي حتى بايعوا خليفة يقودهم!

أقسام الناس إلى قادة وأتباع ومخربين

أكثر الناس على قسمين، ويندر الثالث والرابع:

الأول: جندي تابع، وهم السواد الأعظم، وهذا الوصف ليس بتعير ولا

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٥٥، ومسلم برقم: ١٨٤٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٨٤، ومسلم برقم: ١٨٣٤.

عيب، والإنسان ربما يكون قياديًا في مكان، ومن الدّهماء العامة في آخر، كقيادي الدعوة، هو من الدّهماء العامة في علم الطب، وعكسه من كان قياديًا في الطب، لكنه من العامة في الدعوة.

الثاني: قائد.

الثالث: من ينجح في الجُنْدِيَّة والقيادة حيث وُجد، وهؤلاء صاعقة قِلَّة، أعجوبة، يُعْصُّ عليهم بالنواجد، وأُقدِّرُ نسبتهم بـ ١ في ١٠٠٠.

الرابع: وهو شَرُّها وأسوؤها: وهو العنصر التابع، العصيُّ على الانقياد، وهو عنصر إفساد وجَرٍّ للوراء، فهو مثبِّطٌ محبِّطٌ سلبِيٌّ، متى وُجد زادَ الناسَ خبالًا.

ثم إن في الجند مَنْ يجلس آخر الركب وهو راض، وهو القيادي الفدّ، يدعم عمل القائد من موضعه، وربما كان أثره أقوى من القائد، لأنه جندي يعيش مع الجند، وينفذ أوامر القيادة، فلا يَتَّهم بالنفع من بعض الجند.

لكن ليس من المرض في شيء أن ينشر القائد أنيابه إن احتُقر أو استُصْغِرَ مِنْ قِبَلِ بعض التابعين، أو شعر بالمزايدة عليه مِمَّنْ هو أقل منه، كما حصل لسيدنا حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لما قال له رجل:

لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حَذِيفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذْتَنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَفُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَّنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَّنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ

يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، فَسَكَنَّا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «فُمْ يَا حَذِيفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «أَذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أُمْثِي فِي حِمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أُمْثِي فِي مِثْلِ الْحِمَامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَعْتُ قُرْرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يَصْلِي فِيهَا، فَلَمْ أَرَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «فُمْ يَا نَوْمَانُ»^(٢).

وما أجمل موقف الحبيب ﷺ - وكلُّ مواقفه جمالٌ في كمالٍ - وذلك فيما جاء في الصحيح: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ااعْدِلْ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خَبِتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»^(٣).

وَجَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ أَنَّهُ قَالَ: خَطَبَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَوْمًا بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَبَدَتِ التُّجُومُ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ:

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧٨٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٦١٠، ومسلم برقم: ١٠٦٤، وما أبعد دلالة لفظ: «وَيْلَكَ»، فهي كلمة عذاب، من الويل، بخلاف قولك: «وَيْلُكَ»: فهي كلمة رحمة تقال عند الإكرام.

الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، لَا يَفْتَرُ، وَلَا يَنْثِي: الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَتُعَلِّمُنِي بِالسُّنَّةِ؟ لَا أُمُّ لَكَ^(١).

القائد الفذُّ

لقد قالوا: القادة ثلاثة أنواع:

الأول: يَقُودُ، وَيُقَادُ، ويتعامل مع القادة.

الثاني: يَقُودُ، وَلَا يُقَادُ، ويتعامل مع القادة.

والثالث: يَقُودُ، وَلَا يُقَادُ، ولا يتعامل مع القادة.

وهم في الأفضلية على نهج الترتيب المذكور، فأفضلهم أولهم، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه.

لقد خاطب النبي ﷺ هرقل بقوله: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»^(٢).

أما يَسَعُهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ اللفظ الذي نَظَرْتُ لَهُ، وَتَرْتَفِعُ أَصَوَاتُنَا عَلَى الْمَنَابِرِ بِهَجَةٍ بِهِ، وَنَهْتَزُ طَرَبًا لِسَمَاعِهِ: إِلَى هِرَقْلَ كَلْبِ الرُّومِ؟ أَمَا تُنْسَبُ هَذِهِ الْعِبَارَةُ إِلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ؟ أَفَكَانَ هَارُونَ أَحْكَمَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَصَرُّفًا؟ أَمْ كَانَ لِحَالَةِ خَاصَّةٍ اقْتَضَتْ الْحِنَكَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ الْكَلَامَ بِهَذِهِ اللَّغَةِ؟

إِنْ ظَنَّنِي فِي قِصَّةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ - إِنْ صَحَّتْ عَنْهُ - أَنَّهَا خُطَابٌ عَسْكَرِي

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم: ٧٠٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤، ومسلم برقم: ١٧٦.

وليست خطاباً دعوياً، وهو للتَّهْدِيدِ والزَّجْر، لا التحبيب والتقريب.

دعوني من الظُّنون، فَلْيُعْرِفْ أَنَّهُ ﷺ لم يكتف بمن هم عدوه فقط، إنما خاطب بعبارات الاعتراف بالفضل أعزُّ أحابيه من شركائه، ثم طلابه، ومن هم حسنةٌ من حسناته.

أما الشركاء: فما أروع تصويره ﷺ نفسه أنه لَبِنَةٌ واحدة ضمن منظومة من اللبنات؟ أبقى بعد هذا الاعتراف بشركائه أبدعُ من هذا الاعتراف؟ قد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبْنَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبْنَةِ، جِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ»^(١).

وأما الطلاب والأصحاب: فلقد قال بأبي وأمي ﷺ: «فعلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَصُوا عَلَيْهَا بِالتَّوَّاجِدِ»^(٢).

الفرق في القيادة بين من تقدم ومن قُدِّم

في القيادة الدعوية: هناك الداعي الذي صنع مجده بنفسه، والآخر الذي صنعه أمور أخرى.

والأول: هو من تعب على نفسه، وله اجتهد كبير، وبصمة واضحة، فَتَفَتَّحَتْ لَهُ الْفُرْصُ، كأن يطلب منه التدريس في المسجد الكبير، أو

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٣٤، ومسلم برقم: ٢٢٩١.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٢٦٧٦، وقال: «حديث حسن صحيح».

تستدعيه القنوات الفضائية لتألقه وجهوده.

أما الآخر: فله صور عدة: كأن يكون ابنَ وجيه وعالم، أو توجَّهت إليه أيدٍ فأظهرته في قناة فضائية، أو وصل إلى مؤسسة قائمة فعُيِّن على رأسها، أو قرَّبه صاحب نفوذ وقلَّده منصباً رفيعاً، فاشتھر بين الناس.

وهذا التفريق بينهما يفيد عند العلاج من الشذوذ، وذلك ليعلم الصديق الذي شدَّ عن الطريق، من العدو الذي صنعه العدو وسوّقه وأظهره ليبت سُمومه، ويؤدي رسالة تُطلب منه.

أهم أعمال القائد

ولئن سألتني عن أهم أعمال القائد لَخَصْتُهَا لك في أمور:

١- الحسم بالقرار بعد الشورى.

قال الله تعالى لقائدنا وسيدنا محمد ﷺ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

لقد كان من أساس بدهيات قيادة الحبيب ﷺ أنه يستشير أصحابه في الأمور العظيمة التي تُهمُّ الأمة، ففي غزوة بدر شاور الجنود في لقاء العدو، وفي مكان اللقاء أخذ بآرائهم، وفي غزوة أُحُدٍ شاور صحبه، بل في أموره الشخصية التي تعدَّت الشخصية إلى الرأي العام كمسألة الإفك شاور فيها كل معنيٍّ، من خادمة، وإنسان لصيق، وحكيم، وبعيد نظر.

لكن حسم الرأي بعد الشورى هو الخاتم بالمسك، فالذي يُشاور كثيراً، ولكن الذي يرجح ويمضي ويجعل القرار مستقرًا ويقتل آثار البلبلة في الناس قليل، وهذا هو القائد الناجح.

٢- الإقدام أمام أعين الركب.

وما أجمل القائد الذي يدير أكبر معركة وهو في عَرِيْشِهِ، وإن احمرَّت الحَدَقُ كان أقربَ الجند إلى العدو! وما أعظم القائد الذي يطلب حفر الخندق وهو معهم، بل أخذ لنفسه الأماكن التي يعجز عنها سائر الرجال، وما أكبره عندما يصرُحُ في خطبة الوداع بقوله مع فعله: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَائِي مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دِمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلْتُهُ هَذِيلٌ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبَا أَضَعُ رَبَانًا: رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(١).

٣- لَمْ شَعَثِ الرَّعِيَّةَ، وَتَأْلَيْفُ قُلُوبِهِمْ.

روي عند ابن المبارك في كتاب الجهاد^(٢): عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَعَدَا الْجَيْشُ، وَأَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِيَشْهَدَ الصَّلَاةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ قَالَ: «يَا بَنِي رَوَاحَةَ، أَلَمْ تَكُنْ فِي الْجَيْشِ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَشْهَدَ الصَّلَاةَ مَعَكَ، وَقَدْ عَلِمْتُ مَنْزِلَهُمْ فَأَرْوَحُ وَأُدْرِكُهُمْ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٢١٨.

(٢) برقم: ١٤.

فِي يَدِهِ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا أَدْرَكْتَ فَضْلَ غَدَوْتِهِمْ».

وهذا الحديث عند الترمذي مروي أيضاً، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قال: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فِي سَرِيَّةٍ فَوَافَقَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَعَدَا أَصْحَابُهُ فَقَالَ: أَتَخَلَّفُ فَأُصَلِّيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَلَمَّا صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَاهُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَغْدُوَ مَعَ أَصْحَابِكَ؟» فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَصَلِّيَ مَعَكَ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ قَالَ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَدْرَكْتَ فَضْلَ غَدَوْتِهِمْ»^(١).

وهكذا كانت قيادة الحبيب ﷺ، فإنه القائد والمُشْرِفُ عَلَى السَّرِيَّةِ، وليس لأحد من الجند أن يتخلف عن الجماعة لأسباب عاطفية، فَمَعَ شدة لُطْفِ النبي ﷺ وقد علم أن سبب تخلف ابن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَحَرُّكُ لَوَاعِجِ شَوْقِهِ لوداع حبيبه ﷺ، وليكون آخر العهد بالمدينة حضورَ خطبة المصطفى ﷺ ورؤية جمال طلعتة، ومع هذه التقديرات كلها فقد خاطبه بعبارة توجب إعادة النظر بهذه العاطفة، فإنها لم تشفع في تخلف أحد الركب عن جماعته.

القائد الأعلى يعين القيادي والتنفيذي

اعرف كيف تُكَلِّفُ الدعاة، فبعضهم قيادي، وبعضهم تنفيذي، والتنفيذي إذا وضعته في موضع القيادة شَدَّ الرَّكْبَ كُلَّهُ إِلَى الْوَرَاءِ، كما أن عمل القيادي في التَّنْفِيزِ يكسر القوانين واللوائح النازمة للعمل في أعين الناس أحياناً، وَيُهَوِّنُ فِي أَعْيُنِهِمْ مَا يَعِدُونَهُ تَجَاوِزًا.

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٥٢٧، وقال: «حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه».

والحكمة فرز كل متخصّص حيث يحسن من العمل والخبرة، ولا فضل للقيادة على التنفيذ، كما لا عكس.

فرض القيادة الجزئية على التنفيذي

وتفويض القيادي بعض المهام إلى المنقذ أمر حسن، على أن يبقى زمام القيادة في يد القائد، والتنفيذ بيد المنقذ، مع تجبّوّة من المساحة بين يدي إنجاز المهمة، ولكن أكبر خطأ في القيادي أن يتوهّم القيادة في المنقذ، فيفوضه من غير تقييد، ومن غير رسم كامل، ويتوهّم أنّه يكفيه بيان الخطّ العريض الأكبر، ولو كان كذلك لكان قيادياً، ولما احتاج إليه.

وكم في قادة الدعوة من تعب نفسياً من سلوك المنقذين تحت يده، لأنّه يتوهّم أنّهم أهل للتفويض المطلق، وأكثرهم لا يحسنون ذلك، فعقلهم التنفيذي لا يعرف إلا تطبيق الأوامر المطلوبة بالحدّافير، والقائد يقيسهم على طريقة عقله في القيادة، وربما كان التنفيذي قيادياً، وهذا يصلح منقذاً تحت يد القائد، ويبدع أكثر من التنفيذي الصّرف، ولكنه رجل نادر، ما أقله!

القائد لا يترك مكانه شاغراً

ولقد اشتدّ المرض بمولانا رسول الله بأبي وأمي ﷺ فلم يترك المكان شاغراً، ولم يشغل بنفسه ومرضه ويترك مكان اجتماع الأمة فارغاً بغير قائد، فقد جاء في الحديث: لَمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ قِيلَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٨٢.

وظني أن لو تَرَكَ المكان فارغًا لاجتمع المسلمون وسدُّوا الثَّغْرَ، ولن يجتمع المسلمون في المسجد النبوي ثم ينفضوا دون صلاة، وسيتقدَّم أحدهم للإمامة لا محالة، ولكن سيد القادة ﷺ لم يرض أن يعيش المسلمون ولو لِلحَظَّات دون قيادة، أو أن تدخل بينهم المجادلات غير المجدية، ولكنه حسم الموضوع من أصله، وعيَّن القائد مكانه ليؤم الناس.

بل القائد ﷺ لا يترك مكانًا بعيدًا عنه بغير قيادة، فقد جاء في حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرَنَا، قَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَاقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَذَكَرْ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدَكُمْ، وَلْيُؤَمِّمْكُمْ أَكْبَرُكُمْ»^(١).

وإني لأعرف في الشيوخ والدعاة مَنْ إذا سافر تعطلت دروسه وأنشطته الدعوية برمتها حتى يرجع، كما أعرف من لا يوقف درسًا ولا يربط الدعوة بحضوره، بل يوكل مكانه من يسدُّ الثَّغْرَ، وهذا خاص بدروس الناس العامة، والدروس الوعظية وأشباهها، ومن حقَّ العالم الذي يُقَرِّئ قراءاتٍ خاصةً أن يتوقَّف عند التعطُّل، فمن كان يقرأ على شيخه ختمة من القرآن، أو يدرس كتابًا بعينه يُمنَح إجازة أو شهادة به، فلا حرج من التوقف، وعدم تقديم البديل.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٣١.

إعداد الخلف من القيادات

يقولون: إذا أردت أن تبني مؤسسة فكن قائدَ الأتباع، وإذا أردت قيادة مؤسسة كبرى، فأبني القيادات.

وبناء القيادات ليس بالأمر اليسير، بل هو من أشقِّ الأعمال، والنفوس المؤهَّلة للقيادة كثيرة، ولكن الفرص والهمة قلَّ أن تأتي للمرء، فلذا تجد أن القائد الحقيقي هو واحد من مئة، وأقدم من صرَّح بهذه القاعدة هو مولانا رسول الله ﷺ، في قوله: «تَجِدُونَ النَّاسَ كَأَبْلِ مِئَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(١).

حدثني باحث - والعهد والثناء عليه - أنه أحصى سيرة الحبيب ﷺ فظهر أن الذين أسلموا على يد رسول الله ﷺ مباشرة كانوا على أعلى تقدير ١٥٠ شخصاً مما وصل إلينا، وهو القائد، أي معدل ١٣ في كل عامين، ولكنه أعدهم إعداداً كبيراً، بحيث كان الفتح على يد كل واحد منهم كالسيل الجارف، ما أتى على غشاء إلا جرفه، وروى الأرض العطشى، وسقى الزرع وأنبت البقل.

وقال بعض مدربي القيادة: يجب أن يعطي القائد ٨٠ ٪ من وقته في تعليم الأتباع، و ٢٠ ٪ في الإدارة.

ثم تفكَّر: أن أحد القيادات تحت يدي رسول الله ﷺ هو أبو بكر، وقد أسلم على يديه سبعة من العشرة المبشرين بالجنة^(٢).

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٤٩.

(٢) كذا في «السيرة النبوية» لابن هشام ١: ٢٥٠ وما بعدها.

قلت: وأعظم من بناء القيادات عند مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ، أنه كان يبني بالعمل، ويشير إلى بنائه بالقول، لقد جاء عنه ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَفْضَاهُمْ عِيَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَفْرُؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفَرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(١).

ما أبعدَ النظرَ النبويَّ عندما أرشدنا إلى قادة الأمة وهو حي ﷺ بين أصحابه، ولو أنه قال: «أرحم أمتي بأمتي أنا»، لصدق، ولو قال: «وأشدُّهم في أمر الله أنا» لصدق، فلم يعزو الأمر لطلبة تحت يده؟ لعل من الأجوبة الكثيرة جواب: لأنه ﷺ قائد، والقائد السويُّ الناضج من يعترف بغيره ويحيل إليه أحيانًا، وإن كان من نتائجه وطلابه، فكيف بسيد القادة ﷺ.

ويبدو لي أن بُعدَ النظر النبوي أورد الحديث للإشارة إلى القيادات، وللإفادة من القيادات، ولإحالة الحمل على القيادات الجدد، والمعجب المتعلق بالقائد الأول ربما لا يعترف بمن يخلف حبيبه الأول، فكم سمعت من الأتباع من قال: «لم أحضر درس علم في حياتي بعد رحيل شيخي فلان»، فما أبعدَ نظر الحبيب ﷺ عندما أحال بنفسه على القادة بعده، فكأنه يقول للناس: لن أسمح لأحد أن يقول بعدي: مات رسول الله ﷺ، ولم يخلفه مثله، مع أن العبارة حق، فَمَنْ مِثْلَ رسول الله ﷺ؟

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٧٩١، وقال: «حديث حسن صحيح».

انتقاء الأقوى للخلافة

ويا لهف قلبي على زمان نحن فيه، لا يُنتقى الأقوى ليخلف الراحل، بل في كثير من الأحيان لا يُخطط للقادم أبداً، وإنما يُنظر إلى الواقع فقط، ويُحطّط القائد ما يثبت وجوده، فينتقي صفاً كاملاً من الضعفاء تحته، لأن أول عوامل ثبات القائد في مكانه أن يأتي بعُصبةٍ كلهم ضعاف، فهذا ما يُرسي قواعد كرسِيّه، لكن هذه النظرة الدنيوية لا تتماشى مع البعد الدعوي.

فإذا أراد الداعي أن يبني القيادات، فلا بد من ملاحظة أمر: هو أن الطلاب تحت أيدي شيوخهم على قسمين:

قسم يولد وينشأ ويعيش ويموت تحت يد شيخ واحد، وقسم لا يستطيع إلا الدوران والاستفادة من عدد كبير من الشيوخ.

وفي كلا القسمين خير، ولكل صنف إيجابياته، وسلبياته إلا أن يلاحظ الطالب نفسه بالتهذيب.

فالقسم الأول: يسعه أن يكون الخليفة والبديل عن شيخه إن سافر أو مرض أو انقطع أو مات.

وأما الثاني: فمميز بل صاعقة في التميز، ولكن لا يستطيع أن يعتمد شيخه عليه بأن يكون خليفته ولا نائبه، فمن سلبياته أنه غير قادر على البقاء تحت جناح شيخه، لأنه أوسع من أن يؤطر، لكن تميزه في إنتاج عسل أصله مُجمّع من كل الثمرات، ولم يكن من زهرة واحدة.

أكبر كارثة تهدد القياديين الناجحين خيانة طلاب القيادة، ومتطلي

المناصب، وأغلب هؤلاء ليسوا أهلاً لها، وأهلها الصالحون لها زهاد بها لأنها تأتيهم على أطباق الذهب، بسبب شح موارد القياديين.

ويهدّد القائد الصامد خونة الصف الأول والثاني، فيعطّل بعض الأعمال بسبب خوفه على العمل منهم، والأنكى أنه إن مات قفّل وراءه أعمالاً كثيرة كانت غامضة عن أعين الناس، ولعل حلاً من أمثل الحلول لهذا المرض في هذا المضمار أن يهيئ القائد نسخة واحدة عنه، مُوزَّعة على نفر من الصف الأول والثاني، ممن يغلب على ظنّه تزكيّتهم، ولكل واحد من هؤلاء قطعة من أعباء القائد، فإن مات القائد قام كل واحد بمهمته، وإن خان أحد هؤلاء تكون الخيانة في جزء صغير، لا في المجموع.

فاصنع نسخة عن كل قيادي لديك، حتى لا يذهب العمل بذهابه، فإن خُفّت خيانة الجديد فاصنع البديل موزعاً على عدة، أي: اصنع خمسة كل واحد منهم يأخذ بعشرين من القيادي الأول، حتى إذا هلك نابوا عنه، وإن خان أحدهم لم يخن بأكثر من العشرين.

وهذا كالحلّ القائل: إن لم يكن لديكم صلاح الدين الأيوبي (ت: ٥٨٩ هـ) رحمه الله، فاصنعوا صلاح الدين من مجموع من الشباب، كل فرد يمثّل جانباً من شخصيته، وبمجموعهم يمثّلون شخصه الكامل.

قيادة متفرقة لها وجه واحد

بناء على الآنف أقول: القيادة أنواع كثيرة، منها:

١- قيادة مستقلة في واحد.

٢- قيادة موزعة على عدد.

٣- قيادة في مجموعة لهم وجه يظهر أمام الناس.

وأريد التعريف بالصورة الأخيرة الآن: أعرف فرقة إنشاد مؤلفة من فطاحل أهل النغم والكلمة الهادفة، والأصوات العذبة، والذائقة الفائقة، توافقوا بينهم على تنصيب رأس منهم وهو أحدهم، فاشتهرت الفرقة باسمه، وطار اسمه في الآفاق، والحق أن المجموعة هي العاملة بمجموعها، والأخ رمز لها، لكن أصبحت الناس تظن أنه المحرك الأول، ولكن الحقيقة انكشفت سرعان ما تفرق جمع الفرقة، ولم يستطع هذا الرمز أن يجمع فرقة بالتي التي مضت.

وهنا لا بد من تنبيهات مهمة في إعداد القيادات:

- الإعداد القيادي إنما يكون من جميع الجهات، وإن كان القائد سيتخصص بعد في زاوية واحدة، فعند إعداد القائد يجب أن يعد من الناحية العقديّة، والفقهية، والحياتية، والسياسية، والروحية، فيجمع العلم والعمل والتزكية والمراس والجهاد والفتوى والتجارة وكل نواحي الحياة، ثم هو سيذهب بنفسه إلى قيادة من دونه في زاوية واحدة بشكل مركز، وببقي الزوايا على سبيل التبعية.

- في تدريب الموهوب على القيادة لا بد أن يحضر عند جمهرة من مختلف أصناف العلماء، ولكن حذارٍ حذارٍ أن تسلّم هذا المتدرب إلى المرضى، فإن مُسَامَةَ العالم - أي: ما تشفطه الرُّوح من المعلّم والشيخ - تؤثر في المتلقي سلبيًا وإيجابيًا.

- في إعداد القادة إياك أن تنسى قاعدة: «تُقْبَلُ توبُّته، وتُرْفَضُ إمارته»، وإن رأيت في التائب مؤهلات في القيادة الدعوية، فإنه لا يصح أن يُسَلَّم مقاليد الدعوة، كأن يتوب العدو اليوم ويكون القائد غدًا، فمن شروط القيادة أن يذوق مرارة الطاعة، كما ذاق حلاوة المعصية، فلم يسَلِّم النبي ﷺ أبا سفيان منصبًا في ثاني يوم من إسلامه، ولا استلم عمر إلا بعد التحقق من صدق إسلامه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- إن الترقِّي بين رتبتي «صف ضابط» إلى «نقيب» سهلة، لكن كلما ارتفعت الرتبة شَدَّدَ عليها، فكيف في العمل الإسلامي؟ أَيْصَلُحُ مَنْ كَانَ صِفْرًا أن يُرْفَعَ إلى رأس الهرم في ليلة؟

- ضعفاء التخطيط يعيشون ويتوالدون ويسعدون ويتعذبون، وكل هذا في المخططين أيضًا، ولكن الإسلام حَصَّنَا على التخطيط والنجاح والمشي بعد الدراسة والمدارسة، ولا بد أن تكون نسبة الزلل عند المخطط أقل منها عند المتخبط.

- كلما نَضِجَ المتدرب على القيادة أُوكِلَ إليه مهمة أعلى من التي قبلها، حتى يصعدَ درجَ القيادة درجة درجة، ويصلَ إلى القِمَم.

فاعمل على إعداد القيادات الدعوية، وإمَّا تخافن من قوم خيانة فلا تبتئس بما يصنعون، وامض إلى إعداد غيرهم ولا تلتفت، فالمستاقطون في الطريق كثير، والتعويل على الثابت النابت، وإنك لا تدري في أي إعدادك البركة، وقل لسحابة التاركين لك: «أمطري حيث شئت فإن حَرَاجَكَ سيأتيني».

القائد يعيّن القائد ومن يخلفه

لم يكن النبي ﷺ ليرسل سرية إلا أُمّر عليها أحد أعضائها، ولكن العجيب أن يعيّن الأول وخلفه إن قتل، والثالث إن ذهب الثاني، فلقد جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعَفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعَفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتِسْعِينَ؛ مِنْ طَعْنَةٍ وَرُمِيَةٍ^(١).

فلا تعجب بعد هذا إن رأيت أن النبي ﷺ لم يرض في سفر أن يبقى الناس بغير قيادة، فلقد جاء عند أبي داود من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»^(٢).

والحديث ينص على شرطين اثنين: كون العدد ثلاثة، وكون الثلاثة مسافرين.

والسؤال: ماذا لو كانوا ثلاثة في غير سفر؟

الجواب: إن كانوا في المدينة فأمرهم شورى، وإن كانوا في فلاة فلهم حديث خاص ينظم أمرهم، ويجعل القيادة في يد واحد، لأن أمر الفلاة لا تصلح فيه الاجتهادات، بل يحتاج إلى حسم القرار مع سرعته، فقد جاء

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٢٦١.

(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٢٦٠٨، ٢٦٠٩، وقد حسنه الإمام النووي في المجموع ٤: ٣٩٠.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَجِلُّ لِقَالَتِهِ نَفَرٌ يَكُونُونَ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ إِلَّا أَمَرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ»^(١).

والسؤال الثاني: ماذا لو كانوا اثنين في سفر؟

الجواب: قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد أرسلهما إلى اليمن معاً: «وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(٢).

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ

في القيادة الدعوية: يجب أن يستعمل المبدأ القرآني وهو: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدر: ٣٧].

فالتَّقدُّم والتَّأخُّر على أنواع: فالطالب يكون قريباً من الشيخ ثم يبتعد، ويكون من الدائرة الأولى ثم الرابعة، ويكون ممن يواظب على الحضور ثم يتحوَّل إلى الحضور عبر وسائل التواصل.

فلا يجعلهم القائد في القرب سواءً، ولم يكن عامة الأعراب بين يدي رسول الله ﷺ كزاهر بن حرام، ولم يكن عامة أهل المدينة كالخلفاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهكذا الأتباع، قد يبقى الجندي في صفه، وقد يتقدم أو يتراجع، فيجب تعديل صفوفهم باستمرار، ومراقبة قرب مقاعدهم من تباعدها.

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: ٦٦٤٧، وحكم عليه محققو المسند بالحسن.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٣٨، ومسلم برقم: ١٧٣٣.

دفع الطالب إلى الأصح له، بعد دراسة شخصيته

حدثني الشيخ محمد أمين الحامد حفظه الله، قال: إن والدي الشيخ محمد الحامد (ت: ١٣٨٩ هـ) رحمه الله نصح تلميذه الشيخ سعيد حوى (ت: ١٤٠٩ هـ) أن يلتزم عند الشيخ عبد القادر عيسى (ت: ١٤١٢ هـ)، لما رأى من ميوله الصوفية.

وحدثني الأستاذ الشاعر يحيى حاج يحيى حفظه الله قائلاً: إن الشيخ عبد القادر عيسى الحلبي قال لتلميذه الشيخ سعيد حوى رحمهما الله: اذهب إلى جماعة الإخوان والتزم عندهم، مع أن الشيخ سعيد حوى كان صوفيًا ملتزمًا عند شيخه الشيخ عبد القادر عيسى.

وهذه لا بد من تعليق عليها، حيث يلحظ المرئي النجابة في عيني تلميذه ولكن في جانب دون آخر، وهبْ أني أدرس طالبًا مواهبه في الخطابة والوعظ والتأثير الجماهيري، فمن العبث أن أضيق عليه، أو أشعره بالنقص إذا لم يستطع الالتزام بالبحث العلمي، أو تحقيق المخطوطات، أو تدريس الطلاب في مدرسة، أو إكمال الدراسة الأكاديمية، أو أمثالها مما هو عكس رغبة الطالب، وخلاف توجهه.

بل القيادة الحكيمة أن يُشَجَّع على مواهبه التي أوتيها، فمن أفلح في المجال الأكاديمي ولم ينجح في غيره فإنه لا يجبر على غيره، بل يوجَّه إلى التعمُّق والتخصص الكبير في ممشاه، وهكذا صنع الشيوخ في المثال الأنف.

وليتَّسع صدر الداعي لأخيه الداعي إن دَفَعَ الطالب إليه ثم رجع، ثم غيَّر ثم بدَّل، فهذا كثير الصدور من المتقلِّبين، فبعض الطلبة يحبُّ أن تفصَّل له على قدر قياسه، ثم يَعمُنُّ على باله أن يُنقص وزنه، فيجب أن تغيَّر القياس، كأن

يرى نفسه أهلاً لتدريس الكبار، ثم إذا مسّه شيء من لأوائهم، صاح: رب ارجعون إلى الأطفال، فهم أليّن عريكة وألطف همساً، ويفرض عليك أن تغيّر موضعه، أو رأى نفسه أهلاً للدراسة فدفعته إلى أخيك، ثم غيّر وبدّل.

القُصُور الدعوي

كان شيخي الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٢ هـ) رحمه الله يخاطب طلبة العلم قائلاً: يا طلبة العلم: كونوا كالشمس، الشمس للجميع، وتدور على الجميع، وتبقى شمساً، فلا تبقى في مكانها، ولا تَقْصُرْ نفسها على جهة دون أخرى، ولو بقيت في جهة واحدة لَمَلَّها الناس وكرهوها، وتعلموا أن ينفذ نوركم في الأشياء، لا أن يصطدم في الأشياء، وإياكم والاعتماد على فئة ضئيلة ومجموعة محصورة، فإذا فُقِدَت فُقِدَ كُلُّ شيء.

لا أشك أن بعض الدعاة قد نجح في تربية فئة وجماعة محصورة، ولكن هذا النجاح بقي محصوراً، لأنه مصاب بمرض: «القُصُور الدعوي»، فهو لا يعرف إلا من سبقت معرفتهم، فلا يخرج عنهم، ولا يتواصل مع غيرهم.

ومن سلبيات عمل المربي مع جماعته المحصورة عدمُ التطلّع واستهدافِ شرائح غير التي بين يديه، ويضيّقُ أفقُ تفكيره الدّعوي، وتُقْصُ جناحا طموحه، بحيث لا تُهْمُهُ مخالفةُ المخالِف، بل ربما يصل إلى استعداد الفئات غير المستهدفة، أما عندما يصبح الناس ممن يستهدف، ويرى عندهم مخالفة مقبولة، فإنه يتسع لهم.

الشيخ المنكفي على مَنْ حوله ويربّيهم على عقل أحادي واحد، إذا عَرَضَتْ مسألة من التي تكثر فيها الخصومة فإنه لا يهّمه المخالِف، بل قد يشطّ في

العبارة، ويحكم على المخالف بالأحكام الشديدة، لَكِنْ عند وجود طلاب من أتباعه ممن لهم رأي غير رأيه فإنه يغيّر خطابه شاء أو أبى، ويبيد للناس وَجْهَتِي نَظَرٍ معبّرة، ويفتح الله عليه باسمه «الواسع».

وهنا يجب أن يُطرح على المتفوق الذي قَصَرَ نفسه على فئة بعض الأسئلة:

- ماذا لو تقاعس بعض مَنْ عندك من مجموعتك؟

- ماذا لو نقصت الجماعةُ عندك بموت بعضهم؟

- ماذا لو تغيّر بلدك؟ وأنت ممن لا يتحرك ولا يتواصل مع جديد.

من خلال هذه الأسئلة وتوابعها سيقف الداعي إلى الله تعالى على أهمية تجديد الشريحة، ويرى أن المستهدفين لديه كالماء، إن سال طاب وإن لم يَجِرْ لم يَطْبُ.

قائد صاعقة

تأملت ألماً شديداً لفرط عَقْدِ جماعات عقب وفاة الشيخ أو فقده، وكتبت في نقد هذه الفكرة كثيراً، منها القاعدة السابعة والثلاثون من كتابي: ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى، ص ١٦١، حيث ابتدأت الكلام بقولي: «اربط مرید الهداية بالإسلام لا بنفسك».

وأصّلت لهذا من الكتاب والسنة وفعل الصحابة، وعِبْتُ قولَ القائل: «إنني لم أحضر عند أحد من الدعاة بعد وفاة شيخي، ولم يعجبني كلام أي أحد بعد كلامه».

ولكنني أجدد الأفكار وأنضجها وأحاول ألا أترك ثغراً يُعَابُ عليَّ إهماله،

سألت نفسي: سأرفض قول الكثيرين إن قالوا هذا القول، ولكن ماذا يعمل من فقد شيخاً صاعقة، ولم يأت بعده من يملأ فراغه؟

لقد قال عدد من تلامذة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ) رحمه الله: «إن الشيخ قد أفسد علينا العلماء»، أي: تعرّفوا على الذهب الخالص، فأصبحوا إذا رأوا العيار الأخف لم يملأ أعينهم، ولم يجدوا عنده الجديد الذي يُبهر العين.

ماذا يعمل من يبحث متجرّداً وفي الحقيقة لم يجد؟ فالحديث عن الصاعقة الراحلة التي عزّ مثيلها.

هل تأذنون لي بالصراحة؟ إن في شيوخي من فقدته ولم يسدّ أحد مكانه مع اعترافي بفضل الكثير.

هناك الذي هيأه الله تعالى بروح عزّ نصيرها، أو معرفة قلّ نظيرها، أو شخصية عزّ وجودها، منهم شيخي الجليل الشيخ محمد عدنان السقا (ت: ١٤٤٢ هـ) رحمه الله، وبعض شيوخي الأحياء حفظهم الله تعالى لا يسدّ مكانهم أي أحد، أسأل الله أن يبارك في أعمارهم، وإن كان بعضهم في جانب من الجوانب، وليس في كل الجوانب.

قل لي بربك: من أين يأتي بمثل شيخه من تربّي عند شيخ خطيب مضقّع، عالم متمكّن، أكاديمي فذّ، مؤصّل عند العلماء، يجمع بين الفقه والفكر والسلوك والتربية والدعوة والحركة، بل بعضهم زاد: الاشتغال السياسي والبرلماني وأمور الأمة، والحكمة في الكلام، والعبقريّة في مواجهة الخصم.

لا بد هنا أن أرشده فأقول: لقد فقدت صاعقة، ولا أظنك تعثر على

مثيل، ولكن البحث عن عدد من الرجال ليسدوا بمجموعهم مكان شيخك.

جندي صاعقة

على القائد أن يلاحظ ويلقظ الجندي الصاعقة، وهذا ممن يتقدم بنفسه دون مقدم غالباً، ويكشف نفسه قبل أن يكتشفه القائد، وذلك لإقدامه وإنجازه، وقل أن يمر بالقائد هذا النموذج، فيراه كالصاعقة، نبلاً وعملاً وحركة وإنجازاً، فيجب أن يقربه القائد ويفرح به، ولا سيما إذا ما قارنه بأتريابه، فإنه وحده ليمتاز على مجموعة كبرى من أولئك.

والغالب على المربي ومن في موضع القيادة أن يتوجس خيفة من أمثال هؤلاء، فتراه يحذر من تجاوزات الجندي المميز، ويتوقع التورط، كما يخاف من منازعته المكانة، وبرأيي هذا كله في غير موضعه، اللهم إلا إن بدا من ذلك شيء صريح، أو غلب على الظن كثيراً، فلكل داء دواء، كما لكل علاج حكماء.

من ذا الذي لا يسأل عما يفعل من الناس؟

ومن الحكمة أن يرخي المربي والقائد الحبل قليلاً لهذا الصاعقة، ولكن دون أن يصل إلى حد الغطرسة، وليحذر ثم ليحذر من أن يصل رفض النصح إلى الجندي الصاعقة، بحيث يرى نفسه أنه لا يعترض عليه، ولا يسأل عما يفعل، ولا يناقش في آرائه، فهذا مرض سريع العطب بل الوفاة عن الجماعة.

قتل الصاعقة

إن عملية قتل الصاعقة لها طرق كثيرة: منها أن يمدح القائد الصاعقة

في جميله، ويشكره على إنجازه، ويثني عليه خيرًا، ويشكر عمله ولا يكفره، ويرى من الحكمة أن يسكت عن زلله، فيكبرُ الجندي في عين نفسه، ثم يعظم حتى يرى نفسه فوق حجمها، وهذه بداية استثناء مرض الوفاة، ويصفقُ له مُصَفِّقُونَ، ثم يطول الأمد فَيَمَلُّ المصفقون، ويموتون حول ذاك المشوّه، ويموت ذاك الجندي الصاعقة، وسببه: إعطاؤه أكبر من حجمه.

ومنها: أن يكبلّه ولا يفوضه، ويحدّ من صلاحياته ولا يفسح المجال بوجهه.

ومنها: أن يقتل إبداعه بالإنكار عليه، ومحاولة إظهار النقد لأي اجتهد.

ولها طرق ما أظنها تحصى عددًا.

شعور الجندي أنه أكبر من معلمه

ولا أعرف داءً في الجندي المتميز أكبر من أن يرى نفسه فوق معلمه، وأنه أكبر من قائده، فإذا وصل البلاء هذا الحدّ بكى وأبكى، ويكون قد اشتدّت عليه النرجسية^(١)، ووصل إلى مقام يتوهم أنه ليس بحاجة إلى القائد، بل القائد بحاجة إليه، وأنه أوعى منه، وأنفذ منه، وأنه المطاع أكثر منه، وأنه الخبير الإستراتيجي أكثر منه، فعند ذلك كبرّ على القيادة أربعًا، وقل بأعلى

(١) النرجسية: مرض نفسي يُشعر صاحبه بأهمية نفسه بصورة مفرطة، ويكون صاحبه ذا جوع مستمرّ لسماع المدح والإطراء.

صوت: لم يعد يصلح هذا الجندي لهذا القائد، فاجثوا عن حل لهذه المعضلة.

علاج المنتفخ تغيير المهام أو تقليصها

ومن داء بعض المتميزين أنهم يتوهمون أنفسهم أكبر من حجمها، ولا سيما إذا صاحب هذا مدحٌ وثناء وتكبير من قبل القيادة العليا، فربما يصاب الجندي بداء الانتفاخ، وللأمر أدوية كثيرة، ولكن من أهمها: علاج الورم بتقليل أسبابه.

فالذي يُمسِك بمهام كثيرة نُقلل مهامه.

ومن كانت صلاحياته كبرى حُجِّمَت.

ومن كان مفوضاً بجنود كثيرة يرعاها قُلل عددها.

ومن كان له موقع حسَّاس في التواصل مع الناس عُزِلَ من المنصب إلى غيره.

وهذه الأدوية كلها للحفاظ على جسم نشيط، فمن إماتة الجسم الحي أن يتورم وهُمِيًّا، ويستمر بالورم، حتى يُؤثِّر غروره على نفسه ومن حوله، واقتلعه بعد استشارة المرض خطأ، لأنه يشق صف الجماعة، ويسحب الكثير من الجنود معه، كما أن علاجه في المراحل المتأخرة قليل الأمل، والبُرء من العاهة صعب، فلا أنجَع ولا أفضل من ملاحظة وتدارك المرض في بدايته.

بعض أفكار القائد لا تنشر

التصريح من القائد بأفكاره لا يصلح إلا في مواطن، منها إلى صنفين:

الصف الأول: أتباعٌ يتلقفون كل كلمة يقوله.

الصف الثاني: ذو عقل ناضج منفتح ومروعة تحبُّه عن الخيانة.

أما مَنْ يراك نِدًّا، وإن كانت التَّدية بقدر يسير، كأن يراك نِدًّا له بقدر ١٠ ٪ فقط، وهو الآن مغلوب وأنت غالب، فهذا يَسْكُت، حتى إذا سرِّي عنه فأتاحت له الفرصة أظهر كل ما في قلبه عليك.

هذا وإن أعظم بُغية يصل إليها أعداء الداعي غالبًا ما تكون عن طريق إذاعة سرٍّ، وربما يكون سببًا في تدميره أو تدمير دعوته، فلذا جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة في التركيز على حفظ الأسرار.

وإن تربية الرسول الأعظم ﷺ كانت تُركِّز كثيرًا على سرِّيَّة بعض الآراء والأفكار، فأسرَّ النبي ﷺ سرًّا لإحدى زوجاته، وسطر الله تعالى هذا الموقف في دستورنا الخالد فقال: ﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

والعجيب أن ترى أصحاب الحبيب ﷺ يحفظون سرَّ رسول الله ﷺ دون أن يَرِدَ في الحديث أنه ﷺ أمّنهم ووصّاهم بحفظ السر، ففي حديث عرض سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنته حفصة على أبي بكر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لم يرجع أبو بكر بجواب قبول ولا رفض، فوجد عمر في نفسه عليه شيئًا، فلما خطبها رسول الله ﷺ جاء أبو بكر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقال:

لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلِيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ،

قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتُ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا^(١).

وهذا شأن البَصْعَةِ الطاهرة الشريفة، السيدة فاطمة عليها رضوان الله، فقد جاء عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَادِرْ مِنْهُنَّ امْرَأَةً، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» فَأَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَاطِمَةُ، ثُمَّ إِنَّهُ سَارَهَا فَضَحِكَتْ أَيْضًا، فَقُلْتُ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَقُلْتُ لَهَا حِينَ بَكَتْ: أَخَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثِهِ دُونَنَا، ثُمَّ تَبْكِينَ؟ وَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا فُبِضَ سَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ حَدَّثَنِي: «أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارِضُهُ بِهِ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِي لِحُوقًا بِي، وَنِعَمَ السَّلَفُ أَنَا لَكَ»، فَبَكَيتُ لِذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ سَارَنِي، فَقَالَ: «أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟» فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ^(٢).

وهكذا كان خُلُقُ الخادم اللصيق، فقد روى ثَابِتُ البُنَانِي، عَنْ أَنَسٍ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٠٠٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٢٣، ومسلم برقم: ٢٤٥٠، وهذا لفظه.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَتَى عَلِيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَةٍ، قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ، قَالَتْ: لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدًا. قَالَ أَنَسٌ: وَاللَّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ يَا ثَابِتٌ^(١).

فلا عجب بعد هذا أن تجد الإمام الحاكم (ت: ٤٠٥ هـ) ينقل عن الواقدي أنه وصف سيدنا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «صاحب سرِّ رسول الله ﷺ»^(٢).

وما أَلْطَفَ وَأَجْمَلَ وَأَحَبَّ لِقَبِّ سَيِّدِنَا حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا اشْتَهَرَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِ: «صاحب سر رسول الله ﷺ»^(٣).

ولن أطيل أكثر من هذا في بيان أهمية كتمان الأسرار لدى الداعي، فمن بَدَّهِيَ علم الدعوة أن يَعْلَمَ أبناء الدعوة أنهم سيلقون الأحاب والاعداء، فما ظنُّك بحال الأعداء إن وقفوا على بعض الأسرار؟ والأسوأ منه أن ينقلب إلى عدو من كنت تَظُنُّهُ صديقاً، ويكون من اطلع على ما ينبغي كتمانها، فتصبح بعض الأخبار عنده مادة للنيل من عدوه، ألا فَلْتُنْخَلِ الصداقات، وَلْتُخْتَبِرْ

(١) متفق عليه وهذا لفظ مسلم برقم: ٢٤٨٢، ولفظ البخاري برقم: ٢٤٨٢ بلفظ: «أَسَرَّ إِلَيَّ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ سِرًّا، فَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ أَحَدًا بَعْدُ، وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْهُ أُمُّ سُلَيْمٍ فَمَا أَخْبَرْتُهَا بِهِ».

(٢) «المستدرك على الصحيحين» بعد حديث رقم: ٥٣٦٢.

(٣) انظر سنن الترمذي رقم: ٣٨١١.

الأخوة بمعايير الاختبار المحمدية قبل التوسع في العلاقات والأسرار.

القيادي والانقلابات

القيادي في غير الدعوة غالبًا ما يحرص ألا يأتي بمثله، فضلًا عن الأقوى والأجدر منه.

لي صديق يعمل في مؤسسة ضخمة، وطلب منه إحضار شخص بصفة كذا وكذا، وقابل عددًا من الموظفين، حتى أتى برجلٍ انتقاه على صفات عالية من الخبرات، وأخلص في تعيينه بأعلى الصفات، ووصل الأمر إلى النهاية.

لكن خيانة المدير العام كانت جاهزة حاضرة، حيث أعطى صديقي إنذارًا بالإقالة من العمل، ليُعيّن هذا الجديد مكانه، وهبًا صديقي نفسه للخروج من العمل، لكنَّ اللطف الإلهي في اللحظات الأخيرة منعه، حين ظهر في أن الرجل الجديد يحمل مرضًا يحول بينه وبين التوظيف.

أما الداعي إلى الله الصادق المخلص فلا إشكال عنده من الأقوى منه، فهو يقدمه وإن كان أقوى سمعة منه، أو علمًا، ولكن ما أقلَّ الإخلاص!

حدثني شيخنا الشيخ عبد المجيد بيانوني حفظه الله، قال: سمعت شيخنا الشيخ أحمد عز الدين بيانوني (ت: ١٣٩٥ هـ) رحمه الله يقول: ما مثّلنا في العمل الإسلامي وحمل خدمة الإسلام إلا كمثل رجل طُلب منه أن يحمل صخرة كبيرة، لكنه غير قادر على حملها، فجاء مَنْ يحمل معه، أيسّعه مجيء هذا المساعد أم يسوؤه؟

قلت: ولكن النفس البشرية تأبى - وأنا منها - أن يأتي العاطلون البطّالون

ليسرقوا أعمال المجتهدين، فالله الله بمن يَضُمُّ يده إلى يدك لِيُعِينَكَ على عملك، ولكن من الحزم في القيادة أن تُبْعِدَ يد السَّرَّاق عن سرقة أعمالك.

المتخلفون يُسَاعِدُونَ مرات ثم يَتْرَكُونَ

في القيادة الدعوية كثيرًا ما ينطلق أناس يساعدون الداعي، ويُظْهِرون الإخلاص له، وهنا وجب على الداعي مساعدتهم، وكثير منهم ينطفئ حماسه بعد مدة، فيجب الأخذ بأيديهم، ولو كَلَّف الأمر أن يوقف الداعي سيره قليلًا ليأخذ بأيديهم، مرة، وثانية، وثالثة، ولكن لن تكون رابعة وخامسة وسادسة وأكثر من غير خِطَام ولا زِمَام، بل يجب أن يرفع عندها شعار الاعتذار اللطيف عن المتابعة والمجاراة، فليس من العقل أن يتوقف المتحمّس، ويُوَقَّف غيره معه، ولو حصلت لتبادل القائد والجندي موقعهما.

هذا وقد أفادني رجل خبير في الدعوة - أحسنه الله إليه - أنه حصل معهم مثل هذا كثير، فكان العلاج على النحو الآتي:

١- لا يتوقف القائد، لكن يَخْصُصْ له قريبًا من الجنود لتبقي شعرة الصلة بينهم.

٢- لا تنقطع الزيارة لهذا الجندي، ولكن القائد هو مَنْ يَعْينُ الزائر، ولا يكون مجال من الأحوال مِنْ قَبْلِ الجنود الجدد.

٣- يَسْتَعْمِلُ في علاج الجندي تذكيره بالماضي ومنجزاته، ويطلبون منه الحديث عن منجزاته القديمة، فهي أدعى للرجوع، والبرء من العلة.

٤- يستنفر القائد الجند ليدعوا لأخيهم، فهو غَالٍ لا يُفَرِّطُ به.

وعند ترك المتخلف عن الركب ومتابعة السير سيئتهم الداعي بأنه متقلب، يقطف ثمرات الناس ويتركهم، ولكن الله يعلم المفسد من المصلح، فدع من شاء أن يشغل نفسه بك، واشتغل بالله تعالى.

المنقلبون عليك

لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أحبوك.

في طريق الدعوة أشواك مؤذية، منهم أناس يتربّون مع فئة من الناس، وقد انتسبوا إليهم حيث لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وبعد مدة فتقت أعمارهم ونشزت عظامهم من تلك الجماعة أو شيخهم، لكن العقل لم ينضج، مع إصابة القلب بقصر النظر، ففي هذا الجسد عافية وعلة، ونضج مع تشوه، وفي هذه الحالة ينشق الفرد عن الشيخ أو الجماعة، وينقلب عليهم، ويقلب معه ظهر المجن، ومن علامات هؤلاء، ومن أوصافهم التي تكثر فيهم:

- ينسبون الخير كله إلى نبوغهم.

- يصرحون بأسوأ ما عند أولياء نعمتهم، ويشيعون أخطأ.

- ينبشون أسراراً مقطوعة من ملابساتها.

- يحدثون كل عدو بما يهتم به من أخطاء الجماعة، فمن كانت تهمة مسألة البدعة حدثوه عن تلوث الشيخ بها، ومن كانت تهمة مسألة الأموال حدثوه بذلك، وكذلك مشكلات النساء، ومشكلات الإدارة، وعدم العدالة، وهكذا توزع التهم على حسب السامع واهتمامه.

- يُصَوِّرون خروجهم لله ولرسوله ﷺ، ويختبئون من كل مرض خلف

حكم شرعي مسلم به.

- أتعس المستمعين من يصغي ليصطاد الزلل، أمّا صاحبُ الفائدة فهو مَنْ يخلص ويسكت ليأخذ من معين الآخر غَرْفًا إلى معينه، ويستفيد من علوم الآخرين، والأحسنُ منه مَنْ يأخذ ويعطي، ويناقش ويحاور، فهو يفيد ويستفيد، ويصححُ لغيره، ويقومُ أفكار نفسه.

خطأ القائد بألف

لا شيء بعد توفيق الله وعنايته يُنَجِّح عملَ القائد وذوي الأتباع كحسن اختيار الأصلاح في القيادة والمواقف، وقوّة الملاحظة، وأهمُّ نقطة أُنْبِئَ عليها هنا: أن القائد كثيرًا ما يستطيع أن يُقْنِعَ المقودين تحته بوجهة نظره، ولكن السؤال: هل وُقِّقَ للخير حقيقة؟

فما رأيت أحدًا تشدّد أو تساهل إلا واستدلّ بنصّ من الكتاب أو السنة أو قول لصحابي، أو فتوى لإمام، وعند التنظير يقال: «كل منا يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ»، ولكن عند تَبَنِّي الموقف يبحث عَمَّن يؤيِّد موقفه.

الفرق كبير بين مَنْ تَبَنَّى الموقف وبحث له عن مُؤيِّد، ومَنْ بحث عن حلٍّ لمشكلة، فجمع الأدلّة والبراهين والحوادث المُماثِلّة، ثم خرج بخلاصة واجتهادٍ بأفضل موقف وحُكْم يوافق حالته.

فما كلُّ موقف صدر من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو الأئمة يُقْتَدَى به، فهناك المواقف التي كانت لها ملابساتٌ ولم تذكر، وهناك المواقف التي كانت في صدر إسلام المسلم، وهناك المواقف التي كانت منه في قَوَّعَتِهِ، فلما خرج

واختلط بالناس تغيّر، وهناك مواقف ممّن شذ عن باقي إخوانه وجمهرة العلماء، فمَنْ تَبَنَّى هذا الرأي وجد بغيته، ومن انتقى من كلامهم ما يوافق عمله رأى ما يَرَوِي غليله، كمن انتقى من كلام مالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ) رحمه الله: «محمد بن إسحاق دجال من الدَّجَاجِلَةِ»^(١)، وقول ابن أبي ذئب (ت: ١٥٩ هـ تقريباً) في الإمام مالك بن أنس: «يُسْتَتَابُ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عَنْقُهُ»^(٢)، ولكن علماء الجرح والتعديل نصّوا على أنه لا يؤخذ كلام إمام منفرداً عن كلام باقي الأئمة.

توجيه المركب الدعوي

الخطاب الدعوي قسمان:

١- زمن الأمن والأمان.

٢- زمن الفتن والقلاقل.

فلا بد من التفريق بين الحالين، من تقديم بعض الدروس، وتأخير بعضها، والسماح ببعض الدعوة، والإحجام عن بعضها، وهذا كله بيد القيادة الدعوية، فهم أولو البصيرة.

البعد النفسي لدى العامة

إن من أخطاء التربية الجسيمة عدم التركيز على البُعد النفسي عندما

(١) انظرها في ترجمة محمد بن إسحاق في «تهذيب الكمال» ٤٤: ٤١٥.

(٢) انظر: «تهذيب الكمال» ٢٥: ٦٣٨.

يُلْقَى النقد في أحضان العوام، وما شَرَعَ النقد إلا ليتداوله العلماء ذوو التخصص، ثم يُعطى العامة القدرَ الذي يحتاجونه فحسب، ولكن النقد غير المتزن إذا دخل آذان العوام هدم الكثير في نفوسهم.

وصلتُ إلى نتيجة: النقد إما لأمر ذاع وشاع، وهذا يتداوله العلماء، ويُعطى للعامة بقدر فيه حذر كبير، وإما لأمر مستور فهذا دفنه أولى، وما أشبهَ هذا بالمولود الذي وُلِدَ مَيِّتًا، وإكرام المَيِّتِ دفنُه.

والزَّمام هنا بيد القيادة الدعوية، فلا يَتْرُكون أمرًا يُفْسِدُ على العامة دينهم ويرسلونه على عواهنه.

للقيادة أمراض كثيرة

ولو نظرتُ إلى أهم أمراض القياديين لرأيتها ثنيتين:

١- ضعف المبادرة

٢- قلة التنسيق

أما ضعف المبادرة فله أسباب كثيرة متشعبة، ولكن من أهم أسبابه: انقياد الداعي إلى توجيهات العامة، وما جُعِلَ الداعي في موضع القيادة لينفذ آراء مَنْ وراءه من المُقْتَدِينَ، والعامة بحاجة لمن يقودهم لا لمن ينقذ أوامرهم، وهم في أوقات الشدائد أحوجُّ للداعي من أوقات الرِّخاء، ومع ذلك يطيش صواب الكثير عند الشدة، ويتوجَّهون للداعي مشيرين إليه أن اعتزل إن لم توافقنا فيما نرى، ولا وربي ما جعل القائد قائدًا ليعتزل وقت الشدة، بل حاجة الناس إليه في الفتن والشدائد أكبر من حاجتهم إليه في البُحْبُوحَة.

وأما ضعفُ التنسيق: فأسبابه كثيرة، لعلَّ أَوْجَهَهَا يرجع إلى إعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، هذا إذا كان معترفاً بِصُنُوهِ، وإلا فكيف ينسّق المرء مع من لا يعترف به؟

هذا وللقادة الشباب أمراض تكثر فيهم عدا الآنفين، وإن أهمها وأولاًها كلاماً: تَوَهُّم الشاب أنه أقدرُ من الكبار بكل شيء، لأنه نَجَحَ في شيء، فيتوَهُّم الفلاح في كل ما أوتي.

عوداً إلى ذِكْرِ القائد الذي يتعامل مع أمثاله: فرحم الله الشيخ سعيد النورسي (ت: ١٣٧٩ هـ) الذي أشار بأصابع كفه الأربع من الخنصر إلى السبابة، وقال لإخوانه: كونوا كهذا الرَّقْم، إنه ليس أربعة! ولكنّه ألف ومئة وأحد عشر، يعني: أن الأخ إذا وقف بجانب أخيه واعترف به أصبح ١١، فإذا انضمَّ إليهما ثالث أصبحوا: ١١١، وهكذا دواليك^(١).

(١) يقول الشيخ سعيد النورسي رحمه الله: «نحن إذن بحاجة ماسة بل مضطّرون إلى الاتحاد والتساند التام، وإلى الفوز بسرّ الإخلاص الذي يهيئ قوة معنوية بمقدار ألف ومئة وأحد عشر «١١١١» ناتجة من أربعة أفراد. نعم، إن لم تتحد ثلاث أَلَفَات فستبقى قيمتها ثلاثاً فقط، أما إذا اتّحدت وتساندت بسرّ العددية، فإنها تكسب قيمة مئة وأحد عشر «١١١»، وكذا الحال في أربع أربعات عندما تكتب كل «٤» منفردة عن البقية فإن مجموعها «١٦» أما إذا اتّحدت هذه الأرقام واتفقت بسرّ الأخوة ووحدة الهدف والمهمة الواحدة على سطر واحد فعندها تكسب قيمة أربعة آلاف وأربعمائة وأربع وأربعين «٤٤٤٤» وقوّتها». انظر كتاب: «اللمعات»: اللمعة الحادية والعشرون، الدستور الثاني، ص ٢٢٣.

تحكم الجمهور بالقيادة

أشبه بعض المُعَيَّرين لمسار الدعوة بالعابث الذي يجلس جانب سائق السيارة، ويميل بين الفينة والأخرى نحو السائق ويحرف مسار السيارة إلى ما لا يريده السائق، فمن استجاب لهذا المُتَطَلِّ وأذعن ولم يقاومه غيَّر طريقه، ومن زجره ونهاه، وحجزه عن مراده استطاع أن يمضي نحو هدفه.

جلس أحد المفتين الكبار رحمه الله في مسجد عقب صلاة الجمعة يفتي الناس بأسئلتهم، وذلك بطلب من خطيب المسجد، وكان في المسجد رجل ثريٌّ فاحش الثراء، عنده مصرف ربوي، وجعل الناس يقدمون الأسئلة والشيخ يجيب، حتى سأل أحد المصلين سؤالاً في معاملة مالية، وبدأ الشيخ بالإجابة وبيان أنه ربا، وأنه محاربة لله، قفز صاحب المصرف الربوي من مكانه، وقاطع الشيخ بسؤال عن صفاء القلب، وإخبات الروح، ونظافة المساجد، وأهمية الابتسامه.

ولست أتهم هذا الشيخ الجليل بالسذاجة، لا والله، بل هو المعني مُتَوَقِّد الذكاء، ولعل هذا الموقف بالذات قد مشى دون أن يلتقطه الشيخ، ولكن جرأة ذاك المقاطع غلبت توقُّد الشيخ، حتى حَسِبَهُ سائلاً يريدُ التفقه في الدين.

تَشِييع الطيبة والسذاجة في بعض الدعاة، حيث ينبري إليه أحد المصلين ليوجِّهَ دعوته، ويصرفه عما أراد، ويحوِّل حديثه عن وَجْهَتِهِ الصحيحة، وهو هَرَبٌ من حالة التَّقْصُّ التي يعيشها، وإرضاءً للانفصام الذي يعانيه، فهو يعاقر الربا مثلاً، ويجب أن يسمع فتوى من يقول: إنه جائز، أما وقد حرَّمها،

فلا أقل من أن يسكت الدعاة عن تحريمها، وأن يتكلموا بأهمية النظافة، والابتسامة، ولين الجانب.

جلست إلى درس الأسئلة والأجوبة عقب صلاة الجمعة، إذا برجل كبير السن، وبجانبه ولده الشاب، يصيح من آخر المسجد سائلاً: إذا كانت والددة الزوج تكرم زوجة ابنها، وترفعها، وتُريحها، وتنفق عليها، وتُهدي إليها أفخر الهدايا، فهل الواجب أن تقابل بالحسنى أم بالإهانة؟

لقد صاغ السؤال بصيغة لا تقبل إلا جواباً واحداً، ألا وهو: «مَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ»، لكنني غلب على ظني أن هذا الألدَّ الحَصَمَ هو وزوجه أصحاب الفتن، وأن الشاب الحيي - الذي لم يستطع أن ينبس ببنت شفة، ولم يقدر أن يمكّن عينه من عيني - هو المظلوم وزوجه.

فاجأت السائل: أنت تدّعي أن زوجك جيدة المعاملة، ولكن لا بد أن نسمع كلام المرأة في حمايتها، لأن تزكيتي أنني جيد معك لا تكون من نفسي إلي، بل منك إلي، ولا بدّ للطرف الآخر أن يتكلم ويدلي بشهادته، فأنت وزوجك في صف، وابنك وزوجه في الصف الآخر.

ثم اكتشفت أن فراستي - وهي محض فضل الله تعالى علي - كانت في مكانها التام، ولكن الوقاحة مع الظلم والافتراء قد شجّعت الرجل أن يصرّح بالسؤال أمام الناس، وهو يعلم أن ابنه لن يكذّبه، وصاغ السؤال بطريقة لا تقبل إلا الإفتاء بما يريد.

ومن طلاب العدل من يشتهي شهوة، حتى إذا طُبّق عليه كان من الخمر المستنفرة، قرّت من قسورة، فأبي طلب للعدالة يريد؟ كأنه تخيل العدالة أن

يشارك الملوك قصورهم من غير تعب، وأن يحظى بالبساتين هبة، وما عَرَفَ أن من العدل أن يُعاقب ويُعاتب ويُجلس على كرسي القصاص، لرد ما ظَلَمَ به الناس.

وهنا يأتي الدواء لهذا الجرح، وهو فِطْنَةُ الداعي، حيث يقدّم للناس ما يحتاجون، لا ما يطلبون.

ما يحتاجه الجمهور لا ما يطلبه الجمهور

- يعشق بعض الناس الخطبَ التي تُقدِّم الإسلام بتكلفةٍ صِفرية، ليس فيه تعبٌ ولا مشقةٌ عبادةٍ ولا نصبٌ، ولا بذلٌ مالٍ ولا تضحيةٌ، إنما هي تحريكٌ للشفاة فحسب، فينفرون من قول: تصدَّقوا يا عباد الله، وأصلحوا ذاتَ بينكم، وصلُّوا مَنْ قطعكم، واحذروا الربا، ولكنهم يحبُّون الحديثَ عن التبسُّم في وجه الأخ المسلم، وأحاديثِ دخول الجنة لمن كان في قلبه مثقال حبة خَرْدَلٍ من إيمان، ولكنَّ الإسلام فيه هذا وذاك، ولا يجوز الإيمان والعمل ببعض الكتاب، وترك بعض.

- يطلب الآباءُ الكلام عن بر الوالدين، ولا يحبُّون الكلام عن العدل مع الأبناء.

- الأحاديث التي تمدح النساء، وتبين أنَّهنَّ شقائق الرجال، وأن البنت سبب دخول أبيها الجنة، وأنَّها وأنَّها.. تجد القبول عند النساء، وتسارعُ بعضهن لنشر الحديث ومشاركته عبر وسائل التواصل، لكنك قلَّما تجد امرأة تشارك حديثاً فيه حقُّ الرجل على المرأة.

- الناس بمجملتهم يحبون الأحاديث الغرائب، والتي تشد الأنظار، وتتوتر أعصاب السامع لها، ويبقى مشدود العقل إليها، يريد أن يصل إلى الخاتمة، كما يميلون إلى أحاديث ليس فيها عناء: فيحبون سماع: كان النبي ﷺ يقبل بعض نسائه ويصلي^(١)، ويعشقون شرح الآية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، ويركزون على حديث: «وَأَنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، متجاهلين الجملة التي قبلها تمامًا: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢) وحديث: «وَأَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ»^(٣)، لأنها توافق الهوى، ولكنك إن قلت له: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ»^(٤) أصابه السكوت المفاجئ، ثم ينطق فيقول: وهل أنا مثل النبي ﷺ، ولعلّ الجواب الحكيم أن يقال له: لست كالنبي ﷺ، ولن تصل إلى مقامه، ولكنه قدوة لك، وعليك اتباعه، فلا أقل من صلاة ركعتين، والتصدق بأقل القليل، ولن أطلب منك أن تقوم حتى تنتفخ أقدامك، ولا أن تتصدق بكل مالك وتطوي جائعًا، ولا أن تدخل بيتك ولا تجد الطعام فتقول:

(١) عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَبَّلَ بَعْضَ نِسَائِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هِيَ إِلَّا أَنْتِ، قَالَ: فَصَحَّحْتُ. أخرجه الترمذي برقم: ٨٦، وقد ضعفه البخاري، كما في تعليق الترمذي عقب الحديث.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري برقم: ١٩٦٨.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ١٢٩٦.

(٤) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٣٦، ومسلم برقم: ٢٨٢١.

إني إذا صائم^(١).

الخلاصة يا سادة: الداعي هو من يحدّد الواجب طرحه في الزمان والمكان، ويتكلم بما يحتاجه الجمهور لا بما يطلبه الجمهور، وله أن ينفذ إلى قلوبهم بما يطلبه الجمهور في طرف يسير لشد أنظارهم، ثم يرسل رسالة ما يحتاجه الجمهور، فتكون الفكرة الأولى مطيةً للآخرى.

مستوى خطاب الضعفاء

شاورت عددًا من الممارسين للدعوة إلى الله تعالى، ممن أعتز بطول خبرتهم، وسألتهم: عن الخطاب الدعوي لطبقة الضعفاء: هل يجب أن أخطبهم بخطاب أرقى من مستواهم كي أرقى بهم، أو أخطبهم على قدر عقولهم ومستواهم العلمي والفكري؟ وبعد المشورة وخلط الآراء وفرزها واستخلاص الحكمة رأيت: أن يبتدئ مع السامعين من حيث مستواهم، فيأخذ بأيديهم ويرقى بهم شيئًا فشيئًا، وليس من الحكمة في شيء أن ينزل إلى مستواهم من أول المرحلة إلى منتهاها، ولا أن يبدأ بهم من الخطاب العالي الراقى فربما تركه بعضهم لصعوبة خطابه.

(١) عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: «يَا عَائِشَةُ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قَالَ: «فَإِنِّي صَائِمٌ»، قَالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأُهِدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ، أَوْ جَاءَنَا زُورٌ، قَالَتْ: فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُهِدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ أَوْ جَاءَنَا زُورٌ، وَقَدْ حَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا، قَالَ: «مَا هُوَ؟»، قُلْتُ: حَيْسٌ، قَالَ: «هَاتِيهِ»، فَجِئْتُ بِهِ، فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا». أخرجه مسلم برقم: ١١٥٦.

هذا من حيث الإجمال، وأما في الحالات الخاصة كأن كان ثابتاً في مكان واحد، في خطبة الجمعة مثلاً، غير متنقّلٍ من مسجد إلى آخر: فكذلك يبتدئ من مستوى المخاطبين، ثم ما يلبث أن يلتفت حوله عصابة، وينشئ الجمهور، حتى يبدأ بالصعود في خطابه درجة درجة، ومتى صار له مستمعون خواص، فله أن يبقى معهم في المستوى الأرفع، وإن انفصّ عنه من رأى الصعوبة في خطابه، فلا حرج من ذهاب القليل مقابل السواد الأعظم.

وما أجدبَ تَصَرُّفه إن كان في الدرس الواحد والخطبة الواحدة تنويعاً في النزول إلى مستواهم، والصعود بهم، وشحذ هممهم، وإعمال عقولهم، وهذا يجلب الجمهور الأكبر، وتستفيد من خطابه جميع الشرائع، ولا تختص به الشريحة المثقفة فقط، ولا ينفصّ عنه أحدٌ لصعوبة كلامه.

وَعْيُ الْقِيَادَةِ فِي مَصْدَرِ الْمَعْلُومَاتِ

في الأمس توفيت الداعية المربية الكبيرة منيرة القبسي (ت: ١٤٤٤ هـ) رحمها الله، وذلك عن عمر تجاوز التسعين عاماً، وهي المربية لجماعة كبيرة تسمى بـ «الْقُبَيْسِيَّاتِ»، وسال اختلاف بين الكتاب في وسائل التواصل الاجتماعي كالسيل الجارف! والذي شدَّ انتباهي محطات فِكْرِيَّةٌ بَدْهِيَّةٌ، لا عجب أن يسقط فيها عوام الناس، ولكن العجب أن يغرق فيها بعض من ينتسب إلى العلم الشرعي.

الأول: يدّعي أن هذه الجماعة جماعة عميلة تدعمها جهاتٌ مشبوهة، فإن طالبته بالدليل دفعَ إليك تقريرَ قناةٍ مرئيّةٍ عدوّةٍ، يرأسها رجل غير مسلم، والله أعلم بمن يعمل فيها.

الثاني: يحكم على كل أفراد الجماعة بالعمالة، من خلال ثبوت نفاق شِرْذَمَةٍ من أفراد الجماعة.

الثالث: لا يفرّق بين آمنٍ في سِرْبِهِ، معافى في إقامته، وجالس بين فكّي كَمَاشَةِ عدوّ، فما يُباح لعمار بن ياسر أن يقولَهُ وهو تحت صخرِ العذاب، لا يجوزُ لجعفر بن أبي طالب في الحبْشَةِ عليهم رضوان الله جميعاً.

الرابع: يقول: انظروا إلى هذا الجمع الكبير وكلهن من القبيسيات، في هذا الفيديو مع الظالم فلان؟ والمنافق فلان.

يا سيدي: من أين حكمت على هذه الجموع أن كلهن من هذه الجماعة؟ أما مدّ ذهنك إلى متر واحد لتقول: عدوّي أراد الوقعة بيني وبين أخواتي، فأتى ببعضهن ووضعهن في المقدمة ليظهرن بالتصوير، وجعل وراءهن الجموع الغفيرة ليخدعني؟

وإني لأعتقد أن هؤلاء لم يفهموا قول الحق في عليائه: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] والقراءة الأخرى: ﴿فَتَتَّبِعُوا﴾^(١).

أياخذُ المسلمُ ترجمةَ عائشة الصديقة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من تمثيلية قَدْرَةٍ، وممثلية ساقطة، وكاتب كاذب؟

أيمكن أن تحاسب العوام على الإنصاف الفكري، والتفكير الموضوعي، ما دام قد سقط في وحل العدو بعضُ المخلصين المغفلين من أبناء مسيرتك العلمية؟

(١) وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وخلف العاشر.

ولمّا قلت لأحدهم: أتأخذ ترجمة إخوانك من تقرير عدوّك؟ أجابني:
«الحكمة ضالة المؤمن»! أيشكّ من لديه مُزْعَةُ عَقْلٍ يفكر بطريقةٍ صحيحةٍ:
أن أخذه لأخبار رسول الله ﷺ من أبي جهل ليست حِكْمَةً ليلتقطها، إنّما هي
قَذْفٌ وكِذْبٌ وزورٌ يُتَحاشى!

هيهات أن يكون مصدر أخبار أُجِّي من عَدُوّاتِها، فكيف أصدّق كلامَ
الحاقدِ في الصادقين من إخواني، وكيف أعادي أخًا وأغيّر حكمي عليه من
أجل ما يُشاع عنه على لسانِ العدوِّ الماكر! أمّا المؤمنُ فلا يقولُ عن المؤمنين
إلا قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦].





سلوك الداعي



أحسن ما ورثته الشيوخ

لو قيل لي ما أحسن ما ورثته من شيوخك؟ لأجبتك من غير ترددٍ: المنهج القائل: رأيي صحيح، ورأيي غيري صحيح.

- إذا كان الإسلام يطلب اللين بيد الأخ عند الاصطفاف إلى الصلاة، أفليس اللين مع أخيك مطلوباً أكثر في سائر الحياة، فرحاً وترحاً، سفرًا وحضرًا، ولقد قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد أرسلهما إلى اليمن معًا: «وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلَفَا»^(١).

والله لا أذكر أنني سمعت من غير الحنفي - من شيوخي الذين علّموني - من يقول: إن الحنفية مبتدعة في كذا، أو قيلت من الحنفية عن الشافعية، لقد ورثنا شيوخنا أن الحق يتعدّد، وأسوأ ما يمارسه بعض المتصدّرين للدعوة اليوم قولهم: الصحيح كذا، والراجح كذا، ويُعرض له رأي فقهي فيجيب مباشرة: هذا غير ثابت، ويضربُ صفحًا بكل ما أُوتي من قوة في نفس رأي مخالفه.

هذا الكِبَرُ الْمَنْهَجي^(٢) من أخطر ما يُمارَس لدى مريد الدعوة، ولو كان على الحق، لقال أنا على حق، ومذهب غيري أيضًا على حق، ما دام الأمر دائرًا بين أسرة أهل السنة والجماعة.

فإن قيل لي: هل تنفي صحة المقولة: «رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأيي

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٣٨، ومسلم برقم: ١٧٣٣.

(٢) وسمعت الدكتور عبد الكريم بكار حفظه الله يسميه بـ: «الاستعلاء المنهجي».

غيري خطأ يحتمل الصحة؟

أقول: بل هي صحيحة في نظرة الإنسان إلى نفسه، وإلى المذاهب الأخرى، إذ إن اجتهاده أو تقليده لمذهب أوصله إلى قول، فهو الراجح لديه، ويُحتمل أنه خطأ، ورأيي غيره في نظره خطأ، ولكنه يحتمل الصحة، ولكن الفرق كبير بين هذا، ونظرة الضلال للمخالف، أو السخرية به، كما نهج بعض صغار العقل والعلم.

النمو السرطاني

والكلام الآن كله عن الاختلاف في الفروع، ولست متعرّضاً لأصول العقيدة، ولا مُميّعاً للثوابت، ولا حاكياً عن قطعيات الدين.

كما أنني لا أرى إثبات شواذ المسائل الفقهية، وشذوذات بعض العلماء، إنما كلامي في المذاهب والآراء المعتمدة، ثم الآراء الضعيفة التي يحتاج إليها المفتي لإنقاذ دين المرء من أحوال الحرام.

ولكن أقواماً من الدعاة المرموقين والمتصدّرين في وقتنا ضخّموا الفروع الفقهية ضخامة سرطانية، بحيث سحبوا بعض الفروع فضمّوها إلى الأصول، وألحقوا بعض الجزئيات الصغيرة بالأصول الكلية، وصوّروا المختلف فيه كأنه متفق عليه، فيذكرون في كتب العقيدة بعض الأحكام الفقهية، واشتدّ قولهم، وعلا صوته في مسائل تشنّجوا فيها، حتى أوهموا السامع أن المسألة مما اتفق عليها السلف والخلف، وهي فيصل الحق من الضلال، والحد العازل بين أهل السنة والزائغة قلوبهم.

يرفع أحدهم صوته: كلا، إن سنة الجمعة القبليّة لبدعةٌ قبيحة.
 ويصيح ثان: الذكر الجماعي بدعي، وكذا الجهر به، ولا يؤجر صاحبه، بل يحاسب، وهو جاهل أو مُتجاهِلٌ مؤلفات العلماء وفتاويهم في المسألة^(١).
 وثالث يقول: الدُّفُّ غير مشروع في ديننا للرجال.
 ورابع أدرج مسألة التوسل بالنبي ﷺ والصالحين في كتب العقيدة.
 وخامس يصوّر مسألة حلق أو ترك شعر الوجنتين قولاً فيصلاً.
 وسادس يُصَيِّرُ مسألة إنكار شد الرحال إلى خندقٍ مَنْ لا يحب النبي ﷺ.

وَضِدُّه بالغ في إنكار مسألة شد الرحال إلى زيارة المصطفى ﷺ، ووضعها في كتب الاعتقاد.

ومثله من غير مسألة الحليف بغير الله فجعلها مسألة عقدية متفقاً على كفر مَنْ حلف بغير الله، من غير تفصيل معروف، محله في كتب الفقه، والحديثُ ثابتٌ في حَلِفِ النَّبِيِّ ﷺ بقوله: «أَفْلَحَ، وَأَيُّبِهِ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَيُّبِهِ إِنْ صَدَقَ»^(٢)، ورُوِيَ أنه لما سأل الرجل: أَمَا تَكُونُ الذَّكَاءُ إِلَّا فِي

(١) للحافظ السيوطي فتاوان في كتابه: «الحاوي للفتاوي» ٢: ١٢٦ وما بعدها، وأفردتها بالتأليف العلامة الشيخ أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي (ت: ١٣٠٤ هـ)، رسالة لطيفة سماها: «سباحة الفكر في الجهر بالذكر»، وحقّقها العلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ)، رحمهم الله جميعاً.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١١.

الخلقِ أَوْ اللَّبَّةِ؟ قَالَ: «وَأَبْيَكَ لَوْ طَعَنْتَ فِي فَخِذِهَا لِأَجْزَأَكَ»^(١).

وقال أحدهم: لو ألفت كتابًا في العقيدة لحَرَمْتَ فيه حلق اللحية، وأوجبت الثَّقَاب.

وهكذا تستمرُّ المعركة.

تبًّا للعقول الضيِّقة، أليس الدُّفُّ مشروعًا في مذاهب جماهير العلماء؟

أليست الصلاة قبل الجمعة مسنونةً عند السادة الشافعية والحنفية^(٢)، ولهم نصوص وأدلة استدلو بها؟ وجمع أدلتها الحافظ ابن الملقن (ت: ٨٠٤ هـ) رحمه الله في رسالة خاصة اسمها: «سنة الجمعة القبلية».

ألم يكن الذكر الجماعي منصوبًا عليه عند كثير من الأئمة؟

فما بال هذه العقول تحكم في اتجاه دون آخر؟ وتحمل الأمة جمعاء على مذهب واحد؟

كم ضاق صدري وأنا أقرأ في مقدمة كتاب: «دفع الأوهام عن مسألة القراءة خلف الإمام»، لفضيلة الشيخ عبد الغفار عيون السود (ت: ١٣٤٩ هـ)

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم: ١٨٩٤٧، دون ذكر القسم، ثم عطف عليها القَسَمَ عقبها مباشرة برقم: ١٨٩٤٨، قد يقال لي: لقد أشرت إلى ضعف الحديث بقولك: روي، فلم تذكره إذن؟ أقول: لست أستدل به على حكم فقهي، ولكن إشارتي: لو أنه شرك متفق عليه، فهل يستجيز الإمام أحمد أن يروي هذا الحديث في مسنده، مع نسبة القول للنبي ﷺ! وإن كان عمدي الحديث الأول الذي رواه مسلم، وهذا من باب زيادة التأكيد لا غير.

(٢) انظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» ٢٥: ٢٧٨.

رحمه الله، وهو يتحدث عن سبب تأليف الكتاب، فذكر: أن رجلاً شافعي المذهب حكم بكفر السادة الحنفية، وذلك لأنهم لا يقرؤون الفاتحة خلف الإمام، وبناء على هذا الأمر فصلاتهم باطلة، وينتج عنها أنهم لا يصلون، وبين المرء والكفر ترك الصلاة، فهم كفار!

قاتل الله سوء الفهم ما أتعبه!

أنت مخطوطة فريدة، وغيرك كذلك

عند وصف الكتاب القديم المخطوط بخط اليد يقال أحياناً: «هذه مخطوطة فريدة». ويعنون: لها تميزاً عن غيرها، فهي إما وحيدة لا أخت لها، أو لها مزايا عن غيرها.

وقد ميّز الله تعالى الناس ببصمة خاصة في الأنامل، وبصمة في العين، وأخرى في الصوت، وما هو جميل في إنسان قد يكون عيباً في آخر.

خطب شاب الجمعة وكان قد تدرب على الخطابة في إحدى المدارس الشرعية في مدينة حلب، وكان أستاذ الخطابة يحث الطلبة على الاستفادة من أسلوب خطيب مؤثر سماه لهم، فأراد الشاب أن يطبق نصيحة معلمه لينهل من بحر خطابة ذاك الشيخ، لكنه تقمّص شخصيته، وأسلوبه، بل حروفه بذاتها.

خرج في أول لقاء له بالمصلين، والمسجد مسجداً صغيراً في قريتهم الصغيرة، لم يحضر فيه من المصلين غير صف واحد، فنادى في المصلين أن رصوا الصفوف ليتسع المكان لإخوانكم الواقفين في آخر المسجد، ثم كان من

بداية الخطبة أن قال: ومع الخطبة الخامسة والخمسين بعد المئة الرابعة.
كم أفسد تَقْمُصُ الشخصية الأعمى من النتائج، وكم أضحك من
ثكالي.

الاستفادة من الأسلوب أمر رائع، ولكن لكل شخصيته وطريقته في
التربية والتعليم والإشارات والحروف والأمثلة، وقد تكون في شخص مزية،
فإن تقلدها غيره أصبحت مَذْمُة وسُخْرِيَّة.

والعاقل من عرف نفسه أنه مخطوطة فريدة، وليس لها أي نسخة في
العالم، وله أن يستفيد من أسلوب غيره بصورة عامة.

وما أبدع التصوير الذي صوّره لي أستاذي في الأدب والشعر والفكر،
الدكتور أحمد البراء الأميري (ت: ١٤٤٥ هـ) رحمه الله، قال لي: تتلمذت على
علماء من العالم الإسلامي كثيرين، وكان منهم الشيوخ الأجلاء: مصطفى
السباعي (ت: ١٣٨٤ هـ)، وأبو الأعلى المودودي (ت: ١٣٩٩ هـ)، وعبد الرحمن
زين العابدين (ت: ١٤١١ هـ)، ووالدي عمر بهاء الدين الأميري (ت: ١٤١٢ هـ)،
وعبد الفتاح أبو غدة: (ت: ١٤١٧ هـ)، ومصطفى الزرقا (ت: ١٤٢٠ هـ)، وأبو
الحسن الندوي (ت: ١٤٢٠ هـ)، وغيرهم كثير وافر، رحمهم الله جميعاً، ثم
خرجت بلوحة متنوعة خاصة بي، جمعتها من كل هؤلاء، وما كنتُ نسخة عن
أحدٍ بعينه.

إي والله، هكذا العمل الصحيح، ومن الطبيعي ألا يعجبك تقمص
الشخصية، والتقليد الأعمى، كالذي أعجب بشيخه الفذ المتألق، فقلده في

ضُحْكُوتِهِ، وَحَدِيثِهِ، وَسُكُوتِهِ، وَعَبَثِهِ فِي لَحِيَّتِهِ، وَطَرِيقَةِ إِغْمَاضِ عَيْنَيْهِ فِي أَثْنَاءِ الْحَدِيثِ أَحْيَاءًا.

خطيب أبكى وآخر أضحك

يُحْكِي أَنَّ أَحَدَ عُلَمَاءِ حَلَبِ الْأَقْدَمِينَ جُمِعَ عَلَى الْمَنْبَرِ خُطْبًا بَعْدَ جُمُعِ السَّنَةِ، مَعَ مَوَاسِمِهَا، فَإِذَا صَعِدَ الْمَنْبَرِ غُرَّةَ الشَّهْرِ الْمَحْرَمِ، كَانَتْ الْخُطْبَةُ عَنِ الشَّهْرِ الْمَحْرَمِ، وَفِي الْأُسْبُوعِ الْأَوَّلِ مِنْهُ عَنِ عَاشُورَاءَ، وَفِي الثَّانِي لَهُ مَوْضُوعُهُ، وَهَكَذَا، تَمَرُ الْأُسَابِيْعِ وَالْأَشْهُرِ، وَلَا يَخْرُجُ إِلَى الْمَنْبَرِ فِي مَنَاسِبَةٍ إِلَّا كَانَتْ الْخُطْبَةُ مَهِيأَةً لَهَا، وَفِي ثَنَائِهَا الْأُسْبُوعِ الْأَوَّلِ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْعَشْرَ الثَّانِي، وَالْعَشْرَ الْأَخِيرَ، ثُمَّ خُطْبَةُ الْعِيدِ، وَهَكَذَا فِيمَا قَبْلَ وَبَعْدَ.

وَمِنَ الطَّرِيفِ أَنَّ الشَّيْخَ إِذَا انْتَهَى مِنَ الْخُطْبَةِ قَلْبَ وَجْهَهَا، ثُمَّ وَضَعَهَا عَلَى طَرَفِ الْمَنْبَرِ، وَهَكَذَا حَتَّى نَهَايَةِ الْعَامِ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ طَبَقَةَ الْخُطْبِ بِتَمَامِهَا، وَيَقْلِبُهَا قَلْبَةً وَاحِدَةً، فَتَصْبِحُ أَقْدَمُ خُطْبَةٍ - وَهِيَ أَوَّلُ الْمَحْرَمِ - أَوَّلَ شَيْءٍ.

وَالْعَجِيبُ الْغَرِيبُ أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ كَانَ قَدْ رُزِقَ الْإِخْلَاصَ فِيمَا يَبْدُو، وَلَهُ قَبُولٌ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَسْمَعُ الْخُطْبَةَ الْمَكْرُورَةَ الْمَعْرُوفَةَ الْمَحْفُوظَةَ إِلَّا وَيَبْكِي، وَلَا تَكَادُ تَدْخُلُ الْمَسْجِدَ وَقْتُ الْخُطْبَةِ إِلَّا رَأَيْتَ الْبَكَاءَ وَالْعَوِيلَ مُرْتَفِعًا فِي جَنَبَاتِهِ، وَهَذَا قَدْ غَطَّى رَأْسَهُ، وَذَاكَ لَهُ خَنِينٌ.

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ الشَّيْخُ الصَّالِحُ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَنْبَرِ رَجُلٌ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِلْخُطْبَةِ، وَلَا هُوَ مَوْضِعُ قَبُولٍ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَا أَعْرَفُ دَخَائِلَ سَرِيرَتِهِ، وَلَكِنْ: «مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ

وَقَلَّتَاتِ لِسَانِهِ»^(١)، فاستلم الخطبة متقمِّصًا شخصية الشيخ الراحل، الذي يَبْكِي النَّاسَ بمجرد سماع حروفه، بَلَّهَ مِنْ أَوَّلِ نَظَرَةٍ إِلَى طَلْعَتِهِ، تَقَمَّصَ شَخْصِيَّةَ الشَّيْخِ بِالْوُقُوفِ، ثُمَّ نَفَخَ عَلَى الْخُطْبَةِ الْقَدِيمَةِ - كَمَا كَانَ الشَّيْخُ قَبْلَهُ يَفْعَلُ - لِيُزِيحَ عَنْهَا الْغُبَارَ الْمُتْرَاكِمَ مِنْذُ أَمَدٍ، وَشَرَعَ فِي الْخُطْبَةِ، فَلَمَّا انْتَهَى كَانَ مَعْظَمُ الْمُصَلِّينَ يَكْظُمُونَ ضَحْكَهُمْ لِكَثْرَةِ مَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ هَنَاتٍ، وَلُبُّعَدِ الْخُطْبَةِ عَنْ حَالِ الْخُطِيبِ.

علق الشيخ محمد الحجار الحلبي ثم المدني (ت: ١٤٢٨ هـ) رحمه الله على هذه القصة فقال: «الْأَلْفُ هِيَ الْأَلْفُ، لَكِنْ الْأَنْفَاسُ تَخْتَلِفُ»، يقصد: الحروف التي وردت في الخطبة هي نفسها تَكَرَّرَتْ عَلَى كَلَا اللِّسَانَيْنِ، وَلَكِنْ رُوحُ الْعَالَمِ كَانَتْ لَهَا مِشَارَكَةٌ فِي قَبُولِ النَّاسِ أَوْ رَدِّ الْكَلَامِ.

الجمع بين الانتماء والبيقظة وضربته

وهكذا تبين كيف ينتمي الداعي إلى شيوخه الذين ربوه وأثَّروا في تكوينه العلمي، وتأصيل شخصيته، ولكن بيقظة ومحاولة جمع لمحاسن الكل، حتى يصل إلى شَخْصِيَّةٍ مُجَمَّعَةٍ الْمَحَاسَنِ، مَعَ تَرْكِ مَا لَا يُوَافِقُ عَلَيْهِ، وَمَا هُوَ ثَوْبٌ خَاصٌ بِصَاحِبِهِ لَا يُقَلَّدُ فِيهِ.

لكن لهذا الحال من حرية التفكير والاعتقاد ضريبة، وهي أن الجامدين من الأتباع سيتهمونك بالميوعة، وأنت لست ممن تابع الشيخ الأساس بصدق،

(١) من أقوال ذي الحياء، صهر حبيبي ﷺ، سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في «الآداب الشرعية» لابن مفلح، ١: ١٩٤.

وقد تُتَّهَم بالذبذبة، لأنَّهم يرونكَ توافق الشيخ في أمورٍ وتخالُفه في أخرى، وتفكِّيرُهم لا يعرف هذه الحال إلا أنها تذبذب.

ولكن الفطن يعلم: أن تطوير الطالب أفكاره وتعديله عمَّا ورثه من شيوخته حالةٌ صحيحةٌ ضرورية، وأن المرض يكمن في حالتين:

١- التقليد الأعمى.

٢- الارتداد بشراسة وسوء أدب عما تَرَبَّى عليه، كمثل الذي تبرأ من تربية أبيه.

فكن داعياً يجمع الرحيق من كل الشيوخ، ليخرج منه شراب مختلف ألوانه فيه هدايةً للناس، لا يشبه عسلَ دعوته عسلاً آخر، ولن يغني فردٌ عن صديقه، والعلماء كالأزهار، لكل زهرة لونٌ وريحٌ مختلفٌ عن الآخر.

النفاق للعوام وأمثالهم

ومن الناس مَنْ عقيدته وتعليمه يتبعان منفعتَه الشخصية، ولو تحوّلت الفائدة من جهةٍ إلى أخرى لتحول المُعتَقَد، ولو تغيّرت العُصبة المستمعة له، أو المسجد ورؤاؤه، أو البلد وأهله لتغيّر جذرياً.

لقد حَذَّر العلماء كثيراً من سوء نفاق العالم للحاكم، وذلك لشيوع هذا الأمر في الزمن الأول، ولكني في زمن أصبح من الواجب علي أن أقول: نفاق الضعيف للأقوى، أو نفاق ذي الحاجة لمن يحتاجه، وأخص بالذكر بعض أنواع النفاق.

النوع الأول: نفاق الداعي للعامة!

النوع الثاني: النفاق لمن يتقاضى منهم الأجر، ك لجنة المسجد.

النوع الثالث: النفاق للمسؤولين والوزراء والحكام.

النوع الرابع: النفاق لمن يظنُّ لهم شأنًا في القابل، كأبناء الوزراء والملوك والمسؤولين.

وكل هذه الأنواع لا تحتاج إلى كبير شرح، باستثناء النوع الأول، فإن طرحه غريبٌ، وقد نصَّ العلماء على كبيرة نفاق العالم للحاكم فأصابوا، ولكن قد يظنُّ أن نفاق العالم هو للسلطان فقط، لا وألف لا، فإن أنواع النفاق كثيرة قد يصعب حصرها، منها نفاق العالم لقبيلته، أو لعصبته، ومن أسف أنواع النفاق لدى الدعاة أن يكون للمستمعين إليهم.

أجل، هناك بعض التزلف من قبل الداعي إلى الجالسين على درسه، والملازمين لحظيه، فهو أدري بما يعجبهم، فلا يخطب إلا ما يوافقون عليه، ولو خرج عن الخط المرضي أنملة هلك، فمن أسباب الحفاظ على مكانه ومكانته ألا يقول في قضية ظلم: لا تشهدني، فإني لا أشهد على جور^(١)، ولا

(١) فيه إشارة إلى الحديث الصحيح: عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: أَنَّ أُمَّهُ بِنْتُ رَوَاحَةَ سَأَلَتْ أَبَاهُ بَعْضَ الْمَوْهَبَةِ مِنْ مَالِهِ لِابْنِهَا، فَالْتَوَى بِهَا سَنَةً ثُمَّ بَدَأَ لَهُ، فَقَالَتْ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا وَهَبْتَ لِابْنِي، فَأَخَذَ أَبِي بَيْدِي وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمَّ هَذَا بِنْتُ رَوَاحَةَ أَعْجَبَهَا أَنْ أُشْهَدَكَ عَلَى الَّذِي وَهَبْتَ لِابْنِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بَشِيرُ أَلَمْ تَكُنْ سَوَى هَذَا؟» قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: «أَكُلْتُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَلَا تُشْهَدْنِي إِذَا قَاتَيْ لَا أُشْهَدُ عَلَى جَوْرِ». الحديث أخرجه البخاري برقم: ٢٦٥٠، ومسلم برقم: ١٦٢٣، وهذا اللفظ.

يقول لإمام صلى في الناس وأساء: أفاتن أنت يا فلان^(١)، ولا يفتي إلا بما يوافق هواهم، ولا يخطب إلا بالموضوعات الرائقة لهم، وما يُحَوِّز رضاهم، ولو لم يرضوا لغير من سلوكه حتى ينال إعجابهم ورضاهم، فيخطب ما يحركهم ويوافق هواهم، ويخطب بالقدر الذي يسمحون فيه، ولا يطيل أكثر، ولو اضطره الأمر أن يقطع الخطبة.

أفدَمَ فاحترق، ثم تقدَمَ فاحترق

وما أجملها من طُرْفَةٍ حصلت مع بعض إخواني، وهي أنه كان يخطب في قصرٍ خاص لرجل ثريٍّ وجيه ذي منصب، ويصلي في هذا المسجد مَنْ حضر من المرافقين والخدم وسكَّان القصر ومن يُلَوِّذُ به، وخطر ببال صديقي أن يخطب في إحدى الجمَع عن الموت، وكانت عينا ذاك الوجيه تدور وقت الخطبة كأنه مجنونٌ، ويظهر على وجهه غليانٌ دماغه، وحرارةٌ دمه، وما إنْ نزل من المنبر حتى استلمه ذاك الخائف يقول له منبِّهاً ومحدِّراً، ومعلِّماً ومنذِراً: إِيَّاكَ مِنْ مثل هذه الخطوة الطائشة، وَمَنْ قال لك نحن بحاجة للحديث عن الموت! أليس الأولى بك أن تحدثنا عن نعيم الجنة وما أعدّه الله تعالى من المكرمات؟ أليس في الجنات حور عين كأنهن بَيُضٌ مكنون؟ حدثنا عنهن فإننا أحوجُّ ما نكون لمعرفة أخبارهن، أَلَمْ يَأْنِ للمشايخ أن يتعلموا ما نحتاجه؟ إننا بحاجة للحديث عن طعام أهل الجنة، وإكرام أهل الجنة، والخلود في الجنة، وجميع أخبار الجنة.

(١) فيه إشارة إلى الحديث الصحيح الذي سيأتي ص: ٢٨٩.

عرف صديقي من صريح عبارته ما يرغب فيه، لا ما يحتاج إليه، فلفَّ الحديث عن غير الجنة ورماء، وضرب صفحاً عن أحاديث العذاب، وسبَّح بهم سنين يُحدثهم عما لا يغيّر في حياتهم قيد أنملة، ولا يُصحّح من سلوكهم شعرة.

ومثلها قل في كل موقف يُرضي به العالمُ العامة، فمن العوام من أصحاب بعض المدارس مَنْ يحبون الكلام عن البدعة، والتحذير من البدعة، ورمي الناس وتصنيفهم بحسب ما يظهر منهم من أعمال، في الوقت الذي تجد آخرين يحبون الحديث عن محبة النبي ﷺ، وغيرهم لا يرضى بغير الكلام عن المخترعات وما توافقت به مع الأخبار النبوية، وهكذا يتنوعون.

ومن هنا تعلم أن أنفُس المدعوين إجمالاً تميل إلى الخطاب الذي فيه تبشير، وتنفر من عكسه، فهم يعجبون بالحديث عن الحور العين، ويكرهون الكلام عن النار، وعن وصف عذاب الله تعالى، ويفرحون بكيل مدحهم، ووصفهم بخير أمة أخرجت للناس، ولولا أنها آية في القرآن لأنكروا تمام الخطاب: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ يَقْبَهُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] وما حيلة الداعي إلا الموازنة في إلقاء الخطاب، حتى تصل رسالة الله تعالى دون تشويه ولا بتر ولا تحريف، ويحافظ على السامعين من أن ينفروا أو يتركوا التدبُّين من سماع الكلم الذي لا تحبه نفوسهم.

إنه النفاق للعوام، وبئس الإمام من يتحرك بأوامر مقتديه، فلا يركع حتى يشير إليه المصلون أن اركع، ولا يرفع إلا بإشارة، فمن لم يكن أهلاً

للاستقلال عن أوامر الدَّهْمَاءِ فلينفذ يديه من عَنَاءِ الدعوة، فإن الدعوة لا ترضى أن تجلس مكان الصَّغَارِ، ولا تدخل ظلمات الشهوات.

فلا يغررك مكاؤهم وتصديبتهم^(١)

النفس البشرية تحب من يمدحها ويثني عليها، ويتخاطف الداعي أمران: الأول: إبلاغ الدعوة على النهج الذي يرضي الله، والآخر: كسب قلوب العامة، فإذا تحدث بما لا يحبون نفروا، ولكني أقول له: كن على المنهج الإلهي في تبليغ الدعوة، فإن أعجبهم حسنهما فسبحان من سَخَّرَ قلوبهم، وإن لم يكن كذلك، فلا تحرف بُوَصْلَةَ عملك، ولا يغررك كثرة المصقِّين لحديثك، فليس النجاح مبنياً على العدد، ولكن انظر إلى نوع القادح أو المادح، فلا يُهْمُّكَ من الذي مَدَحَ، إنما يُهْمُّكَ مَن الذي مَدَحَ!

- قد يسمع الداعي الرصين النقد من جهلة العوام فتبتئس نفسه، أو يسمع المدح من محب شُغُوف فَتَرُكَنَ، وكلاهما مرضان، فلا المدح بناءً على القرب نافع، ولا الذمُّ من جاهل مؤثر.

سَبَّاحُ المحيطات أخفق في بركة

لا عجب أن ترى سَبَّاق الدراجات الهوائية الماهر غير قادر على قيادة دراجة في حارة صغيرة، فإن أحببت الإفادة منه فهمي له المكان المناسب، وإياك أن تتوهم قدرته على المكان الصغير، قياساً على المكان الأكبر.

ومن قال: إن شيخ العشيرة القادر على إصلاح ذات البين للكبار عنده

(١) المكاء: الصغير، والتصديق باليد. انظر: «كتاب العين» للفراهيدي، مادة: مَكَّو.

أسلوب التحبيب والإصلاح بين الطفلين المتخاصمين؟ ومن ذا الذي توهم قدرة مصلح السيارات الكبيرة والآليات الضخمة على إصلاح عطل صغير في سيارة خفيفة؟

عجيب أمر من يعطي الحكم بدهية زائدة في أن الطبيب الجراح الماهر أقدر على ختان الطفل الصغير من مختص الختان، إذا كان هذا الأمر في أمور حياتية يعتقد الإنسان أنها معقدة، فكيف بأمور تبليغ شرع الله تعالى؟

أيصلح المفكر الكبير لتدريس الطلاب الصغار؟ كان أحد شيوخنا من أهل الصفاء العالي، وكان يدرسنا - نحن الطلبة - مادة الشرائع المحمدية المباركة في المرحلة الإعدادية والثانوية، وكان الطلبة ينتظرون درسه بفارغ الصبر خلال الأسبوع، فخلف من بعدنا خلف من الطلبة بعد أن كبرت سن الشيخ قليلاً، وتباينت وجهات النظر بين الطلبة والمدرس على أثر الانفتاح الهائل السريع في الاختراعات، وفي أثناء الدرس، أو بعد أن يلقيه الشيخ: يرفع الطالب يده، ويظن المعلم المخلق في سماء الروح أن السؤال حول شرائع المصطفى ﷺ، أو أسباب رؤية المصطفى ﷺ في المنام، - كما اعتاد هذا على ممر سنوات طوال - يُصعق الشيخ بطالب يقول للمدرس: ما حكم تقبيل الفتاة؟ وغيره لديه سيل من الأسئلة التي تدور في تلك الأزقة!

تم تعيين شيخ القراء في حلب مدرساً لمادة التجويد لطلبة الثانوية وقتئذ، فظلم الشيخ وظلم الطلبة، فما أُعطي الشيخ حقه، ولا أفاد الطلبة من علم الشيخ، لأن الثباين الذهني شديداً بينهما، أما وجد ذاك المدير غير الشيخ لهذا المكان؟ ظني أنه توهم حسن الصنيع، ولكن الشاب القريب من أسنان

الطلبة أقدرُ على ضبطهم، وحسنِ التفهيم لهم.

المهارةُ في الدعوة هو انتقاء الأصلح للمكان والزمان والمتلقين، وليس بالضرورة أن يكون الأعلَم أو الأكبر أو الأخبر أو الأكثر تميزاً على الإطلاق.

لكن عون الله استنقذه

لا بُدَّ أن أعرض صرخة إيمانية تأتي كالغيث من الله تعالى إلى المَجْنِي عليه، بمعنى: أن يغسل الله تعالى الشبهة من رأس العامي، وتخطر له بعض الإجابات التي قد لا يستحضرها عالم قوي.

حدثني شيخي الجليل الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٢٩ هـ) رحمه الله: أن رجلاً وضع حذائه في أرض الحرم المكي، ووضع فوقه المصحف! فرآه رجل عامي سهل المِرَان، محبُّ لله تعالى، معظِّمٌ لشعائره، وهالَهُ هذا المنظرُ المهينُ وكأنَّه قد قَصَمَ ظهره، وفتَّتْ كَبِدَه، فاعترض على القارئ واستنكر، فأجابه القارئُ ببرودةٍ: أنا وضعت المصحف فوق الحذاء وليس تحته! هل عندك دليل على عدم جواز هذا الفعل؟

دنا الرجل ورفع المصحف بيده اليمنى، وتناول الحذاء بيده اليسرى ليضعه على رأس القارئ، وقد فعلها! صرخ القارئ بدون وعي: وماذا تفعل يا مجنون؟ تضع الحذاء على رأسي؟ يا لَلْحماقة والرعونَةِ! ابتسم الغيورُ وردَّ له السؤالُ نفسه: وهل عندك دليلٌ على عدم جواز وضع الحذاء القدرِ على رأسك؟

إن هذا الذي طالب بالدليل لضحية من ضحايا أنصاف الشيوخ، الذين

خدعوه بأنه أهل للنَّظَرِ في الأدلة، ولكن وابلَّ عَوْنِ الله تعالى هطلَ على العاميِّ الآخر، ولقَّنه حجَّته سحًّا لا سطرًا.

الانتهاام المعلَّب لمن يسأل خارج المألوف

وما بالغت عندما وصفته بالمعلَّب، إنها علب تُهمِّم، مصفوفة على رفوف متولي كِبَرِ الانتهاام، المتريع على عرش غرور الطاعة، يرى نفسه وصيًا على دين الله، محاسبًا لكل متكلم، مفوضًا بحساب العباد، وقسمهم إلى فريق في الجنة وفريق في السعير، لديه بضاعةٌ فيها الحكم على الناس ضمن عُلب مغلقة، فمنهم المستحقُّ للعقاب وهم السواد الذي سدَّ ما بين الخافقين، وقليلٌ مَنْ يستحقُّ رتبة الشَّرَف، وعلبةٌ قد كُتِبَ عليها براءةٌ من النار وبراءةٌ من النفاق - وهي له وللخاصة جماعته -.

وحديثي الآن مَصْبُوبٌ على الانتهاام المعلَّب لكل سائل خارج المألوف، فمن حق السائلين أن يسألوا عن أي أمر مكرر معروف، ولكن جام الغضب سيصب دفعة حارقة إن فاه أحد بسؤال خارج المألوف، وأقرب الشَّيْءِ تهمة: من أين تأتي بهذه الأفكار؟ من الذي يلقُّنك السموم؟ أتحبُّ الله ويخطرُ ببالك الشكُّ وتُخالِجُك الظنون؟

فحلّال أن يسأل السائل ما أركانُ الوضوء، ومثله إن قال: ما مبطلات الصلاة؟ أما أن تعرِّض له الشبهة التي ألقاها له أدعياء الفكر التنويري - بل التظليمي - من تناقض بين القرآن والسنة، فهذا ما يدل لدى المسؤول على أيد تعبث في فكر السائل!

نعم نعم: أقولها بكل صراحة، إن دخيلاً عابثاً يعبث في فكره، فأين جهودك أيها المريّ لتزِيلَ الشُّبْهَةَ من رأسه؟

وهذا كله يرتبط بسبب آخر، إن لم أقل هو عائد إليه من طريق ثان، عبّرت عنه بقولي: «الأمنُ التَّقْصِيّ والفكرُ في الحوار».

يا أيها المعلم: السؤال مسموحٌ به وغيرُ محذور، ولو كان لدى السائل شكٌّ بالله تعالى، وإلا فكيف تزولُ الشبهة، وإلى مَنْ يلجأ صاحبُ الشبهة؟

أُسْلُوبُ الْمَوَافَقَةِ الْمَفْضِي إِلَى الْمَخَالَفَةِ

والهدمُ أمرٌ هيّن، لكنَّ البناءَ هو الصعبُ، فمن شاء فليقارن بين كسر الزجاج وصنعه، أو صنع سيارةٍ وتحطيمها، فمن ذا الذي لا يحسن زرع الشبهات في الناس، أكان هذا صعباً؟ إيداع الشكِّ سريع مرن يسير، ولكن ما أصعب قَلْعُهُ!

إن اللَّبَاقَةَ لأمر ظاهره السُّهولة، وحقيقته عند الأزمات صعبةٌ، وأصعبها إمرارُ الكلام في حارة ضيّقة من المخالفات، من غير خَدَشِ جُذْرَانِ الْأُخُوَّةِ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، فأين المحسنُ والمتنبّي لها؟

ومن الوعي أن يحافظ العالم والداعي على جليسه، فطالما جالستُ وسمعت مَنْ طَرَحَ مسألةً خطأ، فرد عليه أحد الحاضرين بنبرة عالية، وصوت جَهْوَري: «لا، لا، لا، ليس كذلك»، وهذه الحروف على قِلَّتِهَا قد تبني أكبر سُورٍ حاجزٍ بين المرء وأخيه، وبمقدورِ هذا أن يصحَّحَ لأخيه بطريقة الموافقة، التي هي عينُ المخالفة.

وأضرب على ذلك أمثلة:

كنت في مجلس عزاء، وفي الحاضرين من يظن نفسه أنه عليم في فقه الدين والفتوى، وقد طرح رجل سؤالاً: أيُّ كُتُب الشافعية متوسط الحجم ليسهل تناوله، فلا أريد مختصراً، ولا أريد مطولاً.

انبرى ذاك المغرور - وفي المجلس عدد من العلماء - وبادر بالإجابة قائلاً: برأيي: هو كتاب: «المهذب» لأبي إسحاق الشيرازي (ت: ٤٧٦ هـ)، فليس هو ك: «متن سفينة النجاة» لسالم الحضرمي (ت: ١٢٧١ هـ)، ولا هو ك: «المجموع» للإمام النووي (ت: ٦٧٦ هـ) - رحم الله الجميع -.

وهذه إجابة غاية في الخطأ، إذ إن كتاب أبي إسحاق لا يصلح لعامي يريد أن يتفقه في الدين، ولعل أحسن جواب عقب ذاك الجواب الخطأ أن يقال لصاحب الإجابة: نعم من حيث الحجم يعد «المهذب» بين الكتابين، ولكن سيجد أخي فلان صعوبة في عبارته، إذ إن عبارته تصلح للفقهاء، وليس للمثقف الذي يبحث عن الفقه، ثم يلتفت إلى السائل ويقول: لعل أصلح كتاب لك هو «فتح القريب المجيب في شرح ألفاظ التقريب» للعلامة ابن قاسم الغزي (ت: ٩١٨ هـ) مثلاً.

طلب ضيف من مُضيفه مقرّضاً ليقرض أظافيره، فرد عليه صاحب البيت: إنها أدوات استعمال شخصية، ولا ينبغي تعدّد المستعملين لها.

تغيّر وجه الضيف، ولو كنت مكان الأخ، لدخلت إلى البيت وسعيت قليلاً في غير مكان المقرّض المألوف، ثم خرجت واعتذرت إليه أنني لم

أجدها، ثم أحضرُ مقراضًا جديدًا من أقرب بِقَالَةٍ ليستعمله، ويحفظه لنفسه، وما هو بشيء له كبير ثمن.

كنت في مجلس وجرى مثال أدبي في نوع من أنواع الجنس، ونفى أحد الجالسين أن يكون هذا النوع موجودًا في الشعر القديم أو عند الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فرد عليه أحد الجالسين بنبرة شديدة: لا لا لا، هو في القرآن الكريم، وأتى بالآية.

وكان الأليق أن يردَّ: أي نوع قصدت؟ لأن الجنس مذكور في القرآن كما في عِلْمِكُمْ، وذلك في قوله تعالى كذا، وقوله كذا، ولكن ما الذي قصدتم؟

خلاصة القول: إنك لقادر على التغيير والإصلاح بلغة ناعمة غير مصادمة، ومثل هذا الأسلوب الذي ظاهره الموافقة، وحقيقته عينُ المخالفة يجبرُ كسر القلوب، ويمنعُ بناء الحاجز عن قبول الحق.

عقلية الاحترافية في غير موضعها

لا شك أن حبَّ الكمال حالةٌ صحيحة وليست خطأ، ولكن إذا كان في مكانه اللائق، فلا أرضى في أطروحة الدكتوراه إلا أن يذكر الحديث مضبوطًا مخرجًا، معزوًا إلى أصله، مع ذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث، ولكن هذه المعايير يجب قطعها وجوبًا عندما يلقي الداعية كلمة في عزاء أو فرح، فربما يقتصر على قوله: جاء في الحديث الشريف: كذا وكذا.

سيقال لي: إن هذا لأمر بدهي، ولا يحتاج إلى نص ولا إيضاح، فضلًا عن التقييد والتأصيل، أقول: أجل: المثال الذي ذكرته هو موضع اتفاق في هذه الصورة، ولكني أجد بعض الخطباء من يقف ليعظ العامة، وهو الدكتور العالم

المدقق في الحديث، فيخرِّج الحديث ويذكر طرقه وآراء العلماء فيه، وما يمكن أن يردَّ على السمع من تساؤل، ومَنْ ردَّ الحديث وما شبهته، وماذا أجاب المثبت للحديث المُعلَّل له.

وهذه التفاصيل بهذا الشكل هي إخفاق دعوي عجيب.
فالغالب أنه لا يُهم العامي الذي أوردت له الحديث أن يعرف إلا أمرًا واحدًا: ألا وهو: هل الحديث ثابت أو زائف.

فلو عزوت حديثًا فقلت: روى أبو داود الطيالسي (ت: ٢٠٤ هـ)، ثم استدركت فقلت: عفوًا، بل روى أبو داود السَّجِسْتَانِي (ت: ٢٧٥ هـ)، فما الفرق بينهما عند العامي وغير المتخصص في الحديث؟ ألا توافقتني على أن المهم للعامي هو: معرفة ثبوت الحديث أو عدمه؟ إذن فرَّغز عليها، واترك ما سواها، ولا يفهم من كلامي عدم التصحيح إن عزي خطأ، لأنني قصدت تنبيه الداعي على ذكر ما يفيد العامي دون ما سواه، فربما صار الزائد مصدر تشويش له.

وقل مثل هذا في الفقه، والأصول، وغيرها، كما حصل لأحد المتكلمين في مناسبة، عندما قال: «رحم الله علَّالًا إذ عمل كذا». ومَنْ الذي سمع باسم علَّال الفاسي (ت: ١٣٩٤ هـ) رحمه الله من العوام - ولا سيما أهل المشرق - حتى يُفْطَنَ ويعرِفَ أنه المقصود هنا؟

ومثله الآخر الذي قال: «وهذا غير ما في التلويح على التوضيح»، وكأن في العوام من عرف أن في كتب أصول الفقه كتابًا اسمه كذلك.

فإن ترجَّح للداعي عزو قول لقائله فله ذلك، بشرط التبيان المزيل

للإشكال، فلو قال مثلاً: رحم الله علامة المغرب الشيخ علّال الفاسي إذ قال كذا.. لكنت العبارة واضحة.

والفطن العامي يقول: لا يُهْمُنِي أبداً أن أعرف مِنَ الطبيب والصيدي مرگباتِ الدواء وآراء الكبار في آثاره الجانبية، واختلافاتهم، وإنما المهم أن أعرف هل أتناوله أو لا.

ومن مُعَوَّقات هذه العقلية أن صاحبها يكون قليل الإنتاج، ضئيل المحصلة، وغالباً ما تكون منتجاته - إن كملت - دقيقة مُحْكَمَة، وقد تخفق بسبب الاحترافية الزائدة في غير موضعها، وكثير منها مات قبل الولادة. أعرف نجاراً ماهراً في صنعه دقيقاً، لو طلب منه طفل صغير أن يعطيه قطعة خشب صغيرة لعمل على تنميقها زمناً طويلاً، ومثله كثير من علمائنا الذي مات ودفن معه في القبر ألف مشروع علمي، وكلها كانت في ذهنه، ولم ينتج واحداً منها.

لذلك من حِنْكَه الداعي أن يسلك عدة مسالك في حياته، فليست المؤلفات على حد سواء، وليست اللقاءات مثل بعضها، بل تختلف باختلاف الحال، والزمان، والمكان، والمستمعين، فهي كالفُتُوحَات التي تُلبَسُ كُلُّ واحدة في مناسبتها اللائقة.

قُبَعَات الداعي إِلَى اللَّهِ

تتعدد صفات الداعي ومهامه في الدعوة إلى الله تعالى، فمنها: مدرّس المدرسة، والمدرّس في الكليات، والمناقش، والخطيب، والمؤلّف، والإذاعي، والمتكلّم على التلفاز، والمدرّب على الدعوة، والمرّي في المسجد.

فمن أكبر عيوب الداعي أن يبقى على شخصية واحدة في أماكن مختلفة، فبعضها يصلح لمكان لا يصلح لغيره، مثلاً:

يجلس مع أقرانه العلماء ويشرح لهم كأنه في صف يدرس الأطفال ويبسط لهم العبارة، وتتحرك يده بإشارات وعدّ.

يجلس في غرفة مغلقة مع آخرين، أو في غرفة التصوير وهو يخطب بأسلوب الخطابة الجماهيرية.

أو يعظ العامة في المسجد فيتكلم بلغة أكاديمية، كمن قال: أخرج مسلم في كتاب «التمييز»، من حديث شريك بن عبد الله، وهو مما أعلّله الحفاظ، والثابت من حديث فلان، وليس فلان كفلان حفظاً وإتقاناً، أو كالذي شرح للعامة: هل التبرك بالقرآن لذاته؟ أم لأمر معنوي؟ وما هذه التفاصيل بمفيدة إلا لذوي التخصص، فما بال بعض الناس يُلقونها على العوام؟

وقد يجمع الداعي الواحد عدة مَهَامَ، ولكن يستحيل أن يكون الإمام في كلّها، فَلَئِنْ كَانَ الكَاتِبُ المُبْدِعَ، والمُحَاضِرَ المُجَدِّدَ، وقَائِدَ الجماعة، والمُؤَلِّفَ المُبْتَكِرَ، والمنظِّرَ الكبيرَ، والخطيبَ المُقَوِّهَ الذي لا يكرر، ويأتي بالجديد، ويواكب العصر.

ولقد تشبّه لهذا المقام عدد من الدعاة:

فأحدهم مثلاً: داخ على التلفاز له حضوره وله جمهوره، أراد أن يشارك في مجال التأليف، فأعد فريقاً للعمل، وبدأ الفريق بالجمع، فأخذ كتاب فلان برمته، وسرق من كتاب فلان، وقص من كتاب ذاك، ولصق من كتاب آخر،

ولما خرج الكتاب إلى الناس ظهر الشيخ الداعي المبجل بثوب اللصّ، السارق لجهود الناس، العاتي على إبداع غيره، وانفضح الأمر، وعسرت لَمَلَمَة الموضوع، وكان أحد المسروقات كتابُ أخت، رفعت الشكوى للمحكمة، وقالت في مقابلة معها: إنني لا يهمني أن يسرق كتابي من حيث النفع في الدنيا والآخرة، ولكن الذي يهمني أن السمعة القبيحة ستبتعني ما عشت وبعد وفاتي، وسيقال: إن فلانة سرقت كتابها من ذاك الداعي، فهو المشهور دوني، وهو المعروف وأنا مغمورة، فإن رضيت بالهمّ والغمّ والتعدّي، فإن الهمّ لن يتركني، وسيبقى ملصقًا بي، ومما زادني حزنًا على بُؤس أنني قدمتُ الكتاب لذات الشيخ المبجل كي يقرّظه لي، فسرقه برمته وطبعه باسمه!

ويبدو لي أن بعض الفريق لم يقدر خطورة خروج العمل باسم ذاك الشيخ، وأن هذا النتاج العلمي سيؤثر في سمعة الشيخ سلبيًا أو إيجابًا، ولا أدري حجم مشاركة ذاك الداعي في العمل، فإن كان لا يدري عن المؤلفات التي تكتب باسمه فتلك مصيبة، وإن كان يدري السرقات العلمية فالمصيبة أعظم.

إن منا منفرّين وهم يريدون الخير

كان أحد الغيورين على دين الله ينقّر العباد من الالتزام، وولي أمر جماعة من المسلمين مدة فكره الكثير منهم تلك الجماعة، وبدأت تضخم نفسه في عينه يومًا بعد يوم، حتى أصبح يرى نفسه كأنه حامي الحمى، والحارس الوحيد الدؤوب، والعينُ الساهرة.

ومثله أحد أصدقائي على مجموعة من مجموعات التواصل الاجتماعي، وعدد رواد المجموعة بالمئات، فحيث يُوجّه النقد انبرى صاحبي وكأن النقد قد وجه إلى عينه، أو متى سَطَّر أحد سطرًا من مدح، أجابه: واجبنا يا أُخَيَّ! وكأن المدح قد أرسل إليه خاصة!

النية الحسنة تشفع في بعض الزوايا، ويلتمس العذر لصاحبها من جانب، ولكن هيهات أن يُقَرَّر على فعله بتمامه، فما تَشَقَّعَ سيدنا أسامة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ في حَدٍّ من حدود الله تعالى إلا بِنِيَّةٍ صحيحة، وظَنُّها شفاعَةً حسنة، ومع هذا لم يقرَّه المصطفى ﷺ على فعله^(١)، ولم يُشَكِّك في إيمانه، إنما اعترض على جانب واحد من الأمر، وهو جانب الخطأ، فَمُرِيدُ الخَيْرِ يُصَحِّحُ له ويعدِّلُ من فعله، وإن كانت النية صلاحًا.

لقد نَفَّرَ نَفَرٌ منا من دين الإسلام وهو من ذوي السرائر الصافية، والنوايا الكريمة.

- رجل لا يجلس في مجلس إلا ويغتصبُ أوقات الحاضرين باستلام الحديث من أول الاجتماع إلى آخر لحظة، وليس عنده غيرُ كَيْلِ المديح

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَحِمَهُ اللهُ عَنْهَا أَنَّ فُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالَ: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الثَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَائِمُّ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». أخرجه

لشيخه وأقواله وعائلته وزياراته، حتى كره الناس شيخه عن بُعد، وتَجَنَّبُوا لقاء التلميذ المُحِبِّ للخير، وما نية التلميذ إلا دلالة الناس على باب لَمَسَ عظيم نفعه ورأى فيه الهدى.

- مفتٍ لا يفتي الناس إلا بمذهبه الذي يتعبدُ الله به، وينسف أقوال الأئمة الآخرين بسخرية وتصغير وتحقير، وهو يرى أنه يدل الناس على خير أعانه الله عليه.

- شباب مملوؤون بالطاقة والحيوية، التزموا عند شيخ مُحْدُوِدٍ فما ملأ أعينهم، ولا سدَّ فراغهم الروحي، تدرّون لم؟ لأنه لا جديد عنده في الحديث، فالإسلام عنده عبارة عن ثماني مسائل، وكلّما سأله الطلبة عن أمر غيره، هرب من الجديد باتجاه مواضع اهتمامه، فمثلاً: سأله أحد الطلبة عن نصره الحبيب ﷺ في الإساءة التي وجهت إليه في المرة الأخيرة، فقال له: ما رسمه أعداؤنا إلا من تركنا لديننا، ولو أنك كنت ممن يحافظ على السنن الرواتب لما رسمه أعداؤه!

ولن أطيل في هذا الجانب، فما كل عمل أخلص فيه صاحبه هو صواب، إنما الواجب أن يكون العمل صحيحاً أيضاً، كما جاء في الحديث الصحيح: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقْرَةَ قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ فَقَرَأَ الْبَقْرَةَ فَتَجَوَّزْتُ، فَرَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ،

أَفْتَانُ أَنْتَ ثَلَاثًا، اقْرَأْ ﴿وَالشَّمْسُ وَنُحْنَهَا﴾، و﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَنُحْنَهَا»^(١).

غِيُور سَاكِت خَيْر مِنْ أَحْمَق لَسِين

حدثني الشقة من سَكَّان مدينة الحبيب ﷺ فقال: عندنا في المدينة رجل مهندس حضر في المسجد النبوي مدة خمس وثلاثين سنة دروس الشيوخ، وأصبح يرى نفسه العالمَ التحرير، بل فوق العلماء، ويدندن حول هذا المعنى بشدة، مع الازدراء ونظر الانحطاط للآخرين من العلماء حقًا، والخط على الناس بأنهم يقدِّسون أصحاب العمائم، وما إلى ذلك من أخبار لا تسرُّ.

وهو رجل شديد التعامل مع الناس، يحذره البر والفاجر، وينفر من لقائه البعيد فضلًا عن القريب، حضر مجلسًا فيه رجل رياضيٌّ مفتول العضلات لكنه مُدَخَّنٌ، والمجلس يحوي أكابر القوم، فأنسلَّ المدخَّن ونزل إلى أسفل العمارة، وشرب الدخان دون أن يشعر أحد ورجع، ويبدو أن صاحبنا الشرس - وما هو بصاحبنا والله - قد شعر بهذا، فنظر إلى الشاب الحيي المدخن، وقال: أنا لا أسمح لمدخن أن يدخل بيتي، وبما أنه ينظر في وجهه أجابه الشاب الرياضي: إذن سيخسر مجالستك كثيرون أمثالي.

اسودَّ وجه المنكر للدخان، وهجم على الشاب بأقبح ما عنده من كلام، وكان من جملة ما قال له: أنت تسخر مني؟ أجابه الشاب: معاذ الله، ولكنك لا تستقبل المدخن، ونحن مدخنون، فإذا سنخسر مجالستك.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦١٠٦، ومسلم برقم: ٤٦٦.

تابع الألف الحِصْمُ كلامه: والله إنِّي لقادرٌ أن أحملك من هنا وأن أرميك من هذه النافذة، فلا تغرَّك نفسك، ولا تزَّه بكونك رياضياً.

قلت له: ليتَه أنكر بقلبه وما تعداه، فإن سكوته خير من كلامه، ومثل هذا الحشن لن يسأله الله تعالى يوم القيامة، ولن يلجمه بلجام من نار إذ لم يدع، لأنه لم تكتمل لديه أركان الدعوة، بل فَقَدَ أعظم ركن فيها وهو الحكمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

باب كنت سبب كسره

إن أيَّ باب دعوي يُحتاج إليه، ولا يُفْتَح على يدي الدعاة والعلماء بضوابطهم الشرعيَّة فإنه سيكسر كسراً، ويحطَّم دون رجعة.

- كان الشيخ علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠ هـ) رحمه الله يقول لطلابه: بقي العلماء دهوراً طويلة ينادون: «أغلق باب الاجتهاد» حتى كُسِر الباب كسراً، بل خلعت نوافذ الاجتهاد، وتهدم حيطانه، وقلعوا أرضه، وأنزلوا سقفه، حتى صار خراباً بعد عمران، ولو أن العارفين الرصينين من الفقهاء اشتغلوا بمستجدَّات الحوادث، وما أطلقوا على الاجتهاد بانغلاق بابه: لكانت الردة أخفَّ من ردة كسر أبواب الاجتهاد.

- عُرض الإفتاء على أحد شيوخنا الأتقياء، حتى كاد أن يُسحب إليه بالسلاسل، والشيخ يأبى ذلك تورُّعاً، حتى جاء المتطلِّع للمنصب، فنسَّق أمره

مع الجهات الأمنية واستلم، فأصبح ذاك الشيخ التقي يمسح دمه باليمنى، ويضرب فخذه باليسرى، ويقول: يا رب: لم سلّطت علينا هذا الفاجر ليفتي الناس!

أليس شيخنا هو مَنْ فتح المجال له بتراجعهِ المستمرّ، واختياره الحالة السليّة بورع في غير مكانه!

- درس معي المرحلة الإعدادية والثانوية صديق من الطلاب، وتعرف إلى شباب لهم أفكار تخالف ما يدرسه على شيوخه في المدرسة، وما إن تلقى أول شبهة حتى تأبطها، وأوى إلى ركن شيوخه الشديد، يسألهم ما الجواب على هذه الشبهة، لكنه تلقى أسوأ الردود، وصفّع من أساتذته بأقسى اللهجات، فلفّ السؤال وسحبه، وبرأ نفسه أن يكون له أي اعتقاد من هذا الانحراف، خوفاً من بطش المدرسة له وطردها له.

ثم دارت الكرة ثانية، فعرض عليه أصدقاؤه فكرة تخالف ما اعتاد عليه أبناء مدرسته، فعرض الأمر على أحد مدرسيه فرأى الرد كأخيه السابق، ثم الثالثة ورابعة، حتى كادت التهمة أن تلصق به أنه من أبناء الفكر المنحرف الفلاني، فمثّل على من حوله أنه بريء من أي فكر مخالف، حتى تخرّج في المدرسة، وكأنه مريض نشط من العناية المركزة، أو كأنه طائر تكسّرت قضبان قفصه، خرج يثق بمن يلقي عليه الكلام من غير تحقّق، تدرون لم؟ لأنه أصبحت لديه قناعة كاملة أن مدرسيه ليس لديهم حجة، وهم أتباع هوى، أما الطرف المغدّي له فهو صاحب رسالة ودليل، ولا ينفك عن الكتاب والسنة قولاً وحالاً، ثم انفلت الحبل لديه فلا تسل عن بُعد شروده، ولا سوء

تفكيره، وحكمه على أولياء نعمته، حتى إنه لم يقف إلا داخل أبواب التكفير والتضليل والتبديع لكل من حوله، لقد كان الذي لم يستوعبه سبب انحرافه وانحرافه.

- معلم رأى في يد التلميذ ورقة وقد رسم فيها صورة فتاة، فبدلاً من أن يعزز قيمة الفن والرسم في عينيه، ثم يوجّه هذه الموهبة التوجيه الصحيح، انهال عليه بالتهم، ثم دلّه على طريق الانحراف بقوله: اخرج من الدرس يا خسيس، مكائك عند أصحاب السينمات لترسم لهم الرسومات، فموضعك عندهم هناك لا في طلب العلم! إي وري: هو من دله على السوء، وكان سبب كسر الباب.

- سمع عصبة من الشباب أفكاراً خبيثة من جماعة، فجاؤوا إلى أحد العلماء يناقشونه، فغضب واشتد غضبه، وعلا صوته، وانتفخت أوداجه، وقال: أنتم تحملون المنهج القرآني، أنتم قرآنيون، وكررها، وفي البداية استفسروا: من هؤلاء القرآنيون؟ وتبرؤوا من أي تنظيم أو جماعة، وظني أنها رسخت في أذهانهم، وذهبوا يبحثون عن القرآنيين، لقد كان العالم سبب دلائلهم على مصدر الانحراف الذي يوافق ما يبحثون عنه.

جرائم دعوية

قد يَعْتَبُ علي المحبُّون طرَحَ هذا الموضوع بهذه العبارات، ويقولون: كم تكلمت في الدعوة عن اللطف واللين؟ ولكنك وقعت هنا بتعبير شديد.

أقول: إن اعتقادي الجازم أنها جرائم دعوية، وتخفيفي لها نوع من الإساءة الدعوية، وطلبي اللطف من الناس هو في المقام الذي لا يقتضي إلا

اللطف، ومعاذ الله أن أفتي بالكلمة اللينة بدل إقامة حد الزاني المحصن، ولكنني طلبت الكلمة الناعمة في موضع أعتقد أن الناس أغلظوا، وزادوا ومالوا، وصالوا وجالوا في صحراء بذاءة اللسان.

تعال لأطرح عليك بعض الجرائم الدعوية:

١- داع غير بصير يُسأل من قبل العامة عن الأشاعرة، فينزل فيهم أقبح الألقاب والصفات ويخرجهم من دائرة السنة والجماعة، حتى أتاني شاب حدث السن، يسألني بكامل الأدب واللطف: هل الشيخ الفلاني من الأشاعرة؟ كي أحذره ولا آخذ عنه، وهل منهم فلان؟ وكيف تترضى عن النووي (ت: ٦٧٦ هـ) وتترحم عليه ويقولون ثبت أنه أشعري؟ ثم يسألني الشاب عن بدعيات في أحكام الاغتسال لا يحسنها ولا يعرفها!

٢- داع متعثر مشهور بدلاً من أن يدل الناس على الله دلهم على أخطاء الصحابة، وجمعها في صحن واحد، ثم قدّمها لهم وبعد كل حرف يقول: احذروا الشيوخ الذين يضحكون على عقولكم، ويخفون عنكم هذه الأمور، وما درى - عامله الله بعدله - أن من الحكمة أن أخفي على الشاب العاق لوالديه، الضعيف الإيمان خلاف أبيه وأمه الذي مضى، ولن يقربّه من الحق ذرة، بل سيشغله في الانتصار لأحد الطرفين على الآخر.

٣- كاتب سفيه - وعنده من يقرأ له - همّه أن يقدم النقد لعوامّ الأمة، فلا يترك التعليم الشرعي، ولا الخطباء، ولا العلماء، ولا الصلحاء، ولا الآباء وتربيتهم، ولا الأمهات وتعبهنّ، ينقد الكل من أجل النقد فحسب، فيسمع الشاب العامي هذا الكلام، فيظن أن لديه علماً لم يسبقه إليه سابق، ويقول لك

العامي بكل براءة: إن لديه جديداً من القول، وتجديداً في الفكر، هيهات هيهات، بل لديه شبهات يُبْثُّها، وتشكيك في مصادر ينشره، فقد استطاع أن يفتك في الأمة أكثر من فتك الغادة الحسنة المتبرجة، لأن تلك فتنت شاباً عرف نفسه أنه زلّ أمام شهوة، وهذا فتن ساذجاً نفّر من الدين عن اعتقاد، وكفر بالعلماء تقرّباً إلى الله تعالى، فهيهات أن يكون أتى حسناً.

٤- رجل أحمق يعطي الأدلة ويحملها للعوام كي يتسلّحوا بها، ويغريهم أنهم أهل للاجتهاد في الدين، وكل عامي من أتباعه يمسك بعالم الفقه ليخرجه - على حسب اعتقاده - بقول: هل لديك دليل على كذا، وهو يقصد: هل عندك نص على كذا؟ ولكنه لا يفرق بين الدليل والنص، والله المستعان.

٥- شباب كثيرون كثيرون، يعلّقون اليوم على وسائل التواصل الاجتماعي للعالم وأهل العلم في مسائل ورثوها كالذمّة، مثلاً: «اتق الله يا شيخ، كلامك باطل، والحكم كذا»، وهو لا يدري أركان الصلاة، وبعد قليل يريد أن يجري عقد زواجه، فيلجأ إلى الشيخ نفسه ليعقد له زواجه، أظن هذا المغرور أن الشيخ أعلم منه في كل المسائل إلا التي ورثها من شيوخه فهو أعلم بها منه؟ من الذي ورّثه هذا الغرور المنهجي؟ والورم الاعتقادي؟ من الذي ورّطه بأنه أهل ليحكم على أهل العلم في هذه المسائل؟

٦- ولطالما حدثك عن وحدة الأمة، وأظهر الخرقّة على تبعثرها، وليس مستعداً أن يتزحزح من مكانه عقدة إصبع واحدة، عن أيّ وحدة تتكلم؟ لقد عرفت الآن أن الوحدة التي يبكي عليها وينشدها ويتبجّع بها صباح مساء هي اتباع الناس له في كل ما ذهب إليه، ويرى أن الأمة لو اتّبعته بأجمعها

لتوحدت أفكارها! عزيزي: أنت لا تصلح أن تقود محل خضراوات بهذه العقلية، لأن اجتماع الأمة يكون ببقاء كل واحد فيما آل إليه اجتهاده في فهم النص، وإعذاره، مع كامل الاعتقاد أنه مجتهد مأجور.

٧- بطاقات تنشر صباح مساء، وعليها أحاديث من الصحيحين وغيرهما، لو كُتب عقب الحديث: «رواه مسلم» - مثلاً - لكفى الله القارئ البحث، ولكنها كتب عليها: «صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب»، دون إشارة إلى اسم الإمام مسلم.

وكذا لو كتب عليها: رواه ابن حبان، وصححه الألباني لما كان عندي مانع، ولكن أن يُعزى الحديث للألباني ويطمس اسم المخرج الأصل، إنها لكبيرة!

ونحن لا نرضى أن يعزو النص المُقتَبَس إلى مُقتَبِسه دون الإشارة إلى صاحب النص الأصلي، أفرضى هذا العمل في كتب أسلافنا، وبتر الأمة عن سلفها الصالح، والعزوَ إلى معاصر؟

٨ - داع مُتَّفَوِّعٌ سمعته بأذني يقول: الفیصل بیننا وبين أهل البدع أن نقول لهم: هل فعل هذا رسول الله ﷺ، فإن قالوا: نعم، قلنا: هاتوا الدليل، وإن قالوا: لا، فقد سقطوا. قلت: أولاً يعلم هذا القائل أن في الشرع أموراً سكت عنها رسول الله ﷺ؟ ما خطر بباله قَطُّ أن النبي ﷺ لم يفعل كل شيء؟ فلم يؤلف ﷺ في الفقه، ولم ينوِّع العلوم إلى فقه، وأصول، وعقيدة، وتفسير، وحديث، وسيرة وغيرها، ولم يوزَّع نسخاً مكتوبةً من القرآن، ولا أسَّس الجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم! ولا جمع الناس على ختم القرآن

في التراويح، أما علم أن الأمور لا تؤخذ بهذه البلاهة، ففي أصول الفقه ما يُخَرِّجُ قياساً، وبلحن الخطاب، وفحوى الخطاب، وأمورٌ تُمنع سداً للذريعة، وأمورٌ تُسمح أو تُمنح تحقيقاً للمقاصد، وأمورٌ لإجماع الأمة، وأمورٌ مستندة تنافل السلف وعملهم بها، وأمور تترك لعمل الراوي بخلاف روايته.

سؤالي لك: إذا كان المؤثر عندك يشير إلى ضلال أكثر من انتسب، أو حضر عند هؤلاء المتصدِّرين للكلام، ألسنت ترى أعمالهم جرائم دعوية؟ عندما ترى الإضلال والهدم في كلامهم أكبر من البناء، ألا تصنّف نقدهم وكلامهم ضمن الجرائم الدعوية؟

على أنني لا أحكم على نيّات العباد، ولا مآلاتهم في جنة أو نار، بل إن كلامي محض تمحيص في الأساليب الدعوية، ليصل بها المستفيد أعلى قمة، يتحاشى أخطاء الذين سبقوه، ويبني على أمجادهم صرحه.

«اللَّهُمَّ اجعلنا هداة مهتدين، غير ضالّين ولا مضلين، سلماً لأوليائك، حرباً على أعدائك، نحبُّ بحبِّك من أحبَّك، ونعادي بعداوتك من خالفك».

هكذا حفظنا الدعاء من أفواه الشيوخ، ولكنني أرى بعض القوم اليوم سلماً للأعداء، وحرباً على الألياء.

فن صناعة العاهات

لصناعات العاهات طرق كثيرة، ولكن أهم طريق في نظري على الإطلاق: هو إعطاء الإنسان أكبر من حجمه، حتى يُنْفَخَ بالغرور، ويُقْنَعَه الحجم المزيف أنه حقيقي.

أعرف شيخاً من أكابر العلماء، وله أبناء وأحفاد ليسوا على الحد الأدنى من المطلوب، لكن تلاميذ الشيخ الكبير أحبوا نسله بناء على حبهم شيخهم، وعظّموهم كما يُعظّم السادة الكبار، وصدّروهم في المجالس والمحافل والاحتفالات، حتى إن أكثرهم ليجلس مع الناس ويأتي بالمناسبة - ولو بدون مناسبة - ليعلم الحاضرين أنه حفيد فلان، لتبدأ جلسة التبجيل والاحترام.

ومن أعظم ما أذكره من تضليل الأتباع أن أستاذًا ومدرسًا لأحد أحفاد ذاك العالم قدّم طالبه في كلمة بلفظ: سيدي وشيخي وتاج رأسي فلان، ابن العلم والجهبذ والكبير والعالم فلان، حفيد الإمام الأكبر فلان، ولا والله لا الحفيد ولا الابن يستحقان حرفين من هذه الألقاب، اللهم نعم! الجدُّ أهل لها وأولى.

ولك أن تتصوّر حال المرض الذي فشا بالحفيد بعد ذكره هكذا وتقديمه في بداية الكلمة من كلام أستاذه، وقد انحنى له عند دخوله، ووقف وقفة التذلّل بين يدي صحابي من أهل بدر الكرام، وأخذ يده يحاول أن يُقبّلها، ثم مسح له على كتفه، ولم يجلس حتى جلس الحفيد بكل كبرياء وتعال.

وكان أحد الأحفاد الصغار في فصله الدراسي يتعالى على الطلبة، ويضرب هذا، ويحتقر ذاك، ويؤذي هذا بلسانه، فإذا رُفع أمره للمدرسين من قبل أحد الطلبة لنفاد صبره على الظلم كانت الإجابة: إنه حفيد مَنْ تعرفون، بل مِنْ أبرد الألفاظ وأكثرها فتكًا في أخلاق الحفيد المسكين قول أحد المدرّسين: «إنه سيّدنا، وحفيد سيّدنا»!

لقد ورث نسل الشيخ مكانة الجدّ وما ورثوا علمه ولا حكمته ولا سعته،

فصاروا عاهات تمشي على الأرض، وأعطوا مثلاً سلبياً عن العلماء الربانيين، بل بعض الناس عادى جدّهم لتوهّمه أنّ الجدّ مصابٌ بتلك الأمراض، وأنّ الأحفاد صورةٌ مطابقةٌ لحال الجد.

وكأن الله تعالى أراد أن يمحو هذا المعنى من صدور المؤمنين فوضع لهم البوصلة الراشدة لهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فلا والله، ليس حفيدُ الطبيب طبيباً، ولا سبطُ المحامي محامياً، فكيف يكون ابنُ العالم كأيّيه أو جده إن لم يقل: هأنذا، ويقدمُ خيراً كما كانوا يقدمون، حتى يكون مستحقاً للتعظيم، أو اللقب، أو المكانة!

الشعور بالأهمية والتميز

من أتعس أنواع الغرور ظن الإنسان نفسه أنه محورُ مكان أو زمان أو فتوى أو عمل، أو بقعةُ الضوء الأساس، ويسرّح به خياله ليدور في فلك نفسه. قال لي أحد شيوخه وهو يملي علي آداباً كثيرة لتهديب النفس في هذه الحياة، والتحذير من مرض شديد، لا تكن مثل فلان - ولم يسمه لي -، قلت: ما صفته؟ قال: يشعر بالأهمية دائماً، ويرى نفسه أن واجبَ الناس أن تعظمه، والناس لا يلتفتون إليه، ولا يحملونه من أرضه!

وعاش حياته وهو يمرح في فضاء من الوهم، يظن نفسه المهمّ في حياة الناس، وأنّ عليهم أن يرفعوه، ويعظموه، وهو يستحق ذلك، وما التفت إليه أحد في علم ولا تميّز.

تخرج كلمات من طرف لسانه تشعر أنك أنه عبقرى الزمان، وكبير بنى الإنسان.

وكان يحدثُ أحدَ جُلُساته الذين تفوّقوا عليه علمًا وذوقًا وأدبًا وتهذيبًا وفكرًا ونضجًا، إلا أنه من أقرانه فى السن: والله يا ولدى - يخاطب قرينه بلفظ الولد - لا آنف أبدًا أن أجالسك، بل زرع بي من التواضع كم هائل، بحيث لو أعطيتك من وقته هذا ساعة فى بناء شخصيتك ما أسرفت، ولا قصّرت!

والنعم والله! ما أكبرك أيها الأصيل!

تخاطب قرينك بلفظ: ولدى، وتشعر أنك المربى الصالح، وأنت كريم بمنحة الوقت، وأنت المصلح وهو الفاسد، والمتصدق وهو المتسول!

إن كنت قد تكلمت قبل قليل عن فن صناعة العاهات، فهى هى ذى العاهات بذاتها تمشى على الأرض وتتكلم!

وما أكبر خسران شخص: رأى نفسه المهم والأهم والأرفع على الأقران، فلم يمنحه هذه المنزلة فأحبط ومرض.



الدعوة مع المعارض



مقدمة

العيش مع الْمُتَحَدِّي كالمشي في حقل مَلُؤهُ الأَلْغَام، وهو صعب شاق، لأنك لا تعرف كل لُغْم أين دفن، لكن الأَلْغَام في درب الدعوة يمكن المشي بينها غالبًا، كما سأفصله الآن إن شاء الله.

وكلامي هنا عن المعارضين وليس عن المخالفين، أما الذي يختلف معك ولو في أصول الدين فهو اختلاف من غير عدا، وهو ليس كالمعارض، الذي يناصر العدا، ويظهر العداوة، وكلا الصنفين على درجات، وليسوا درجة واحدة.

كما على الداعي اليقظ أن يفرز المعارضين، - كما يفرز العاصين - قسمين:

- عاص بسبب شهوة

- عاص عن اعتقاد

وعاصي الاعتقاد قسمان:

- مستفيد من اعتقاده، وهذا برؤه ضعيف الأمل.

- غير مستفيد: وهذا أرجى أن يهتدي.

وقس عليها المُعارض:

القسم الأول: مُعارضٌ بسبب خارجي: مثلاً: بسبب المتابعة لعشيرته، أو أنه موظف في جهة تعاديك، أو أمثالها.

القسم الثاني: معارض عن قناعة واعتقاد.

وكل منهما إما:

١- مستفيد من معارضته.

٢- غير مستفيد من معارضته.

في الخطاب الدعوي للرد على المخالف أو المعارض

يُفَرَّق بين ثلاثة أصناف:

١- الرؤوس، وهؤلاء خطابهم يختلف عن الصنفين الآخرين.

٢- ومن أصيب بلوثة من الرؤوس.

٣- والتلاميذ والطلاب الذين لم يلوّثوا، وهؤلاء خطابهم خطاب التحصين.

ولا يصلح خطاب أحد منهم مكان الآخر.

من صفات أعداء الإصلاح

وفي البيئة التي تحتوي على المعارضين أعداء الإصلاح والتجديد لا بد أن تجد أموراً أربعة:

- إساءة ظن بالمصلح، إنكار تغيير المؤلف، قذف الداعي بسوء، التهديد، واقروا هذه الآيات:

- الأول: إساءة الظن بالمصلح: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ

عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

- الثاني: إنكار تغيير المؤلف: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

- الثالث: قذف الداعي بسوء: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

- الرابع: التهديد: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنًا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

معارض فكر ومعارض بطش

في البدء أفرق بين معارضيْن اثنين:

أحدهما معارض فكر، وهذا غاية أمره أن يرد الفكرة بفكرة، وأن يُجابه الكلام بكلام.

والثاني: معارض قِتَال، وهذا يَقُلُّ عنده منطق الفكر، ولا يدري أن عند تعارض قوة المنطق ومنطق القوة فإن منطق القوة يغلب مؤقتاً، ثم تكون العاقبة لقوة المنطق، والعاقبة لمن أثبت الحجة في قوله، والمقنع نفاذاً للقلوب، أما المتسلط فمُجْبِرٌ على الطاعة، حتى إذا قوِيَ الضعيف أمامه، أو خارت قُوَّة القوي رأيت المعادلة قد انقلبت، وتبادل الفريقان مكانهما، وأصبح الضعيف قوياً، وحدث عن الانتقام بكل وجوهه بلا حرج.

فن الخطاب في الشدائد

- فن الخطاب في الشدائد: هو اتخاذ خطاب محكم: ينبئ عن المعتقد

الداخلي، وليس بين الداخل والخارج لدى المتكلم انفصام، ولو تجسّس المتجسّس وسجل للمتكلم جلسة لما حظي بسقطة، وذلك في أكثر الأوقات، وأغلب الكلام، ولا بأس بالإغلاق والقفل على بعض الأفكار والمعتقدات وعدم إظهارها إلا أمام خاصة، أو الاحتفاظ بها عن الناس كلهم.

- فن الخطاب: هو انتقاءً لألفاظ تتوافق مع داخلك، ولا تخالف من يتحدثاك أو يتجسس على زللك.

- وهذا الفن ينفع كثيراً في أجواء القبضة الأمنية الظالمة، حيث يتخذ الداعي لنفسه كلاماً يعبر عما في داخله، يرضاه عدوه الأبعد، - ومن باب الأولى: عدوه القريب - ويحقق غاية الدعوة، ويشكل هذا الكلام في العموم الغالب نسبة: ٨٠ ٪، حيث إن أكثر الحكومات، وأعتى الظلمة لا يخالف ولا يتحسس من أكثر تعاليم الإسلام، وتُهمُّه القطعة الخاصة بالمناصب والكراسي والحكم وتآليب الشعوب والتعاطف مع المظلومين.

- ولو أن للإنسان كلاماً خاصاً لم يُفْشِه أمام أحد، لكان هذا من فن الخطاب، حيث لم يتكلم بما يعود عليه بالضرر.

- ومن رائع فن الخطاب أن تُكْتَمَ بعض الأسرار عن الناس، يُسرُّ بها إلى بعض من يحفظها، وينقذ المطلوب عند اللازم، كما أسر النبي ﷺ بعض الأسرار لسيدنا حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١) لأسباب عميقة المدى تتعلق

(١) جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِعَلْقَمَةَ: «أَوَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ سِرِّ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ غَيْرُهُ». أخرجه البخاري برقم: ٣٧٤٢. وقال أبو هريرة =

بالدعوة، وكذا أسرَّ للسيدة الجليلة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بعض مخططاته التي لم يستطع توفيرها^(١)، وذلك بسبب الذين أسلموا حديثًا، ولا تحتل عقولهم هذا الحدث الكبير.

- ورث أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن حبيبه هذه الخصلة، فكان لا يحدث بكل ما سمعه من رسول الله ﷺ، وذلك لأن العُطْلَ في أفهام الناس، وعقولهم لا تصبر على سماع كل شيء، فقد قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَغَائِنٍ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ فُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ»^(٢).

= خيثمة بن أبي سبرة - وكان من أهل الكوفة -: «أَلَيْسَ فِيكُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ مُجَابُّ الدَّعْوَةِ، وَابْنُ مَسْعُودٍ صَاحِبُ طُهْرٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَعْلِيهِ، وَحَدِيثُهُ صَاحِبُ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَمَّارُ الَّذِي أَجَارَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ، وَسَلْمَانُ صَاحِبُ الْكِتَابَيْنِ». أخرجه الترمذي برقم: ٣٧٧٦. وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثَ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهْدَمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجُ مِنْهُ وَالزَّفَرْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا فَبَلَّغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ». أخرجه البخاري برقم: ١٥٨٦، ومسلم برقم: ١٣٣٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٢٠، وعندما شرح الحافظ ابن الملحق (ت: ٨٠٤ هـ) رحمه الله هذا الحديث في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» ٣: ٦٠٧ قال: «قيل: هو أشرار الساعة، وفساد الدين، وتضييع الحقوق، وتغيير الأحوال، لقوله ﷺ: «يَكُونُ فساد الدين على يد أُغْيَلِمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ»، وكان أبو هريرة يقول: لو شئت أن أسميهم بأسمائهم، لكنه خشي على نفسه ولم يصرح». والحديث المذكور أخرجه البخاري برقم: ٧٠٥٨ بلفظ: «هَلَكَةُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيِ غِلْمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ». ويقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ: بَنِي فُلَانٍ، وَبَنِي فُلَانٍ، لَفَعَلْتُ». =

لا تتجاوز السرعة المحددة

- في كل دولة من الدول سرعة محدّدة للدعوة، فلا يسمح بتجاوزها أبداً، ولو أن الدعاة اجتمعوا على بكرتهم وتكلموا في العلن لاستطاعوا أن يرفعوا أصواتهم بثمانين بالمئة مما يقولونه في السر، فلا مخالفة في هذا القدر ولا عقاب ولا عذاب، فلم التطلع إلى الجزء الصغير المدمر لحياة الداعي وروح الدعوة؟ اللهم إلا بعض الدعاة، فيجب عليهم أن يرفعوا أصواتهم بباقي المئة.

- من التهور أن يهجم الداعي العادي إلى ٢٠ ٪ المحظورة، ويرفع وتيرة الخطاب فيها، ويركز عليها، سواءً أهجر ٨٠ ٪ المسموح بها، أم لم يهجرها، وتشرب أعناق بعض الدعاة إلى القدر المحظور، فلا يعجبه المسموح من السرعة الدعوية في بلده فيتجاوز إلى المئة، ويكون مصيره باقي حياته السجن والعذاب، وكثير من الأنفس تميل إلى تقديس هذا النوع.

- أجل، إن الذي يدغدغ عواطف كثير من الناس، ويشدّهم نحو الداعي، ويشدّه أبصارهم سماعهم لخطبة أو درس من قسم العشرين المحذورة، ثم تنال اللاؤاء الداعي، فيسحب إلى الحبس، أو يسلخ جلده، عندها يصرخ أولئك: إنه البطل المغوار، والجريء الذي هانت نفسه عليه في الله تعالى.

= وانظر: «المحدث الفاصل» للرامهرمزي ١: ٥٥٥، برقم: ٦٧٠، «حلية الأولياء» ١: ٣٨١ لأبي نعيم، فقد جاء عندهما بلفظ: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمْسَةَ جُرَبٍ، فَأَخْرَجْتُ مِنْهَا جَرَابَيْنِ، وَلَوْ أَخْرَجْتُ الثَّالِثَ لَرَجَمْتُمُونِي بِالْحِجَارَةِ».

- وبوجهة نظري: إنه الانتحار المنهني عنه، وأخشى أن يكون انتحاراً أسوأ من فعل الذي تحسّى سُمّاً بيده، أو تردّى من شاهق جبل، تدري لماذا؟ لأن ذاك خسارة لنفسه في أغلب الأحيان، وطالب العلم الذي أمضى السنين من حياته في طلب العلم، ليس إلا وفقاً للأمة، وقد أضحي فقده خسارة للأمة.

- رحم الله الشيخ سعيد حوى (ت: ١٤٠٩ هـ) الذي كان يقول: «تعالوا لنتكلم فيما لا نحاسب عليه».

على أنني أعتقد أن هذه النَّسَبَ تقريبية، ويعود تقدير الموقف إلى الداعي نفسه، فيجتهد ويلجأ إلى الله تعالى أن يوفقه إلى صالح الأعمال، فقد تكون الحكمة ألا يهمل السرعة المعفو عنها مما زاد على السرعة المحددة، فمن العادة أن توضع لوحة السرعة ٨٠، ولا يمسك الرادار إلا في ١٠٠، فيكون استغلال المساحة من ٨١ إلى ٩٩ أمراً مهماً.

- يجب على الخائف ألا يسكت عن قول الحق، فإن خشي على نفسه أن يقول للظالم: يا ظالم، فليأخذ بيده ويترقّب به، ويتكلم بتمام راحته عن عدالة الإسلام، ويسمعه صوراً من عدالة النبي ﷺ، وخلفائه الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أما أن يهجر خطاب النهي عن المنكر ولو بصورة مُبْطَنَة فلا وألف لا.

المشي بين الألغام ممكن

- في كل دولة لديها لُغْمٌ واحد في آخر الطريق ينادون عليك بأرفع صوتهم إياك أن تقترب، ولكن قبل أن تصل إليه قد وضعوا ألغاماً كثيرة غير مهمة، ولو أن أحدها انفجر فإنه لا يقطع عنقاً، ولا يَبْتُ رجلاً، ولا يُجْهِز على

جسد، فيجب على الداعي أن يعرف أين يضعُ رجله إذا داس الأرض، ومتى يضع، وكيف يضع.

- عند كل إشارة مرور يوجد خط من تعداه فهو مخالف، ولئن وجدت المصورات عند الإشارة الحمراء، فإنها ستصور من يتجاوزُ هذا الخطَّ قطعاً، ولكنْ توجد خطوط عِدَّةٌ قبل هذا الخطَّ ، بعضها ممر للمشاة، وبعضها ما بعد وما قبل الممر، وواحد يفصل الممر عن الطريق العادي، وتعدّي هذه الخطوط لن يوقع بالسائق عقوبة تجاوز الإشارة، وأستطيع أن أسميها بالخطوط الممنوعة الوهميّة، أو المتساهل في منعها.

- ومثلها لمعان الضوء البرتقالي، فإنه لا مخالفة عند تجاوز الإشارة والضوء برتقالي، وكلها من باب الاحتياط، ولكن الممنوع حقيقة، والذي فيه أشد العقوبات هو تجاوز الخط الأخير، والإنارة مشتعلة باللون الأحمر.

- ومثلها إشارات كثيرة تحذرك من الرادار، وتحذرك أن أملك راداراً وكلها وهمية إلا واحدة، وهي التي بعدها رادار حقيقي.

- ومثل هذه العلامات - وأكثر عدداً منها - يضع كل نظام من الأنظمة في صفحة وطنه، وكل واحد يوهّم أن المخالفات كلها تقتل الحياة، والواقع أن أحدها هو القاتل فقط، وما قبله عبارة عن شدّ أذن، وإيهام وإرهابٍ للواقفين ألا يقتربوا.

المقدّم الأملعي اليقظ

من الدعاة - وهم الأكثر - من يمتنع عن أكثر الممارسات الدعوية المسموحة، ولا يُؤدّي صاحبها، ولكن شدة الخوف أحالت بينه وبين المضي

قُدِّمًا، فيترك الطريق الذي ليس فيه أي تحذير كإمامة المسجد، وكلمة التراويح العامة، التي فيها حث على أذكار اليوم والليلة، وفضيلة التسبيح، وكلمات لو قالها المؤمن فإن الله ينفعه ويرفعه في الدارين.

ومن الدعاة - وما أقلَّهم - من يسلك الطريق المحذَّر منه، ويتنبه إلى جميع اللافطات، ولا يهملها، ويدرك بِحَذْفِهِ اللَّافَتَةَ الْحَقِيقِيَّةَ مِنَ الْوَهْمِيَّةِ، ويعرف مكان الرادار الحقيقي الذي يَسْحَقُ حياته، وَيَسْحَلُ جسده، فيمرُّ على التحذيرات مر السحاب اللطيف، من غير ضوضاء، ويراه الناس كيف يعبر اللافطات والتحذيرات.

وينقسم الناس فيه أقسامًا:

١- فمنهم من يَتَّهَمُهُ بِالْخُنُوعِ وَالْانْبِطَاجِ، أَوِ الْعِمَالَةِ، وَأَنَّهُ الطَّعْمُ الْمَتَبَرَّعُ بِهِ لِاصْطِيَادِ الْأَغْرَارِ، وهؤلاء الظانون ظَنُّ السَّوءِ قلة قليلة.

٢- والغالبية يرونه متهوِّرًا، إذ لا يخفى عليهم صدق الصادق، فهم يخالفونه في منهجه، ويريدون منه سلوك طريق جماهير الدعاة، في الكلام عن جوانب مسموحة من الدين، كالكلام عن الأذكار، وفضل التسبيح، وأعوذ بالله أن يُسَخَّرَ مِنْ تِلْكَ الْجَوَانِبِ.

٣- والقلة القليلة من يعرفون ثباته وحكمته وَبُعْدَ نظره، وهؤلاء الحدائق قِلَّةٌ أَيْضًا، يشجَّعونه على العمل، ويرونه بطلًا يُؤَيَّدُ.

وعودًا إلى موضوع التذكير والوعظ بالأذكار والأوراد: إذ إن بعض الناس يَسْخَرُ مَنْ يَذْكُرُ بِالْأَدْعِيَةِ، أَوْ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي لَا يَعَادِيهَا أَحَدٌ، وَهَذَا

الساخر على خطر عظيم، لأنها سخرية من بعض أجزاء الدين، ولو فتح عينيه جيداً لرأى أن نقمته ليست على ذات الكلام، بل هو موافق، ويقرُّ ويعترف بوجوب الكلام في الرقائق والأذكار، ولكنه ناظم على من ركَّز عليها، وأهمل الحديث الأهم عن جوانب من الطغيان عمَّت فخلَّفت وراءها إحناً ومحنًا ومظالم وظلماتٍ بعضها فوق بعض، يتيه الأخ في الطريق ولا يرى أخاه.

من خلال العرض الآنف يُعلم أن الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ قد انطبق على كثير من تفاصيل الحياة، وهو قوله: **«إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمَائَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»**^(١)، لقد رأينا أن الرواحل في كل مناحي الحياة، ومنها الدعاة، فالذين يدعون إلى الله مئة، قَلَّةٌ منهم قليلة تُبَيِّنُ الْحَقَّ بِحَقٍّ وحذرٍ وبتمامه، والغالب يقتصر على جوانب من الحق، وقلةٌ أخرى متهورون، لا يؤثِّرون إلا نادراً، ويتركون وراءهم السُّمعةَ الحسنةَ في البسطاء، وهم يعيشون أكثر أعمارهم في تضيق، وقد تكون في السجون.

فالمشي في حقل ألغام الدعوة ممكن، وفيه صعوبة، ولكن يحتوي على الإنجاز، وهو مسارٌ قلَّ من يسير فيه، ولا يسلكه إلا الأبطال، وما أقلُّهم والله.

التحاييل على الظلام لإشعال النور

وما أروع طرق التحاييل على الظلام للوصول إلى الله تعالى! فقد مرَّت بعض حُقَبٍ يُخَنَّقُ فيها الداعي، وتُنصَّب له المجانيق إن فتح فمه بجرف في الدعوة إلى الله، فكان من طرق بعض الدعاة أن لا يظهر بمظهر دعوي، ولكنه

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٤٩٨، ومسلم برقم: ٢٥٤٧.

يلبس كما يلبس السُّوقَة، ويأخذ موادَّ التدريس في الثانويات العامة، من نحو وصرف وغيرها من العلوم وقد يكون بعضها في تخصص بعيد كمادة اللغة الأجنبية، والرياضيات، ويبثُّ دعوته من خلالها.

وهذا حال كل داعٍ قد رضي أن يكتب عليه: «وقف لله تعالى لا يباع ولا يوهب، ولا يستأجر ولا يرهن»^(١)، فلئن تفتَّن الناس وتحايَلوا في طرق الوصولِ إلى النار، وبثَّ دعوتهم الضالة، لنحن أولى بهذا التفتُّن وأهلُّه للوصول إلى الله، لنقولَ لرب العالمين: فبعزتك لنَهْدِيَنَّ الناسَ أَجْمَعِينَ.

عامل المعارض بخيط من حرير

إن خيط الحرير لينُّ الملمس، ولكن من سحبه على يده بسرعة جرحها، وهكذا يجب أن يكون الداعي مع المعارضين الشرسين، لا يظهر منه غضب، ولا صَخَب، ومعاذ الله أن يكون منه الأسوأ والأرذل كالسَّبَابِ والقَدْفِ، ولكنه يجرُّ من التُّعُومَة، وقد يبتري إصبع مَنْ شَدَّ عليه.

وكان شيخنا العلامة المفتي الشيخ إبراهيم بن محمد سلقيني (ت: ١٤٣٢ هـ) رحمه الله بهذه الصفة، لين الجانب، ولكن لا يسكت على ضيِّمٍ، ولو ديس بساط الإسلام من قبل عدو لرأيت هذا الحرير بتر الذي أمامه بنعومته.

من أروع ما أحفظ قصة الشيخ عبد العزيز البشري الأزهري (ت: ١٣٦٢ هـ)

(١) صاحب كلمة: «طالب العلم مكتوب عليه: وقف لله تعالى» هو فضيلة الداعي إلى الله الشيخ أبو النصر بيانوني رحمه الله، سمعها منه شيخنا الشيخ عبد المجيد بيانوني حفظه الله، وحدثني بها.

رحمه الله، وقد كان في دعوة طعام تغص بالحاضرين، والمجلس فيه أخلاط من الناس، والسيط الذائع المائع إبانها هو الشيوعية، فاستلم الشيخ المجلس وسيطر عليه من أوله إلى آخره بغزارة علمه وقوة حديثه، والتفت أنظار الحاضرين حوله، والشيخ يلقي بالنكت على الشيوعيين، والكل يضحك من شغاف قلبه لطرافة القصص وعدوبتها، فأكلوا وانتهوا من العشاء، وقام الشيخ ليغسل يديه، إذا بشيوعي كان يحترق بينهم، ولم يدر أحد عنه خبراً، أراد أن ينتقم من الشيخ، بعد خروجه خارج الغرفة، وقد علق الشيخ جيبته على الجدار، أخذ الشيوعي قلم سبورة - طباشير - ورسم رأس حمار على جبة الشيخ، فرآه أحد الحاضرين وأوقفه مستنكراً: فأجابه الشيوعي: أما زح الشيخ لأرى ردة فعله، فما إن دخل الشيخ ورأى رسم صورة رأس الحمار على جيبته إلا وصاح بصوت جَهْوَري يظهر عليه الجذ، وحقيقته الهزل والمداعبة: من الذي نشف وجهه بجبتي؟ لا أسمح له أبداً! فماج المجلس بالضحك ضحكاً شديداً، ومال بعضهم على بعض، ورُد السحر على الساحر، وما برح الشيخ من مكانه حتى أخذ بالثار.

ولما عُيِّن الشيخ قاضياً، حضر الأعيان لتهنئته بالمنصب الجديد، وكان من بين المهنيين أحد الضباط برتبة فريق، فأراد الغمز بالشيخ، فسأله: يا مولانا: صحيح أن النبي ﷺ قال: «قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ»^(١)؟ فقال له:

(١) عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَى بَيْنَ الْحَقِّ، فَعَلِمَ ذَلِكَ، فَذَكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حَقُّوقٌ =

ما الذي يُهْمُّكَ من هذا، يهْمُكَ أن الله تعالى قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ولا شك أن الشيخ لا يقصد بتلاوة الآية من كان برتبة فريق، إنما هو نوع من البلاغة، كما لو قلت لطالب مدرسة، يُهْمُّني أن تكون طالب آخرة، وأن تنجح في امتحان الله تعالى.

أنت كالمزارع

- المزارع يحمل بيده حفنة من قمح، وينثرها في أرضه، فما كل حبة تنبت ولا تنتج، فمنها من يأكلها النمل، ومنها التي تتعفن، وفيها ما لا تغمر في التراب أصلاً، ومنها ما تنبت ولا يتم نتاجها، والأكثر يعلو بسنابله، ومنها حبات تنبت سبع سنابل، في كل سنبله مئة حبة.

- يرى بعضُ العاطلين قارئاً يدرّس القرآن الكريم لجمهور من الطلبة، فيمتنعُ ويقول له: لو خَرَجْتَ لنا تالياً واحداً كابن مسعود لكفى، ولكن خيراً من مئات التالين للقرآن، الذين لا يجاوز الذكر الحكيم حناجرهم.

ثم يسودُّ وجهه، وتضجر نفسه من تدريس الحديث النبوي، وقراءة كتب السنة، ويُنَفِّس عن ضيقه بقوله: لو دَرَسْتُم الشباب خلقاً واحداً من أخلاق النبوة لكان خيراً من هذه القراءة.

= النَّاسُ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ. أخرجه الترمذي برقم: ١٣٢٢، وإسناده مقبول.

يا سيدي: إن المعصوم ﷺ قد عَرَّفَكَ قانون الاستجابة، وقانون الإبداع، وزبدة الناتج بسطر واحد، فقال: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(١).

- ما من عاقل إلا ويعمل مع كل من يتوافر له العمل معه، وهو لا يدري في أي دعوته البركة، ومن سيستجيب له، ثم على يد مَنْ سيكون تغيير وجه الدعوة، فكم أقسم المدرسون أن فلانًا من الطلبة إصْبَغُ فاسد في جسد التعليم، يجب أن يبتز من المدرسة لكثرة فساد في أقرانه، ثم ترى النتيجة أن يجعل الله تعالى الإبداع على يديه، والخير الوفير من عمله، ويتميز من كان مقصرًا، وينقلب إلى المبدع الوحيد.

- التاجر يشارك في معرض يدفع فيه الآلاف، ولا يبيع فيه ما يغطي مصروف مشاركته، لأنه على أمل كبير بعيد، وهو: أن تأتيه صفقة واحدة تسد له ربح سنة بتمامها.

- والمدرسة تخرج مئات الطلبة، ومن يثابر قِلَّة، ومن يبدع أقل، ومن ينبغ أفراد أو نفر قليل، هيهات أن يعرف المدرس مَنْ ذاك الفرد العلم الذي يقلب وجه التاريخ بتمامه.

- أما لك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة! لقد صَدَّر الدعوة للعالم بأجمعه، فاستجاب له مئة ألف ويزيدون، وتميَّز منهم الآلاف، وأبدع المئات، ولكن المبشرين بالجنة بأسمائهم عشرات، فَلِمَ لم يقل النبي ﷺ: سأعمل أبا بكر

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٤٩٨، ومسلم برقم: ٢٥٤٧.

واحدًا ويكفي، أو لَمْ لَمْ يقل: سأعمل كل أصحابي نسخة عن أبي بكر؟ ولعل خير جواب لمن أصبح وقفًا مسبلاً للاعتراض الدائم، والنقد المستمر، وتخطئة أعمال العاملين أن يقال له: خذ وظيفة وأرنا حلها: نريد منك إنجاب ولد واحد يكون صلاح الدين الأيوبي للزمن القادم؟ وتدرّس طفل واحد من أطفالنا لتجعله داهية السياسة الآتي. وانتقي الشاب الذي تريد، واجعله كابن عباس في فهم القرآن.

ولكن اليقين في هذا المتخصص للنقد الدائم أنه لا يحسن العمل، وهو إمام في طول اللسان، وتسخيف أعمال غيره، ومن العبث أن تطالب الثرثار بالعمل، فلو أحسن العمل لأحسن الكف عن تخطئة المنجز، وأحسن إعدار الناس، لأنه يعيش صباح مساءً في العقبات والتحديات، فعرف قيمة الإنجاز.

من فن التعامل مع الجاسوس

- اكتشف بعض طلاب جماعة دعوية شخصًا مندسًا بينهم، باطنه جاسوس أثير، وظاهره متهمد قائم بكاء بين إخوانه، طار الإخوة إلى شيخهم ليشكوه، ووضعوا أمامه خبرًا ظنّوه أغلى من حسان العرائس، لكن الشيخ صدمهم بجوابه: «أعرفه»، وهو مندوب لجماعته لدينا منذ خمس عشرة سنة! صاحوا وطاش صوابهم: كيف هذا؟ ولم لم تفضحه؟ قال: هل تريدون أن يأتي إلينا من لا نعرفه؟ نحن نصدرّ لعدونا ما نريد من معلومات عن طريق هذا، أما فضيحتة فستذهب عنا هذا الخير الكبير.

إنه العمق في فهم حقيقة الدعوة، وطرق بثها في عسير الزمان، وفي ظلال القبضة المحكمة.

لن يروي ماء الملح عطشان أبداً

رجل يعيش في دولة تعادي الإسلام، وتقف مع المرأة مهما كانت كاذبة أو متسلطة، وتنصرها ولو كانت ظالمة فاجرة، استفتاني في صديق له ظلم امرأته بضربها ضرباً غير مبرح، وقد اشتكت المرأة للشرطة هناك، فأفتيته أن الشكوى غير جائز! تعجب السامع من كلامي، وقال: ألسن المقرّ بظلم الرجل؟ ألم تتحرّق وتغضب آنفاً نصرّة للمرأة المظلومة! ألم تكن صادقاً في موقفك؟

أجبتّه: كنت وما زلت على موقعي، ولكنني أصبحت الآن أمام ظلم جديد، فالشرطة في هذا البلد لن تأخذ حق المرأة ولن تنصرها كما ينبغي، إنما سيكون الأمر نصرّة للمبدأ الظالم، الذي ينصر المرأة على أي حالة كانت، ومهما ظلمت أو تعدّت، وستكون النّقمة ضد الإسلام، رفعاً لشعار غير الإسلام، وسيُتاجر بالموقف، ويسجلُ برهاناً على ظلم المسلمين أزواجهم.

وهل تدري يا عزيزي كيف ينصرون هذه المرأة؟ سيطلقونها من زوجها الحالي، ثم يتركون لها عنان الحياة، لتذوق كلّ أنواع الظلم والإهانة والعبث والتحرش وضياح الأنوثة في العمل الشاقّ في الحياة، بعد أن كانت أمّاً وزوجة تأتيها لقمة عيشها وكسوتها وسائر نفقتها إلى حجرها.

وما أشبه موقعي الحديث بأخيه القديم، لما تعدى مدرّس القرآن وضرب طفلاً من طلابه في معهد القرآن الكريم، ضربه بالعصا بسطوة لا تُبرّر، ولو عاقر الطفل الكبائر: من شرب خمر، وسرقة، وعقوق للوالدين، ولكن لما وصل الأمر إلى الشكوى على مدرّس القرآن لجهات عاتية، وعرفت أنهم

سيقضون بإغلاق المسجد، وقفتُ بوجه المشتكي، وقلت له: إن الجهة غير المسلمة التي تريد أن ترفع إليها مَظْلَمَتَكَ لن تنصر الطفل لإنصاف الحق، ولا لتحقيق العدالة، وإنما سيمارس الأمر على أن الإسلام ظالم، وسُتَصَدَّرُ الجريمة على أن مسلماً مارس العنف، وأن معلمي القرآن يزرعون الإرهاب في الطفل عن طريق ممارسته عليهم، فَيَشِبُّ الطفل وهو ناقد على المجتمع مُتَشَرَّبٌ لكل أنواع الانتقام، وأن أناساً من المسلمين أنفسهم قد نفروا من ضغوط دينهم، ورفعوا أمرهم إلى أولئك الممثلين - بتمثيل كاذب - لإحقاق الحق، وسيقف المعادي للإسلام موقف الأب العادل الحازم لإيقاف الظلم بين الأبناء، ليأخذ حقَّ المظلوم من أخيه الجائر.

أيرضى الله تعالى ورسوله ﷺ هذا الموقف!

وحاشا وكلا أن أَرْضَى باستمرار الظلم على أي نفس بشرية ممن ذكرت، ولن يهدأ لي بال، وبئس المرء من لا يُعْمِلُ عقله ولسانه لإيقاف هذا الظلم المبين، ولكني أُنْكَرُ أن يتسبب هذا الظلمُ بظلم أتعس وأبعد وأسوأ، كأن تحمي الشَّرْطَةُ المرأة في وِكْرِ نسوة، وباسم الدفاع عن حقوقهن تُسَاقُ النساء خطوات سريعة للعمل في أرذل الأماكُن، حتى تفتح عينيهما فتجد نفسها كل يوم بين يدي رجل غير الذي قبله، وانقلبت من امرأة كان يمارس عليها ظلمُ رجل بضربها في الأشهر السنة مرّة، إلى امرأة تضربُ أنوثتها في كل لحظة، وتحرق إنسانيتها، وتصبحُ ألعوبةً بيد شرار الخلق، وتصبحُ عاهرةً بعد أن كانت زوجةً وأمًّا.

الفارس لا يهتك ستر أهله

سُرقت مُدَرَّسة الرياضيات في مدرسة شرعية خاصة بالبنات مبلغًا من المال، ورفعت المديرية أمرها لمدير أوقاف ذاك البلد، وهو رجل حكيم بعيد النظر، فما كان منه إلا أن درس الموضوع، من عدة نواح، ومنعه من التصريح بأمر، منها:

١- دخول عناصر الأمن إلى مدرسة خاصة بطلبات العلم الشرعي، وما سبق أن دخلوها.

٢- خطورة سحب المدرسات إلى فروع الأمن للتحقيق في الموضوع.

٣- ظهور السمعة الخاسئة على مُدَرَّسات مدرسة العلم الشرعي، وتناقل الناس الخبر.

سأل مدير الأوقاف المديرية عن قدر المبلغ المسروق، فأعلمته به، فأتى بمبلغ آخر مكان الذي فُقد، ودفعه إليها، وطلب منها أن تدعي أن خطأ طراً على الحسابات، ثم تم تصحيحه، وطوى الخبر عند هذا الحد، ولكنه لم يَطوِ العقوبة عن السارقة، إنما ضيقَ عليها حتى تركت التدريس وهربت.

ومثلها في العلاج لما اختلس أحد جيران المسجد بعض السجّاد الأعجمي الذي يتغالى الناس بثمنه، سرقه وباعه، فأرسل إليه مدير الأوقاف، واستفهم منه، لكنه أنكر، ثم اعترف، واعتذر بأنه ما فَجَرَ إلا مِنْ ضيق يده، وليس لديه ما ينفقه لولادة امرأته، فأتى مدير الأوقاف بالمرأة التي اشترت السجاد منه، والطريف أنها قد اشترته بقرابة ربع ثمنه، وذلك لجهل هذا

المسكين بثمان تلك الثَّحَفِ الغالية، فأقرَّت بشراء السُّجَّاد، ولكنها تأبى أن تردَّ البيع، وذلك بعد أن أوصلوا لها كامل الصورة وأن السُّجَّاد مسروق من المسجد، فأصرت على عدم الرد، فقال لها مدير الأوقاف: إذن سأرفع يدي عن الدفاع عنكم، وسيرفع أهل المسجد الشَّكَاية إلى فروع الأمن، وكما تعلمين أن السَّارِق والمُنْفِق للسلعة المسروقة شريكان لمشروع واحد في نظر الأمن، فخافت المرأة، ورَدَّت السُّجَّاد، لكن السَّارِق تصرف بالمبلغ، فأتى مدير الأوقاف بثمان السُّجَّاد من طرفه، ورده إلى المرأة المشتريّة، وغسلوا السُّجَّاد، وظهرت الصورة أمام المصلين وأهل الحي أن حملة النظافة كانت سبب فقدان السُّجَّاد تلك الأيام القليلة.

إنها الحكمة التي اقتضت أن تُعالَج الأمور من غير نثرٍ للعجاج، وتذعيرٍ للناس، ونشر للفاحشة المُقْتَرَفَةِ، وإنما هو ستر المذنب بثوب حتى لا يراه أحد، كما قال النبي ﷺ لصاحبه هَزَّال، الذي أشار على ماعز بالاعتراف بالزنا: **«يَا هَزَّال، لَوْ سَتَرْتَهُ بِرِدَائِكَ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ»**^(١).

وأخيراً أقول:

لقد اتضح كم للبيئة المعارضة من عناء، ولكن ربما يغفل الناس عن أمر: هو أن العيش مع المعارضة تُورثُ الإبداع، وتُعلِّمُ التحايل على الشدائد، ومن أصغر الأمثلة: أن الطفل الذي ينشأ في بيئة الشدائد يتعلم مقاومة مصاعب الحياة، وكيفية الحصول على رغيف الخبز، وانظر إلى عظماء العالم

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم: ٢١٨٩٠، وقال محققو المسند عن الحديث وإسناده: «صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن».

ستجد فيهم الكثرة من الأيتام، وذلك بسبب فَقْدَانِ التراخي والفتور، الذي يصيب مَنْ لديه أب يحمل همّه، ويصرف عليه الأموال، ولا يكلفه شيئاً من أعباء الحياة، ولن أطيل في ذكر الفرق بين مَنْ كان اعتماده على الأب، ومن كان اعتماده على الرب.

والأفضل من هذا الداعي الذي يجاهد ويحارب في سبيل إيصال المعلومة، بل كيف التدرُّج في التصعيد مع المقاوم والمحارب.

الإبداع في الرد على المعارض

وهو اتخاذ الداعي قاموساً شاملاً، بل غير متناه في الرد على المعارض، بحيث يضع الكلمة اللينة في مرحلتها، ويستبدل بها غيرها عند اللزوم.

فمرة يقول له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، ومرة يخاطبه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ومرة يقبل على أبيه ويخاطبه: ﴿يَتَأَبَّتْ﴾ [مريم: ٤٢]، ومرة يعلنها للمعرضين صراحة: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

وأخرى يعلن العداء إعلانياً: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

المهم هو اتساع لغة القاموس لدى الداعي، فليس لديه التبشير فحسب، كما ليس لديه التذكرة فقط، ولا الكلام الحسن وحده، ولا الشديد دائماً، وفي هذا يكمن الإبداع الذي يُسعى إليه دائماً، ألا وهو: تحيُّر المعارض أمامه،

وإجباره على لغة حسنة، وضبط لألفاظه، وحساب الحسبان لجواب كل كلام. وسأعلنها صراحة: ما أكثر ما سمعت في المجالس متحدثاً يذكر سماحة النبي ﷺ، ويذكر لينه ﷺ، دون ذكر الخلق الآخر، فلا يذكر أنه أول وأحسن وأعظم من استجاب لله تعالى في أمره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وأنه إذا عفا فهو القائد، وإن انتقم لله فهو المعتز به، فهو ينتقم لله كما أراد الله، وليس هو نبي الرحمة فحسب، بل نبي الرحمة والمُحَمَّة، وهو رحيم بالمؤمنين، شديد على الكفار، هكذا وصفه ربه: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فلم التركيز على جانب تهواه النفس دون آخر، وأين التسليم لما جاء عن الله تعالى؟

فما بال بعض المعاصرين خجولاً حيئاً من الغرب وأفكاره، كلما أراد أن يتكلم عن الإسلام تكلم عن الرحمة فحسب، من غير إبداع واتساع لقاموسه! ولا يجد آية أو حديثاً يتعارض مع العدو إلا لوى عنق النص، أو نفى صحة الحديث، أو أخفى طرف الحادثة، أو شرح بما لا يتعارض مع الغرب، فإن أعياء الأمر علّق على الاحتمال والتوقف والظن.

الاستسلام للعدو المحاصر خورٌ وتحقيق لمخططه

رحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي (ت: ١٣٥١ هـ) إذ قال:

وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالْتَّمِيٍّ وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِلَابَا
وَمَا اسْتَعَصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَالٌ إِذَا الْإِفْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابَا

حدثني رجل لم يُتِمَّ سِنِّيَ جامعته الأربع بسبب مادتين فقط، قال: كان من أساليب نظام القمع في بلده والحرب على الدين أنهم يضعون مادة الامتحان قبل أذان المغرب، إلى ما بعد العشاء، وهذا مقصود للتضييق على الشاب المتدين، الذي يُجْبِرُهُ على ترك الصلاة، أو اعتزال الدراسة.

قال: أتيت شيخي فسألته متحيراً: لقد عارضوا بين وقت الصلاة والامتحان، أخرج الصلاة عن وقتها، أم أترك الامتحان؟

أجاب الشيخ ببضع كلمات: «اترك الأقل أهمية في نظرك، وحقق الأهم».

لم يجد الشاب المؤمن بُدًّا من ترك الامتحان من أجل الصلاة، ومضت السنة وتعطل تخرجه في الجامعة بسبب بعض المواد التي تعارضت مع الصلاة، ثم تغيرت الأوضاع في بلده، حتى اضْطُرَّ إلى الخروج قاصداً بلداً عربياً آخر، ولم تتسع الفرصة له لإكمال الدراسة الجامعية في مهجره، بل مضى الزمن، وتجاوزته، وأصبح طاعناً هرمًا، يُرجع شريط الذكريات، ويسأل نفسه: لم حصل معي هكذا؟ لم بنى أصدقائي وأحبائي مستقبلهم الدراسي، ثم جعلوا يأكلون ويشربون براحة بعد عناء دراسة، إلا أنا فكنت أتقلب بالأعمال المهنية الشاقة لكسب لقمة العيش.

ثم اطلع على مسألة الجمع بين الصلاتين في الحضر، فقال وعينه تدميان: ألم يكن في الأمر فسحة لإنقاذ حياتي ومستقبلي بهذه الرخصة^(١)؟

(١) روى مسلم في صحيحه برقم: (٧٠٥)، من طريق أبي الزُبَيْرِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا بِالْمَدِينَةِ، فِي غَيْرِ =

ليس في الإسلام غرفة بلا باب ولا نافذة

لدي أسئلة تهزُّ العقل هزًّا: أليس في هذا الإسلام العظيم رخصة لإبطال عمل المعارضين وأهل الزيغ، وتحقيق مشروع أهل الإيمان؟ أيرضى لي الشرع أن يَحْصُرَني عدوي بين خيارين أحلاهما مرًّا، وأصفاهما سقمٌ، ولم يتح لي هذا الشرع العظيم رخصة أترخَّصُ بها؟

أيمكن أن يجعل الإسلام للمسلم مخرجًا عند الإكراه أن ينال من الدين بكلمات يمررها على شفتيه، مع ثبات القلب على الإيمان، ولا يجعل له المخرج فيما هو أقل من الكفر؟

أيجوز للعالم والمفتي أن يحقق مشروع العدو بسؤال يحاصر المؤمن الشغوف بالإيمان، بحيث يريه إما أن يُحَقِّقَ ما أَرَادَهُ العدو، أو يخرج عن سور طاعة الله تعالى؟

أليس من تدمير العدو وتثبيت المؤمن أن يسعد المؤمن برخصة يَسْبَحَ بها في تقوى الله تعالى، وتُهْزِمَ عدوّه ملومًا مدحورًا خائبًا خاسرًا من عمله؟

= خَوْفٍ، وَلَا سَفَرٍ» قَالَ أَبُو الزُّبَيْرِ: فَسَأَلْتُ سَعِيدًا، لِمَ فَعَلَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا سَأَلْتَنِي، فَقَالَ: «أَرَادَ أَنْ لَا يُخْرِجَ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِهِ».

وقد أطل الإمام النووي (ت: ٦٧٦ هـ) رحمه الله إطالة ماتعة في شرح الحديث، في تعليقاته على «صحيح مسلم» ٥: ٢١٩، وكان من آخر ما قال: «ذهب جماعة من الأئمة إلى جواز الجمع في الحضر للحاجة، لمن لا يتخذ عادة، وهو قول ابن سيرين، وأشهب من أصحاب مالك، وحكاه الخطابي عن القفال، والشاشي الكبير من أصحاب الشافعي عن أبي إسحاق المرّوزي، عن جماعة من أصحاب الحديث، واختاره ابن المنذر، ويؤيده ظاهر قول ابن عباس: «أراد أن لا يُخْرِجَ أُمَّتَهُ»، فلم يُعَلِّه بمرض ولا غيره، والله أعلم».

ألم يكن الأجدى أن يطير الشاب بفتوى الجمع بين الصلاتين، وتحقيق مصلحته الدراسية، وشعوره برضاء الله تعالى وقد أدّى فرضه برخصة معتبرة. وعندها يشعر العدو بالانهزام، حيث لا يرى أحدًا من الطلبة المؤمنين قد تخلّف عن الامتحانات، ويشعرُ بالخسران، وإخفاق المخطط، وزعزعة في داخله؟

لكن الجواب الذي يحضرنى هنا: أنني أعذر الشيخ الجليل ظانًا بأنه لم يطلع على تلك الفتوى، ولكني لا أعذره في ترك الاستعانة بأصدقاء ومفتين مطلعين على فروع الفقه أكثر منه، لأنه لتلامذته راجع، ومسؤول عن رعيته.

خوف الداعي من النفاق للظالمين

حُق للداعي أن يرتفع صوت إنذار الخطر لديه من النفاق وأسبابه وأربابه، وعلاجُ هذا الابتعادُ عن أي سبب من أسباب النفاق، أو موطنٍ من مواطنه، أو فردٍ من حُدّامه، ولكنّ تلبّيس إبليس يركبُ الداعي أحيانًا فيعتزلُ الدعوة بتمامها بذريعة خوف النفاق للظالمين.

وهذا كمن ترك الزواج خوفًا من الولد المعوّق، أو خوفًا من الزوجة الخائنة، أو ما إلى ذلك.

إن النية موضعها القلب، فليُصَفَّ نِيَّتُهُ بإرادته الله تعالى، وليكن دائم العناية بقلبه من أن يميل نحو النفاق، وليتَّقِ الله، ولينطلق نحو الدعوة، فإن خشي على نفسه النفاق فليكن دائم المراجعات، وأكبر علاج وقائي من النفاق هو الانخراط في سلك عصابة من المؤمنين، الذي يخشون ربهم بالغيب، ويصحّحون له المسار إن اعوجَّ.

أما ترك الدعوة بهذه الحجة الواهية فهو محض تلبيس من إبليس.
على أنني لا أنفي وجود حالاتٍ شاذّةٍ، يغلب على ظن الداعي أنه لن يملك
زمام نفسه، بل ستنفّلت من يديه وتهوي في النفاق، فلعلّ لهذا عذراً
يعذره الله تعالى به.

البعد عما تتبناه السلطات السياسية وما تعاديه، إلا عن قناعة يقينية

تغيير المواقف السياسية تغييراً من أقصى الشرق إلى آخر الغرب،
وما أخف عقل الداعي إن خرج كالببغاء يردد مواقف السلطة، ولم يترّب ولم
تؤدبه الأيام والسّنون، فقد تتبنى الدولة دعم فرد أو جماعة أو قضية، ثم
سرعان ما تنقلب فتلمّ أفراد الجماعة، وتتنصّل من نبيلها، وتعتذر عن
إحسانها.

المواقف تتغير، ولكن الرجال لا تتغيّر إلا عن قناعة، ولا حرج إن
كُذّب السياسي والمسؤول، لكن خطاب العالم مدعّم بالكتاب والسنة،
والآيات والأحاديث، فإذا ما دُعّم توجّه سلطاته في المرة الأولى، ثم نكص
معها ودعم الموقف الآخر، وكل مرة استدلّ بآية أو حديث يدعم موقفه فإنني
أخشى ما أخشاه أن يكذب الله ورسوله، لا المسكين المتلونّ الماشي في ركاب
حُكّامه وأسياده.

لذلك: ما كان ينبغي للداعي أن يتخذ موقفاً سياسياً، إلا في حقّ بان
كالشمس، ولم يشبهه أيّ لبس.

الدعوة بالقواسم المشتركة في ظل هيمنة العدو

إن الأخلاق لتشارك جميع الأمم والشعوب والبشرية في قاسم مشترك كبير بينها، فما في البشرية أحد يحث على الإساءة للوالدين، ولا الجار، ولا الصديق، ولا فيها مَنْ يحثُ على الخيانة الزوجية، ولا البخل وإمساك المال في مساره الحق، فإذا ما كان في وقت اشتدت فيه الوطأة على المؤمنين أمكن الداعي أن يدعو بالقواسم المشتركة، وهذا من أنجح الأدوية لمن يرغب ترك الدعوة بحجة تكميم الأفواه، فيقال له: تكلم عن الإخلاص في العمل، وعدم تفلت الموظف من الخدمة المفروضة عليه، وتكلم عن سوء الغش، وفحش الرشوة، وجار السوء، وخيانة الخائن، وتضخيم ثمن السلع التجارية والمواد الأساسية، تكلم عن الإحسان إلى الناس، والعفو عن الظلم، وإشاعة التعاون، والسماحة مع أبناء البلد الواحد، ونشر الحب وأمثالها، فجُلَّ هذه الأمور موضع اتفاق بين الحكام والشعوب وجميع الشرائع، وهي من صميم رسالة الإسلام.

ولو أنه أفرَدَ الكلام عن الوزير المزور، والبرلماني المُنتَفِع، ورئيس البلدية السارق، ووزير الإعلام الماجن الناشر للرديلة وأضرابهم لأخرسَ الظالمون فَمَهُ، وكَمَمُوهُ، وهَرَّوْا جَسَدَهُ، وقَشَرُوا جلده، وبات في شرِّ مكان ومكانة.

ولا أرى في حال من الأحوال ترك الحديث عن هذه الفظائع، ولكنني أتكلم عن موازنة تشغل مريد الاعتزال، وتمنعه من الجلوس والفراغ، ولتلك الأحاديث رجالها المسؤدون، وأبطالها الذي أوتوا من الحكمة في اقتناص المناسبات، وعندهم ما يجعلهم يتكلمون بحكمة ولا يسكتون.

وهكذا تجد أن الكلام في القواسم المشتركة خير من السكوت والاعتزال لمن لا يحسن أو يستطيع الكلام عن العظائم.

طمأنة العدو بما تعتقده وهو يعتقد

يقول العلامة المفسر الشيخ محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٩ هـ) رحمه الله: «إنني لا أريد أن أحكم بالإسلام، وإنما أريد أن أحكم بالإسلام».

من المهم جدًا لدى الداعي البعيد عن السياسة - وهم السواد الأعظم والكثرة الكثيرة - أن يطمئن المسؤولين أنه لا يريد هزّ عروشهم، ولا النيل منهم، ولا تأليب الناس عليهم، وهذه الدعوى يُصدّقها الواقع أو يكذبها، حيث إن المتطلع إلى الشهرة، ونيل إضفاء الجراءة عليه من قِبَل العامة ليجد أن أسهل طريق له مهاجمة الحكام، ويغلب على هؤلاء أحد صنفين من الناس: منهم الذين يريدون أن يقال عنهم جرّاء، وويل لهم من هذه النية.

ومنهم المتهورون الذين يدفعون حياتهم رخيصة دون ثمن يذكر.

وقليل منهم من ينقد باتزان، واعتدال، وغيّرة مع رحمة، وشفقة مع الإصلاح.

أشرس المعارضين

شر أنواع المعارضين وأشرسهم وأسوؤهم المعارضون المندسّون في صفوف الداعي، يظهرون أمام الناس أنهم منه، ويعملون على هدم ما بينه وتسريب أسرار، ولقد أحصيت أنواع البلاء التي ابتلي بها الحبيب ﷺ فكانت كثيرة، منها:

- فَقَدْ الصاحب: كحمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- فَقَدْ المساند: كخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
- فَقَدْ الناصر: كعمه أبي طالب.
- فَقَدْ الولد والسَّبَط: كفقده ولده إبراهيم، وسبطه ابن زينب.
- الأذى الجسدي بِشَجِّ الوجه وكَسْرِ الرَّبَاعِيَّة.
- التهجير من الدار الأساس.
- السحر.
- الضرب والإهانة والرمي بسلا الجزور.
- الكلام في عِرْضِهِ.
- وجود المنافقين في صفوف أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
- فدرستُ شرها وأسوأها فكانت مصيبةً المنافقين، ولو سئلت أهي أكبر شرًا من مصيبة الكلام في عرضه ﷺ؟ لقلت: نعم، لأن كل الكلام في عرضه ﷺ أحد بلايا المنافقين الكثيرة.
- وانظر إلى كامل سيرة النبي ﷺ مع المنافقين، وهم الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة إلا دَسُّوا سمومهم فيها، فإذا خرج في غزاة قالوا: ﴿لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١].
- ولم يوفروا شَتِيمَةً ولا وَعْدًا بباطل إلا وَدَسَّ أحدهم كيده، كقول خبيثهم

الأكبر: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لُيَخْرِجَكَ الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ [المنافقون: ٨].

فهم الذي خرجوا معه ﷺ في غزوة أُحُد وكانت عِدَّة جيشه نحو ألف، فانسحبوا حتى رأى نفسه ما معه غير سبعة.

وبعد أن جمع النبي ﷺ أصحابه في مسجد واحد، بنوا مسجد الضَّرَار لمسجده، ليشَتُّوا عمله، لكن فضحهم الله تعالى في سورة التوبة.

وقد كان النبي ﷺ كثير الاجتماع مع أصحابه في الصلوات، فكانوا يتخلفون عن صلاة العشاء والفجر، كي يَسْتُوا سنة التخلف عن الصلاة وراء رسول الله ﷺ، ولكن هيهات أن يَحَقِّقُوا ما طووه من خبائث النية.

فكيف كان علاج النبي ﷺ لهم؟ وما هي أهم طرق التعامل مع المعارض عامة؟

قواعد التعامل مع المعارض

لعل أقوى مؤثر في التعامل مع المعارض الدفع بالتي هي أحسن، إنه الوعد الإلهي لنبيه المصطفى ﷺ أولاً، ثم هو لنا عامة، وهو أن الدفع بالتي هي أحسن يعطي نتيجة: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولَدَى التَّجَرِبَةِ تجد أن أكثر ما يُبْطِل عمل الكائدين هو الدفع بالتي هي أحسن، ولقد كان جُلُّ علاج النبي ﷺ بالتغافل، والدفع بالتي هي أحسن، وترك المواجهة.

وهذا له فائدة مُبْطِنَة عجيبة، وهي أن أكثر العامة لا يقرؤون بين

الأسطر، وهذا يُشَقُّ الصف، بحيث ينقسم العامة - عند المصيبة - إلى أقسام:
- منهم المتعاطف مع الأضعف دون تحليل إن كان جانباً متعدياً أو مظلوماً.

- ومنهم المحتمي بالأقوى دون تحليل أيضاً.

- ومنهم الذي يهجر المكان والجماعة أصلاً إن حصل أي اختلاف.

- ومنهم العاقل الذي يُعمل عقله، ويجتهد، ويأخذ موضعه، وهذا نادر.

ومن الردود على المعارض الإعراض عنه، فلا أقوى أبداً من ترك إقامة الحد على رأس المنافقين المتكلم في عرض أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والسؤال: كيف يقيم النبي ﷺ حَدَّ الْقَذْفِ على ثلاثة من الصحابة الذين نقلوا الخبر، ولم يقمه على رأس المنافقين الذي تولى كِبَر الأمر؟

الجواب: في الأمر حِكْمٌ كثيرة، لعل أهمها: أن التطهير جُعِلَ للمؤمنين، أما غير المؤمنين فإن نال عقابه في الدنيا فلن يحاسب عليه في الآخرة، ومن ذلك أن قَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ اعتذارهم في غزوة تبوك، ولم ينلهم العقاب الذي وقع على الثلاثة الذين خَلَفُوا: كعب بن مالك، ومُرَّارة بن الرِّبيع، وهلال بن أمية، ومثلهم الذين أخطؤوا في الكلام يوم الإفك: مسطح بن أثَّانة، حَمْنَةُ بنت جحش، وحسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومنها: مراعاة الرأي العام، وعدم تأليب الناس، ففي نص الحديث، لما استأذن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المصطفى ﷺ أن يقطع عنق عبد الله بن أُبَيِّ ابن سلول

المنافق أجابه ﷺ: «دَعُوهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(١).

وما يدري كثير من الناس أن الرد المباشر على العدو يكون أحياناً أكبر عامل مقوِّ لعمل المعارض، أما الإعراض فإنه إضعاف، ولكن الدفع بالتي هي أحسن إبطال وإحباط.

فهذه أقوى قواعد التعامل مع المعارض، وما لجأ أحد إلى المجابهة دائماً إلا خسر مواقف كثيرة، ولا لان بين أيدي العدو دائماً إلا أكل، ولكن التغافل ظاهراً واليقظة باطناً أغلظ سلاح يُلقَى على العدو.

لكن لا تنس أن على الداعي إيصال رسالة للمدعو أنه غير مستفيد من دعوته إلا أجر الآخرة، وما يتعلق بها، كالمودة في القربى.

أما إن كنت أمام معارض، فزد عليها نقطتين:

١- لن أترك الدعوة ولن أقدم استقالة من العمل مع الله تعالى.

٢- ليس بين يدي خيار ثالث، هما اثنان: إما الدعوة أو الموت.

الرد الناعم السَّامُ

وتجد في بعض المواضع ردوداً أشد من الإعراض، وهي من الدفع بالتي هي أحسن، ألا وهو الرد المفهوم لكلا الطرفين، الذي ظاهره النعومة، وباطنه السُّمُّ الزُّعاف، فاسمع هذه الحادثة التي تحدثت عنها السيدة الجليلة عائشة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تقول: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا:

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٠٥، ومسلم برقم: ٢٥٨٦.

السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ قُلْتُ: «وَعَلَيْكُمْ»^(١).

اعتزال الدعوة

قد يَشُقُّ الأمر على الداعي، وَيُضَيِّقُ عليه، فيختار اعتزال الدعوة، وينكفي على نفسه، ويتفرغ لأبنائه، ويلتمس عملاً من الأعمال الدنيوية، ويعلم ترك الدعوة.

وقد يعذر في هذا القرار واحد من الألف، ولكن الخطأ المبين أن يكون هذا القرار أول قرار يتخذه أبناء الدعوة، وهذا إن حصل فإنما يحصل من سوء فهم مشروعه، وذلك عند من ظن أن الدعوة طريق مفروش بالياسمين، وتترقق المياه على جوانبه، ويفوح منه عبق الأريج، فحيث تفاجأ بعكس هذا أعلن الانسحاب والإفلاس.

يخطئ ثم يخطئ من يضع الاعتزال حلاً، ويستشهد بحديث: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعَكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»^(٢)، أو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

(١) الحديث أخرجه البخاري برقم: ٦٠٢٤، ومسلم برقم: ٢١٦٥.

(٢) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ غَامِرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاحُ؟ قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعَكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ». أخرجه الترمذي برقم: ٢٤٠٦، وقال: «حديث حسن».

أما حديث: «وَلْيَسَعَكَ بَيْتُكَ»، فليس فيه اعتزال الدعوة، ولكن فيه تحبيب إملاء الفراغ بالعبادة، وأَعْرِفَ من يشرح الحديث حال راويه وسلوكه بعد أن سمع الوصفة من النبي ﷺ، وهو السائل للنبي ﷺ المستفتي له، فقد جاء في ترجمة سيدنا عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان إماماً في الدعوة، حيث قال عنه الحافظ الذهبي (ت: ٧٤٨ هـ): «الإمام، المقرئ، أبو عبس المصري، صاحب النبي ﷺ، حدث عنه: أبو الخير مَرْثَدُ الْيَزِيدِيِّ، وَجُبَيْرُ بْنُ نَفِيرٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَأَبُو إِدْرِيسَ الْحَوْلَانِيُّ، وَعَلِيُّ بْنُ رَبَاحٍ، وَأَبُو عِمْرَانَ أَسْلَمُ التَّجِيبِيُّ، وعبد الرحمن بن شُمَاسَةَ، وَمُشَرَحُ بْنُ هَاعَانَ، وَأَبُو عُشَانَةَ حَيُّ بْنُ يُؤْمَنَ، وَأَبُو قَبِيلٍ الْمَعَاوِرِيُّ، وَسَعِيدُ الْمَقْبُرِيُّ، وَبَعَجَةُ الْجُهَنِيُّ، وخلق سواهم.

وكان عالماً، مقرئاً، فصيحاً، فقيهاً، فرضياً، شاعراً، كبير الشأن، وهو كان البريد إلى عمر بفتح دمشق»^(١).

فبالله عليك: هل هذه الأوصاف من الفقه والتدريس وتحديث الطلاب والعمل مع عمال البلاد حال من وصف له النبي ﷺ وصفة فَهِمَ منها الاعتزال عن الناس؟ معاذ الله أن يكون المعنى كذلك.

ثم إن العزلة حل رائع لمن صرَّح له خصمه بالعداء، فيتخذ القرار باعتزال المقاتلين، ليتفرغ الداعي إلى غيرهم، وليس ليستقيل من الدعوة أصلاً، كاعتزال سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه.

ولا يستشهد أبداً بحديث: نَأْيُ النبي ﷺ عن الناس في غار حراء للتعب،

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» ٢: ٤٦٧ باختصار.

لأنه لم يكن مُرسلاً أصلاً، ولا مكلّفاً بالدعوة، إنما هو متعبّد ناءٍ بنفسه عن البشر.

وكان شيعي الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٢ هـ) رحمه الله يردد مقولة معناها: «خالطوا الناس بأجسادكم، واعتزلوا العاصين بقلوبكم».

وأختم الباب ببعض قواعد التعامل مع المعارض:

- الدفع بالتي هي أحسن: قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

- الجدل بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

- أخذ العفو، والأمر بالعُرف، والإعراض عن الجاهلين، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

- لا حرج من التصريح بالتحدي إن كان بأسلوب لين، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

- إذا وصل المعارض إلى اللغو فأعرض عنه، قال تعالى في وصف الذين آتاهم الكتاب من قبل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

والإقبال على من أقبل على الدعوة، كحال عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ١ - ١٠].

- شأن المعارضين الجدال بالباطل، فلا يَسْتَجِرُّونَكَ إِلَيْهِ، بل جادل بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ فَأَخَذْنَاهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

- التغافل: ولقد كان من سيرته ﷺ أنه يتغافل أحياناً عن زلل الأقربين، فكيف مع المعارض قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ ۖ وَأَعْرِضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣]، وقد قال الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ) رحمه الله: «اللبيب العاقل الفطن المتغافل»^(١).

- استعمل أسلوب التورية في الخطاب مع الحبيث، وهو الرد الذي ظاهره الحسن، وحقيقته مقصودة من الملقى، ومفهومة لدى المتلقي، كما في إساءة اليهود للحبيب ﷺ بقبيح الكلام بدل السلام عليه.

- يخطئ من يصور طريق الدعوة طريق البشارة فقط، بل لا بد من التعرض إلى التذارة، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا

(١) «سير أعلام النبلاء» ١٠: ٨٩.

وَنَذِيرًا ﴿[الأحزاب: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. وقال تعالى في معرض الكلام عن الذي آمن: ﴿يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

- أول كلمة تتكلمها مع مرضى المعارضة يهربون إلى تكذيبك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَفَرَّوْنَ فَقَالُوا سَجِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤]، فكن جبلاً لا يهزه ريح.

- ديننا لا يأمر بالقتل لمن لا يريد اتباع الدين، بل له حريته في الاختيار، ولكن لا يحق له اللعب بنا، بحيث يدخل في الإسلام وجه النهار، ويكفر آخره، أما المعارضون من الكافرين فأول براجمهم القتل، قال تعالى في وصف حال قوم موسى لما جاءهم بالحق: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴿٢٥﴾ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٥ - ٢٦].

سبحانك اللهم ومحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.
 وكان الفراغ من آخر حرف عصر الثلاثاء ١٤٤٥/٠٤/٩ الموافق لـ
 ٢٠٢٣/١٠/٢٤.

ثم كانت آخر مراجعة للكتاب يوم الخميس ١٤٤٦/٠٣/٢٣ هـ، الموافق لـ
 ٢٠٢٤/٠٩/٢٥ م، وذلك في ولاية غازي عنتاب، في تركيا.





صفوة الكتاب

الصفحة	الفكرة
٢٣	يطيب لبعض الشباب المتعلم لفن قيادة المركب حديثاً ألا يزحزح اليَقْوَدَ يَمَنَةً ولا يَسْرَةً، فتراه يمشي في الطريق بأسلوب أَهْوَجَ يتحدى بها الحُفَرَ ومطبات الطريق، وأشد منه سذاجة مع هوجاء مَنْ استعمل هذه العقلية في الدعوة، وهو يعلم أن جُلَّ الحفر مما عملته يدا عدوه.
٢٤	ألا إن سلعة الدعوة غالية، ألا إن الدعوة لا تصل إليها من طريق مريح مُعَبَّدٍ، فمن وقَّأها حقها من التعب والنَّصَبِ وصل، ومن تفلَّتْ وآثر الراحة فإن الطرد منها هو المأوى.
٢٤	ومن الناس من تُعْجِبُهُ نفسه، ويقدِّر كل ذرة يقدمها في الدعوة، ويرى عمله جبلاً تَنُوءُ بحمله العباد، وأما غيره في نظره: فجُلُّ الناس مُهَدَّم، والقليل من يبني مع الخطأ الكبير، والأقل من يقدح ويكدح ولكن في عمله خلل، أما نفسه فهو محور الصواب في الكون، والوزن الذي يقاس بعمله كل عمل.
٢٥	البعد جفاء، قاتل الله حجاب البعد ما أَصْفَقَهُ.

الصفحة	الفكرة
٢٩	تَدَّعي أنها لا تسمع من زوجها الكلمة الصالحة، ولا ألفاظ الغزل، وكلما دخل البيت بدأ التَّكْدُّ والتعب، ثم لا تلبث أن تتعمق في الكلام فتكتشف أنها السبب الذي أظلمت بها حياته، فبمجرد أن يدخل بيته يقع في زنانة عذاب، يَتَجَرَّعُ فيها كؤوس المرار!
٣١	إرجاع الأسباب إلى سبب واحد خطأ من أخطاء التفكير، يوصل إلى نتيجة مشلولة.
٣١	ما من طبيب يصف الدواء بناء على نظرة سطحية، أو توقع مبني على ظن، من غير فحص، ووضع اليد على العلة بدقة إلا سقطت نتيجته، وأخفق في علاجه، وكلما زاد في تحليل المشكلة زاد صوابه في تعيين الدواء، ودنا منه علاج المصاب.
٣٣	إذا قرأت أو سمعت موقفاً، فحاول أن تقف على الحقيقة الأولى من غير بهارات عرض، ولا لظى التحليل.
٣٦	حُقَّت الدعوة بالمكاره، ومعها بعض اللذائذ، ولكن المصير غالٍ، فَلَذَّةُ الروح تطنى على ألم الجسد، فالجسد يتعب، والروح لا تشيع.
٣٧	الداعي إلى الله وارث نبوي بكامل التركة: بالعز،

الصفحة	الفكرة
	والتكذيب، والابتلاء، والرفعة.
٣٧	الدعوة النفاذة تكون في الشباب والصغار، فإن أردت نهضة دعوية فكرّس كل الجهود فيهم.
٣٧	إحكام الأساليب الدعوية لا يعني ضرورة النجاح، لأن الأمر يتعلق بالمتلقي أيضًا.
٤١	الفتوى لباس يصلح لواحد ومن هو مثله لا أكثر.
٤٣	إن فيروس الاعتراض هو أن يقول المعارض للعامي في كثير من قُرْبَاتِهِ أخطاءً، ولو تبصّر هذا المعارض لجعل الاعتراض لمن خالف أمر الله فقط، أمّا ما كان في الأساليب أو الآراء المتعددة فلا اعتراض، ولَعَلِمَ أن ممارسة عبادة مرجوحة خير من ترك العبادة بالكلية.
٤٣	يقبل الشاب الحديث الالتزام على التدين، ويرى بعقله، ويزوق قلبه حلاوة الأخوة في المسجد، فلا يلبث أن يتعزّر بصنّاع الضوضاء الدعوية، حيث يقطعون عليه ضوء أنس الدعوة بمجدلٍ قيل وقال، فيكرة الالتزام بعد أن أحبه، ويصدّ عن المسجد بعد أن تعلق قلبه فيه، ويقول: هربنا من المختلفين على الدنيا لنصادف المختلفين على الدين؟

الصفحة	الفكرة
٤٤	بعض مُدَّعي الدعوة لا يهدأ له بالٌ حتى يعترض على كل شيء يراه في المدعو، ويصفه أنه خطأ، وأسمي هؤلاء بِعَوَائِقِ الدعوة، التي تعرقل سير السائر إلى الله تعالى، ولا تدله على الله.
٤٦	أَمَّا يَجِدُ الحَرَجَ الشديد من يسحب البِساط من تحت بعض العبادات ويترك المرء دونها؟ أليست المواظبة طيلة العمر على قراءة سورة معينة بين المغرب والعشاء خيرًا من عدم القراءة؟ فلا يجوز سَحْبُ عبادة إلا إن استبدل بها ما هو خير منها.
٤٨	أيعقل أن يرى الشاب في بعض دخوله إلى المسجد من يعترض على موضع اليدين على الصدر، أو قراءة الفاتحة، أو الجهر جماعة بالأذكار الواردة بعد الفرائض، أو التكبير الجماعي يوم العيد، أو غيرها، ولا يُحَرِّقُ بنار الاعتراض من يحلف كاذبًا قرب باب المسجد، والغشَّاش، ومن ترك الصلاة أصلًا؟
٤٨	عجبًا لأناس لا يعرفون إلا الاعتراض، وظنوا أنهم كلما زادوا من الاعتراض زادوا توقدًا والمعية، ومن وَلَعَ بعض الناس في الاعتراض أنه لا يكاد يجد أمرًا إلا نهى عنه.

الصفحة	الفكرة
٥٠	علمتني الحياة أن الناس قسمان: مُجْعِعٌ لا وقت لديه للعمل، وعامل لا وقت للجَّعَّةِ عنده.
٥٠	لا التفات نحو المصابين بوسواس الاعتراض، فيعترض، ويتوهم أن الصورة لم تصل، فيعيد.
٥٣	لا أنكر أبدًا أن في المدارس الدعوية أخطاء، ولكن جمع أخطائهن في صحن واحد، وعدم سماع الابن من أبيه، والتلميذ من شيخه، والطالب من معلمه غير أخطاء المدارس الأخرى، سيسبب له النفرة منهن جميعًا، والاشمئزاز دون تفرقة، مع أن المدارس تلك تحتوي على خيرات حسان، ولا أقول إن خيرها لم يحمل الخبث لأنه قد بلغ القُلَّتَيْنِ، إنما أصبح مجمع البحرين.
٥٣	أَيُّ تربية سَوِيَّةٍ ترجوها لولدك وتلميذك، وأَيُّ تَقَبُّلٍ للمخالف تخطبه ما دمت تغذيه بتجسيم زلات غيرك، وغض الطرف عن بلاياك.
٥٤	إن أحببت الحديث عن التوازن الخطابي فإنه عرض جوانب المسألة بما يوصل الصورة صحيحة كما يريد صاحبها، من غير زيادة ولا نقص يُشوِّهها.

الصفحة	الفكرة
٥٦	النفس تميل إلى الطفرات العالية جدًا، ثم الهابطة بمجدة، أشبهها بمرض السكري، الذي يرتفع إلى ٥٠٠، وربما هبط إلى ١٠٠، ولا تميل إلى التدرج والاعتدال.
٥٧	إن إدخال الشبهة إلى من ليس بعالم بها، وليس قادرًا على تجاوزها لسقطه، أما قطرة الشبهة في الأذن لمن يستطيع تجاوزها على سبيل التحذير والحصانة فهي حالة سوية، وبهذه الطريقة تكون كاللقاح، والفيروس المدرس ليُعطي للجسد مناعة، وليس وراء ذلك حبة خردل من صواب.
٥٨	لست منكرًا أبدًا أن طرَحَ الشبهات واجبٌ بقدر يسير، حتى كأنه لقاحٌ طبَّ وقائيٌّ.
٦٣	أَتَعَسَّ الناس دعوةً مَنْ يحمل فكرة، ويُجبر الناس عليها، دون تقدير للفروق: بين الصغير والكبير، والتائب والعابد، والصَّديقيِّ والجاهل أو الفاجر، والقريب والبعيد، والمضطَّهد والآمن، والغني والفقير، والمتسلَّط والمظلوم، والذكر والأنثى، والمراهق والمعمَّر.
٦٣	حَمَلُ الأُمَّة على رأي واحدٍ في المسألة المتعددة الآراء ضيقٌ في التفكير الفقهي، وصغرٌ في عقلية المفتي.

الصفحة	الفكرة
٦٣	وأَتَعَسَ الناسَ دَعْوَةً مِّنْ يَّحْمِلُ فِكْرَةً، وَيُجِيرُ الناسَ عَلَيْهَا، دُونَ تَقْدِيرٍ لِلْفُرُوقِ.
٧٠	إِنَّ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْفُتَاوَى بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى أَنَّهَا صَيْدَلِيَّةٌ، يَعْطِي الْأَوَّلَ دَوَاءً يَخْفِضُ الْحَرَارَةَ، وَالْآخِرَ يَعْطِيهِ الدَّوَاءَ الْعَكْسَ.
٧٢	لَأَنَّ لَدَى الْحَبِيبِ ﷺ صَيْدَلِيَّةً كَبْرَى، يَعْطِي مِنْ الْأَدْوِيَّةِ لِكُلِّ فَرْدٍ مَا يَحْتَاجُ، فَمَا كُلُّ مَنْ آلَمَتْهُ عَيْنُهُ أَخَذَ الدَّوَاءَ نَفْسَهُ.
٧٢	الْقَوْلُ الضَّعِيفُ يُعْمَلُ بِهِ لِإِنْقَاذِ الْمَرءِ مِنَ الْعَصِيانِ وَالْمُخَالَفَةِ، وَإِنَّمَا يَسْتَخْدَمُ الْقَوْلُ الضَّعِيفُ لِلْحَالَةِ الضَّعِيفَةِ.
٧٦	كَيْفَ يَنْظُرُ عَلَى ذَهْنِ الدَّاعِي أَنَّ الْوَصْفَةَ الدَّعْوِيَّةَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمُتَلَقِّي قَرَبًا وَبَعْدًا، حَدَاثَةً وَقِدَمًا، بَلَدًا وَآخَرَ، زَمَانًا وَأَخَاهُ، فَتَرَى بَعْضَ الدَّعَاةِ مَنْ يَتَمَسَّكُ بِعِلَاجٍ وَاحِدٍ، وَيَجْعَلُهُ التَّرْيَاقَ لِكُلِّ دَاءٍ.
٧٦	وَالدَّاعِيَةُ الْمُطَبَّبُ مِنْ يَشَخَّصُ الْمَرَضَ تَشْخِصًا دَقِيقًا، وَإِنْ أَحْتَاجَ لِكَثْرَةِ أَسْئَلَةِ الْمَرِيضِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الشِّفَاءِ.
٧٧	لَا يَزَالُ عُلَمَاءُ التَّرْبِيَةِ يَرْكُزُونَ عَلَى أَهْمِيَّةِ التَّعْلِيمِ، وَيَجْعَلُونَهُ نَبْضَ الْحَيَاةِ الرَّاقِيَةِ، وَسَبَبَ رَفْعَةِ الْأُمَمِ.
٧٧	إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لِسَبَبٍ بَقَاءِ الدَّعْوَةِ،

الصفحة	الفكرة
	ولولا نفر من المؤمنين لاندرس الدين وانعدمت أكثر الأخلاق.
٧٧	إحياء السنة لا يكون بإشاعة البلبلة، فمن أراد أن يحييها وجب عليه أن ينظر في مآلات الأمور، فإن صلحت كان بها، وإلا فترك السنة خير من إحداث فتنة.
٧٧	السكوت عن السنة عظيم، وإعمالها هو الغاية المطلوبة، من غير أن يزيد الهدم على البناء، كمن أراد أن يطلي جدران بيته بالطلاء، فنزع أثاث البيت على بكرته.
٧٨	إن ذا البصيرة ليقندي بالحبيب ﷺ بشأنه في الإصلاح وترك الفاضل عند تعارضه مع شرارة الضرر الأكبر.
٧٨	من الناس من يعشق تسويق الرأي وقتل أخيه، ومنهم من لا يروق له سماع غير هذا الصنف، والعقول السويّة ترى الرأي وأخاه، وشبيهه، وقريبه، والأبعد، حتى ترى نقيضه، ويعطون لكل واحد منزلته.
٧٩	- بعض رواد المدرسة التقليدية لا يرون غير أنفسهم، فهم بما لديهم مرجّحون، ولاختيار غيرهم منكرون، يذكرون المسألة الشرعية ويعطون الحكم فيها، ويضفون عليه

الصفحة	الفكرة
	ألقاباً تصور للسامع أنه الحق الوحيد، والقول السوي اليتيم.
٨٠	الانقلاب الذي يحصل من غير اتزان قد يفوق الضرر المعادي وقد يساويه، لكنه ليس بخير قطعاً.
٨١	والعاقل المتزن من يستثمر كل الأقوال، ولا يوقّر قولاً إلا وله نازلة تحتاجه.
٨٣	فيا للتَّخْجِيرِ ممن يقدّم رأياً معتمداً، ويترك أخاه هملاً، بل إن فاعل هذا ليستحق التأديب والمنع من الفتوى، أما علمت أن من روح الشريعة وجود أكثر من قول.
٨٣	تصدير رأي واحد وإيهام العامة أن هذا الوحيد حكم الإسلام احتكار لا يرضاه الله تعالى ولا رسوله ﷺ، ولو أراد الله ألا نختلف في الفروع لجعل الشرع كله كالمسائل غير المختلف فيها.
٨٤	المذاهب أمام المفتي كالعقاقير عند العطار، يعطي هذا ما يناسبه، وذاك ما يسكنه.
٨٥	إذا اقتنعت برأي فلا حرج عليك أن تتبناه، ولكن اتق الله أن تقتل الأقوال الأخرى، ولو أراد الله من المسلمين ألا تتعدد الأقوال لحسم الأمور كلها وجعلها رأياً واحداً،

الصفحة	الفكرة
	كأصول العقيدة، ولكن يريد أن يخفف عنهم، وألا يقع الناس في الحرج والتحرُّج، وهي صدقات تصدق الله بها على عباده، فلنقبل صدقته.
٨٧	وَمُئِينًا فِي عَصْرِ فِيهِ أَنَاسٌ جَامِدُونَ، يَحْكُمُونَ عَلَى أَلْفَاظِ الْمَجَازِ أَنَّهَا شَرَكٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَحْمِلُونَ الْمُتَكَلِّمَ عَلَى أَسْوَأِ احْتِمَالٍ، فَالْكَلِمَةُ الَّتِي تَحْتَمِلُ الشَّرْكَ وَالْمَجَازَ حَكْمٌ عَلَى صَاحِبِهَا بِالشَّرْكِ احْتِيَاطًا!
٨٧	الَّذِي مَا خَيْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَعْسَرَهُمَا فِيهِ الْغَالِبُ تعرف فتواه بالمنع قبل أن ينطق بها.
٨٧	وصل ببعضهم من سطحية فهم الشريعة، والبعد عن روحها أنه يطالب أو يتخيل أن لكل مسألة في الدنيا نصًّا نبويًّا صريحَ الفتيا.
٨٩	روي في الأثر: «لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحُمَقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يُورَثُ»، إذا كانت مَصَّات من الحليب تؤثر، فكيف برضاع العلم من الحمقى، وأنصاف المتعلمين، وما أكثر من ساد قومه حتى غدا فيهم الأحمق المطاع!
٩٥	وَكَمْ أَرْهَبَ طَرِيقُ الدَّعْوَةِ الْفَارِغِ الطَّوِيلِ أَنَسَاءً، تَوَهَّمُوا أَنَّ

الصفحة	الفكرة
	السير فيه عسير ولن يصلوا، فسلكوا الطريق الذي يَعُجُّ بأمثالهم، ولكنهم في النتيجة يكرّرون الأعمال، وما تميّزوا.
٩٥	الفائز من سد الثَّغَر المتروك، ولو تكلف المشي أبعد، ولكن أسرع وأنجز، حتى صار كأنه شامة في الناس.
٩٥	فليكن شعارك: عملي في الدعوة: «تأييد الصحيح الواقع، وتأمين المطلوب النافع».
٩٦	الظن القوي من يرمّم قديم المباني ويستثمرها، وينشئ ما يحتاج من المحاريب ويستخدمها.
٩٦	ويل للمبالغة الزائدة فإنها لم تدخل خَلَّة من خلال الدعوة إِلَّا أفسدتها.
٩٦	ما أقلّ أدب من يبالغ في دين الله تعالى! فَمَنْ أمر بالسنن الرواتب وصور للناس أنها كالفريضة فقد أساء، ومن حطّم خطأ تحطيماً أكثر مما يستحق سقط نقده من أعين السامعين.
٩٦	ولو أراد الله أن تكون صلاة الجماعة في المسجد فرضاً على الرجال كفريضة الصلوات الخمس لأنزل فيها قرآناً صريح اللفظ يُتلى، ولما اختلف العلماء في ذلك، ولكن سعة

الصفحة	الفكرة
	الاختلاف أمر يريده الله تعالى.
٩٦	أحسن ما يعبر عنه في الإقرار والنقد هو الحجم الذي أراده الشارع الحكيم، فليس إنكار الموسيقى كإنكار الزنى، ومن سوى في اللفظ واللهجة عند الإنكار فقد خلط وأساء.
٩٩	تميل نفوس الناس نحو المبالغة، ولكنها في الجماعات ذات تأثير في إثبات الولاء والبراء للجماعة.
١٠٠	لعل من المزايدة الخاسرة أن يزحف الحكم من كتب الأخلاق إلى الفقه، إلى فروع العقائد، ثم ما يلبث أن يستلم منصّب الصدارة في العقائد.
١٠٦	أُنجز واجب الوقت، ولا تقدم عليه أيّ مهم، وبعد إنجاز الأهم لك أن ترتب الأولويات كما ترى.
١١٢	وما أكثر الناس ولو حرصت بمترنين، بل تميل الكفة لدى الشخص حتى ينجح يمنة أو يسرة، فمنهم الذي يصدق كرامات مكذوبة، ويسلم لخزعبلات لا تدخل في عقل مجنون، ومنهم من يقيس المغيبات على عقله، ويجعل عقله الحكم على ما ورد من صحيح الأحاديث.

الصفحة	الفكرة
١١٣	إعمال نقد العقل في أمور المغيبات الثابتة قد يؤدي بصاحبه إلى الكفر، كما أن إهمال العقل بالكلية لا يعطي الإيمان الراسخ.
١١٣	يكثُر في زماننا نوعان من الناس: منهم من يصدق كل أكذوبة ألصقت بالنبي ﷺ، بدعوى المحبة له، والمدح له، ومنهم من يُعْمَلُ النقد في أحاديث الفضائل كأنها واردة في أصول العقيدة.
١١٣	من التوازن الخطائي ألا يركز الداعي أحاديثه دائماً بصورة رفيعة تليق بخطاب العلماء، ولا بصورة يسيرة تليق بالعامّة، ولا يركز على المواعظ، ولا يُدْمِن طرْح المناقشات العقلية، بل يكون لديه لكل مقام مقال، ولكل فن رجال، وعند الكلام أمام الجمهور المتنوع فإنه يُنَوِّعُ في الحديث، ويُغَيِّرُ في الأساليب.
١١٤	إن إغلاق القفل لجعل السامع - بشعور أو عدمه - يبحث عن أخطاء مَنْ بالغت في مدحه، لأنك سَوَّغْتَ المدح وَصَدَّرْتَهُ، وَصَادَرْتَ - ولو بطريقة خَفِيَّة - وجودَ الزَّلَل والخطأ.
١١٥	ما أُحْيِيَ تحسِينَ الحسَنِ وتنميته، وتقبيحَ القبيح وتوهيته!

الصفحة	الفكرة
	ولكن من التعدي على حقوق الناس أن تنسف أعمالهم لإعجابك بشخص ما.
١١٦	مدح الحبيب ﷺ يقتضي أن تعظم الشرع كما أراد الله تعالى، لا كما تُملي عليك عاطفتك.
١١٧	ألا تفرّق معي بين الصحابي الذي تورّط ووقع في الذنب، وبين من يُفّي الشاب والفتاة ليقعا في الذنب!
١٢٢	إن التوفيق في العبارة، والسداد في الطرح، وانتقاء الحرف اللازم لتوفيق إلهي، لا يسع المسلم إلا أن يفتقر إلى الله تعالى، ويطلب منه العون والمدد، وأما الاعتماد على النفس والبيان والبلاغة والإقناع والحجّة وحدها فهو أكبر مُدمّر.
١٢٣	إن حصل خطأ في أداء الدعوة لمدرسة وفرحت المدرسة الأخرى فيا له من ضيق نظر مخجل، عندها اعلم أن حظوظ المتابعة للجماعة قد غلبت على حب الدعوة وولائها.
١٢٣	توجد حظوظ جماعة كما توجد حظوظ نفس، وأنانية للجماعة كالأنانية الذاتية، ومكابرة في اعتراف خطأ الجماعة تشبه المكابرة الشخصية.
١٢٦	مجازفة العبارة شلل يحجب الساعي عن قبول الخطاب، إلا

الصفحة	الفكرة
	لدى عشاق الأمور الفارقة.
١٢٩	العامل في حقل الدعوة كالبنّاء، والمخرّب في الدعوة كالسارق يسرق من ذاك البناء، ولكنّ أقصى ما عنده أن يسرق الحجر والحجرين لا أكثر، ولو ترك البنّاء عمله ليجري وراءه لضاع عمره، وما وضع حجرًا على حجر، ولكن يسعّه أن يرقّع ما سرقه السارق بسرعة، ويتابع عمله.
١٢٩	ولو سألتهم ما مشروعك؟ لأجابه: دَمَّ الجميع، وتتبع العثرات، وإظهار شرّ ما عند الخلق، مع الحرص الشديد على طمس المحاسن، ولو استطاع أن يفسر الخير بشرّ ما قصّر.
١٢٩	والله غيورٌ على عباده، يقبل من العبد جملةً، لأنه «من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبيث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث».
١٢٩	العامل في حقل الدعوة كالبنّاء، والمخرّب في الدعوة كالسارق يسرق من ذاك البناء، ولكنّ أقصى ما عنده أن يسرق الحجر والحجرين لا أكثر، ولو ترك البنّاء عمله ليجري وراءه لضاع عمره، وما وضع حجرًا على حجر، ولكن يسعّه أن يرقّع ما سرقه السارق بسرعة، ويتابع عمله، وشتان ما

الصفحة	الفكرة
	بين هذا، وبين آخر: ترك العمل الجاد، ومضى يجري خلف اللّصّ، فلا أدرك ردّ المسروق، ولا أتمّ عمران الدار.
١٣٢	كن يقظًا عند طرح الكلام على الناس، فمن سمات الكثير منهم أن المعلومة الأولى هي التي تتركز في أذهانهم.
١٣٤	إذا تعلق العوأمُ بشخص فمن الصعب أن ينجح بجانبه ثانٍ في ندوة علمية، فضلًا عن أن يخلفه في إمامة أو قيادة مكان.
١٣٥	من أكبر الأخطاء الدعوية الدخول في مَعْمَعَة انتصار الداعي لجهة يراها العامة أنها ظالمة أو قوية، وإن كان يعتقد عدلها وإنصافها، ولكنه يمكن أن ينصرها بطريق مُلَفِّع بالحيادية، أو مخفي غير ظاهر.
١٤١	من أهم نجاح الداعية أن يَغُضَّ بصره عما هو حكم معتمد في المذاهب، وإن خالفه، أو زلّة لداعٍ، أو أسلوب رآه غيره صالحًا، أما هو فلم يَرَهُ.
١٤٣	الاجتماع على مفضول، خير من الاختلاف على أفضل.
١٤٤	ما جاء الأمر القرآني بغض البصر للرجال عن النساء فحسب، ولا النساء عن الرجال فحسب، بل الأمر أن يغضوا من أبصارهم عام، لذا وجب في عيوب الأخ، وزلات

الصفحة	الفكرة
	الزوج، وسَقَطَات الصديق، فضلاً عن موقف يحتمل الخطأ والصواب.
١٤٤	يصيب بعض ذوي الإنتاج والعمل والتميز مرضُ الأنا، فيرى عمل نفسه، وينسى عمل غيره الذين يتفانون في الميدان معه، وتكبرُ في عينه أخطاؤهم، وتُبرر عنده أخطاء عمله، ويرى لكل أخطائه حججاً وأعداراً.
١٤٧	أسوأ الدعاة حالاً من نصَّب نفسه محارباً لإخوانه الدعاة، وقد سلم أعداء دينه من لسانه وقلمه، وأحسنهم من توجَّه إلى الكفر ومَن حاربوا الإسلام، ورَتَّب أولويات الردود والمناقشات العلمية الهادئة مع إخوته.
١٤٧	إذا كانت الدولُ المتقدمة تفخر بتهدئة العلاقة مع الجوار والإقليم ودول العالم، فهل من حكمة الداعية أن يفجِّر العلاقة مع إخوانه.
١٥٠	الحرب عند الداعي لا تكون إلا على مُتَّفَقٍ على خطئه، أو أمر ذي بَالٍ شرُّه مستطير، فلا حرب في وجهات النظر، ولا الاختلاف الفقهي المعتبر، ولا غير المعتبر - وإن كان لا بد من الإنكار ورفع الصوت بالدليل والحجة والبرهان - ، إنما الحرب خاصة بمن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ.

الصفحة	الفكرة
١٥٢	قيل لطفل: هل أضيفك على حلوى، أم أضربك؟ فسخر من عقل السائل وأجابه: الموازنة بين خيرين أو شرين، ولا تصلح بين الخير والشر
١٥٦	مرحبًا بكل مناقشة علمية وَرَدَّ، فإن كان الفجورُ في الخصومة خلقًا من أخلاق المنافقين في توافه الدنيا، فإنها لأشد وأعظم في أمور العلم ونقل الشريعة.
١٥٦	عاداك غيابيًا دون سبق معرفة، ولو رآك لتغير كثيرًا، وكم في الناس من ناصب غيره العداة، حتى إذا فقد أخاه، لم يجد بديلًا عنه، ولم يعرف له شبهًا!
١٥٦	مشكلتنا ليست بالصدق، وإنما بالتصديق، فالكل صادق، ولكنه متحفّظ على أخيه، فهناك الذي يتحفّظ للعداء المدرسي.
١٥٦	هناك من يتحفّظ لتوهم الغلط، وهناك من يتحفّظ على الشخص كله من أجل مسألة من صغار المسائل التي بلغت، وهي صحيحة، وأنكأها وأشدّها من يُخَوِّن أخاه الصادق الذي لا تكاد تعرف عنه شائبة سوء، ولكن الزلل بلغه - والبلاغُ كاذبٌ - أو ظنّه - والظن أكذب الحديث - أو توهم

الصفحة	الفكرة
	والوهم يشبه السمّادير.
١٥٨	قَبَّحَ اللَّهُ وَهَمَّ العدا، وَلِيلَ الهجر، وظلامَ القطيعة، ما أَضَرَّهُمْ! فمن كان معاديًّا فليكن متحرِّيًا قبل العدا، ومن كان مقاطعًا فلا يقاطع أخاه إلا عند الخبر القطعي في سوء وفحش يستحقان ذاك الهجر المشروع.
١٥٩	سامح الله من فرح لزلل الدعاة، وهدى من تناسى قاعدة الستر على المسلمين.
١٥٩	كل حزب بما لديهم فرحون، ولغيرهم مُتَّهِمُونَ، نَتَّهِمُ غيرنا بأنه من أهل الأهواء، وفي صفوفنا أصحاب الأهواء، وهم مقلِّدون لا مبدعون.
١٥٩	تعلَّم وأنت خالي الذهن، وإذا ما عرض أمر جديد فحذار من معارضته وردّه، إلا إن ثبت لديك الدليل بما يؤيد ممشاك.
١٦٠	كم عاب الناس على بعضهم التعصب، وذلك في رمي غيرهم، أما إذا انتقل الأمر إلى ساحتهم جعلوا التعصب تمسُّكًا بالمبادئ، وأُلْبِسَ التَّحَيُّرَ قِنَاعَ الثبات على النهج الصحيح.

الصفحة	الفكرة
١٦١	متحرر العقل يناقش الفكرة، وصاحب الهوى ينظر مَنْ القائل أو الناقل لها.
١٦٢	أفلا يدرون أن صاحب العمل هو من تقع منه الأخطاء؟ ثم ألا يعلمون أن من لم يخطئ - من غير الأنبياء - هو الذي لم يعمل قط؟
١٦٣	أفلا تقدمتم لحمل عبء هذه المهمة؟ أم هو النقد من أجل النقد فحسب؟ أم هي رعونات طَفَّتْ بعد ضُمُورٍ، وأبت إلا الظهور، بل أبى الله أن يترك بعض أصحاب النية الحبيثة حتى فضحه في ثنايا حديثه، وصفحات وجهه، وفَلَتَاتِ لسانه.
١٦٤	حقق ما تريد من عمل، وكن من أهل العمل والحركة، ولا تكن من أهل الكسل والنوم، ولك الحق أن تَفِيَّ أعمال غيرك من العاملين بكل رحابة صدر.
١٦٥	أشبه المراحل الدعوية عند من يمارس الدعوة بالمراحل العُمُرِيَّة، فهناك مَنْ دعوته في سن الرضاع والمهد، ومنهم مَنْ في الطفولة المتأخرة، ومنهم مَنْ في المراهقة، ومنهم مَنْ بلغ النضج مع القوة، وهو الكهولة، وبعضهم وصل الشيخوخة،

الصفحة	الفكرة
	وآخرهم قد رُدَّ إلى أرذل العمر والحرف والتخليط.
١٦٥	تمثّل بعض المدارس مرحلة المراهقة الدعوية، وكثير من الناس يعرف أن مرحلة المراهقة هي مرحلة الأفعال والآراء والتصرفات والقرارات غير المتزّنة، وقد تجد فيها اتزاناً ونُبلاً وعقلاً، ولكن هذا خير في غير مظانه.
١٦٥	المراهقة الدعوية: ليست سنّاً معينة، بل وصف لحالة من اختل ميزانه الدعوي، واضطرب سُكَّانُ المركب لديه.
١٦٧	الحياة عند الغرّ عامة كلوحة مقسومة إلى قسمين: نصفها أبيض والآخر أسود متلاصقين، وليس بينهما منطقة رمادية، لكن طبيعة الإنسان كلما تقدمت سنه توسعت مساحة المنطقة الرمادية، على حساب الأبيض والأسود، حتى يفارق الدنيا، ومساحة الأبيض صغيرة جداً، والأسود كذلك، وأكثر لوحة الخبرة عنده رمادية.
١٦٨	ولا يكاد يخلو الكثير من الدخول في مرحلة المراهقة الدعوية، وهي بوجهة نظري كالخدمة العسكرية الإلزامية لأبناء الوطن، منهم من دخلها غير محب لها، وخرج بأسرع ما يمكن، ومنهم من عاشها بحذافيرها، واستمتع بكل لحظة فيها، ومنهم المخلص لها الذي تطوع فيها أكثر عمره،

الصفحة	الفكرة
	حتى أصبح عظيم المراهقين، ومخرّج المراهقين، وأصبحت أخلاقه مرجع المراهقة، ومدجنة لتفريخ الأغرار.
١٧٠	السعيد من وُلد صغيراً ثم كبر حتى بلغ الرشد ووقف عنده، ولكن الخسران لمن ولد صغيراً حتى وصل المراهقة فأقام عندها وعاش فيها، ولم يغادرها.
١٧٠	إِذَا رَفَعَكَ الْكِبَارُ فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ أَنَّكَ مِنْهُمْ، بَلْ تَذَكَّرُ سَنَكَ وَأَسْنَانَهُمْ، وَعِلْمَكَ وَعُلُومَهُمْ، وَحَجَمَكَ وَأَحْجَامَهُمْ، وَتَأْثِيرَكَ وَتَأْثِيرَاتِهِمْ.
١٧٤	كم نال الألعجى بذكائه - بعد توفيق الله تعالى له - من أماكن يستحقها، وربما فوق ما يستحق، ولكن كم دمر نفسه وكان الذكاء سبب مَهْلَكته! وكم رعى الله أقواماً بتزكيتهم لأنفسهم، وغرّق آخرون في أحوال حظوظ النفس والتطلع للدنيا!
١٧٩	لكل إنسان مفتاح يفتح قلبه، فلا يغيره شيء آخر، ولن يُلَيِّن من قلبه، فضلاً عن قَلْب قَلْبِهِ، وأنجح الدعاة أثراً من عرف مفتاح كل قلب ليفتحه، وتنساب المعلومات، وتركز الهداية المهداة.

الصفحة	الفكرة
١٨٠	مفتاح القلب يبدأ من حيث ميول السامع، والنتيجة إيصال كل أنواع الخطاب له، وبهذا تتلاقح أفكار الناس، ويتنوع خطاب الداعي.
١٨١	ما أحوجنا إلى الأمن الحواري أو التعليمي أو أمن عرض المعلومات، كي يأمن المرء على نفسه من الطرد أو الزجر أو التصنيف المُخْرِقِ المُدْمِر، بسبب تصريح أو سؤال أو وجهة نظرٍ أو توقُّفٍ!
١٨٣	الشبهة إذا لم تعط ما تستحقه من الإماتة نمت وكبرت حتى تسيطر على صاحبها، وتصبح معتقداً راسخاً.
١٨٤	لِمَ يُهدد الطالب بالطرد إن سأل خارج المؤلف؟ أليس الواجبُ على الأكبر وصاحب اليد الطولى أن يتسع للأصغر، وأن يعطيه الأمان الوافي للسؤال بحرية، والتعبير بما يجوب في النفس؟
١٨٥	أما يسعنا إلا أن نفرض على القريب منا الوقوف على أرض مكهربة تؤذي ثواني وجوده عليها، حتى نسرع في انسحابه وهربه!
١٨٥	وكم جالست من بني الإنسان من هو متصف بالإرهاب

الصفحة	الفكرة
	الفكري، يسيطر على جليسه، وعينه تدور كأنها الشرطه، ما أوقعت بأحد إلا انهار أمامها!
١٩٦	دعاة على أبواب الانحلال يصورون للعالمي أنه أهل للاجتهد ودراسة متون الحديث - لا أسانيد لها - والحكم على الحديث من خلال نقد متنه !
١٩٧	يخاصمك الجاهل بكل يسر: وهل الدين حكر على الشيوخ؟ لا، عزيزي: العلم حكر على من تعلمه فقط، لكن لا يُسمح لجاهله أن يدخل حِمَاه.
١٩٩	البلاغة الدعوية: تحديث الناس بما يفيدهم في وقتهم، بلغة تناسب عقولهم.
٢٠٠	إظهار اختلاف المدارس الفقهية حالة صحية بين المتخصصين والعامة، مع عجنها بروح الشكر لله الذي جعل في الأمر فُسْحَة، أو دراسة أدلة كلا الفريقين دون إسقاط أحدهما أو الميل عليه، ولكن طرحها على العامة لترجيح رأي أو مذهب وإسقاط أخيه سقطةً دعوية.
٢٠٣	ما من إنسان يصغر من رأي مخالفه إلا كان كلامه فتنة على من يكتشف الحقيقة، فَمَنْ تَقَوَّى بالعلم والبحث والمعرفة

الصفحة	الفكرة
	والإنصاف نجا، وإلا قُرْبَ قَتلة كانت على يد محب مغفل، لا حسود ولا مبغض.
٢٠٦	قد تُخْرِجُ الطفل من المسجد اليوم، وتفرش له الأرض ورودًا ليدخل المسجد غداً فلا يستجيب، ولا سيما إذا صار فاسداً ذا نُفُوذٍ، فهيهات أن تهديه!
٢٠٦	لا يُمدَح بالأكاذيب والأباطيل إلا البضاعة المغشوشة، فكيف يرضى بعض الناس أن يمدح المصطفى ﷺ بالأكاذيب؟ أليس عندنا في القرآن والسنة الصحيحة ما يكفي لمدحه؟ فلم اللجوء إلى الأباطيل؟ [من قول الشيخ سعيد بادنجكي].
٢٠٧	ينظم العامي المسكين قصيدة، ويخرط فيها ما يشاء من موضوعات الحديث، وقصص الخيال، وسَمِج الأخبار، وبارد المدح، ثم يذهب بعض العلماء يمنة ويسرة كي يبرروا الكلام، أو يَلُؤُوا عنقه ليقبل.
٢١١	الكافرون غرقى، والداعية منقذ يسحب الهلكى إلى الحياة.
٢١٢	عندما يطرح المري أمام طلابه ما يوافقهم، ويكتم ما يخالفهم فهو المُربِّي بين أيديهم لا العكس، لأنهم يصرحون

الصفحة	الفكرة
	أمامه بكل أفكارهم، أما هو فمُتَسَلِّطٌ عليه، مكتوم على أنفاسه، لا يَنبِسُ بنت شفة إلا بما يروق لهم.
٢١٩	ألا تشعر بعظم أمر القيادة في نظر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عندما تركوا جثمان المصطفى ﷺ عقب وفاته من يوم الاثنين، إلى الأربعاء، فما تم دفنه بأبي وأمي حتى بايعوا خليفة يقودهم!
٢٢٠	ثم إن في الجند مَنْ يجلس آخر الركب وهو راض، وهو القيادي الفذّ، يدعم عمل القائد من موضعه، وربما كان أثره أقوى من القائد، لأنه جندي يعيش مع الجند، وينفذ أوامر القيادة، فلا يَتَّهم بالنفع من بعض الجند.
٢٢٣	في القيادة الدعوية: هناك الداعي الذي صنع مجده بنفسه، والآخر الذي صنعه أمور أخرى.
٢٢٤	لقد كان من أساس بدهيات قيادة الحبيب ﷺ أنه يستشير أصحابه في الأمور العظيمة التي تُهمُّ الأمة.
٢٢٦	اعرف كيف تُكَلِّفُ الدعاة، فبعضهم قيادي، وبعضهم تنفيذي، والتنفيذي إذا وضعته في موضع القيادة شدَّ الرِّكْبَ كُلَّهُ إلى الوراء، كما أن عمل القيادي في التَّنْفِيز يكسِر

الصفحة	الفكرة
	القوانين واللوائح النازمة للعمل في أعين الناس أحياناً، ويُهَوَّنُ في أعينهم ما يعدونه تجاوزاً.
٢٢٧	والحكمة فرز كلِّ متخصصٍ حيث يحسن من العمل والخبرة، ولا فضلَ للقيادة على التنفيذ، كما لا عكس.
٢٢٩	أحد القيادات تحت يدي رسول الله ﷺ هو أبو بكر، وقد أسلم على يديه سبعة من العشرة المبشرين بالجنة.
٢٣١	ويا لهف قلبي على زمان نحن فيه، لا يُنتَقَى الأقوى ليخلف الراحل، بل في كثير من الأحيان لا يُخطط للقادم أبداً، وإنما ينظر إلى الواقع فقط، ويخطط القائد ما يثبت وجوده، فينتقي صفّاً كاملاً من الضعفاء تحته، لأن أول عوامل ثبات القائد في مكانه أن يأتي بعصبة كلهم ضعاف، فهذا ما يرسى قواعد كرسيه، لكن هذه النظرة الدنيوية لا تتماشى مع البعد الدعوي.
٢٣٢	إن لم يكن لديكم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فاصنعوا صلاح الدين من مجموع من الشباب، كل فرد يمثل جانباً من شخصيته، وبمجموعهم يمثلون شخصه الكامل.
٢٣٣	في تدريب الموهوب على القيادة لا بد أن يحضر عند جمهرة من مختلف أصناف العلماء، ولكن حذار حذار أن تسلم

الصفحة	الفكرة
	هذا المدرب إلى المرضى، فإن مُشَامَّة العالم تؤثر في المتلقي سلبيًا وإيجابيًا.
٢٣٤	في إعداد القادة إياك أن تنسى قاعدة: «تُقبَلُ توبته، وتُرفضُ إمارته»، وإن رأيت في التائب مؤهلات في القيادة الدعوية، فإنه لا يصح أن يُسلم مقاليد الدعوة، كأن يتوب العدو اليوم ويكون القائد غدًا، فمن شروط القيادة أن يذوق مرارة الطاعة كما ذاق حلاوة المعصية.
٢٣٤	إن الترقى بين رتبتى «صف ضابط» إلى «نقيب» سهلة، لكن كلما ارتفعت الرتبة شدد عليها، فكيف في العمل الإسلامي؟ أ يصلح من كان صفرًا أن يرفع إلى رأس الهرم في ليلة؟
٢٣٤	ضعفاء التخطيط يعيشون ويتوالدون ويسعدون ويتعذبون، وكل هذا في المخططين أيضًا، ولكن الإسلام حَصَّنَا على التخطيط والنجاح والمشي بعد الدراسة والمدارسة، ولا بد أن تكون نسبة الزلل عند المخطط أقل منها عند المتخبط.
٢٣٤	كلما نَضَجَ المدرب على القيادة أوكل إليه مهمة أعلى من التي قبلها، حتى يصعد درج القيادة درجة درجة، ويصل إلى القمم.

الصفحة	الفكرة
٢٣٤	فاعمل على إعداد القيادات الدعوية، وإمّا تخافن من قوم خيانة فلا تبتئس بما يصنعون، وامض إلى إعداد غيرهم ولا تلتفت، فالتساقطون في الطريق كثير، والتعويل على الثابت النابت، وإنك لا تدري في أي إعدادك البركة، وقل لسحابة التاركين لك: أمطري حيث شئت فإن حَرَاجَكَ سيأتيني.
٢٣٧	وليتسع صدر الداعي لأخيه الداعي إن دَفَعَ الطالبَ إليه ثم رجع، ثم غَيَّرْ ثم بَدَلْ، فهذا كثير الصدور من المتقلبين.
٢٣٨	لا أشك أن بعض الدعاة قد نجح في تربية فئة وجماعة محصورة، ولكن هذا النجاح بقي محصوراً، لأنه مصاب بمرض «القُصور الدعوي»، فهو لا يعرف إلا من سبقت معرفتهم، فلا يخرج عنهم، ولا يتواصل مع غيرهم.
٢٣٨	ومن سلبيات عمل المربي مع جماعته المحصورة عدم التطلع واستهداف شرائح غير التي بين يديه، ويضيق أفق تفكيره الدعوي، وتُقَصُّ جناحا طموحه، بحيث لا يهيمه مخالفة المخالف، بل ربما يصل إلى استعداد الفئات غير المستهدفة، أما عندما يصبح الناس ممن يستهدف، ويرى عندهم مخالفة مقبولة، فإنه يتسع لهم.

الصفحة	الفكرة
٢٣٩	سيقف الداعي إلى الله تعالى على أهمية تجديد الشريعة، ويرى أن المستهدفين لديه كالماء، إن سال طاب وإن لم يجز لم يطب.
٢٤٠	من أين يأتي بمثل شيخه من تربى عند شيخ خطيب مضجع، عالم متمكن، أكاديمي قذ، مؤصل عند العلماء، يجمع بين الفقه والفكر والسلوك والتربية والدعوة والحركة.
٢٤١	ليحذر ثم ليحذر من أن يصل رفض النصح إلى الجندي الصاعقة، بحيث يرى نفسه أنه لا يُعترض عليه، ولا يسأل عما يفعل، ولا يُناقش في آرائه، فهذا مرض سريع العطب بل الوفاة عن الجماعة.
٢٤٢	لا أعرف داء في الجندي المتميز أكبر من أن يرى نفسه فوق معلمه، وأنه أكبر من قائده، فإذا وصل البلاء هذا الحد بكى وأبكى، ويكون قد اشتدت عليه النرجسية.
٢٤٣	ومن داء بعض المتميزين أنهم يتوهمون أنفسهم أكبر من حجمها، ولا سيما إذا صاحب هذا مدح وثناء وتكبير من قبل القيادة العليا، فربما يصاب الجندي بداء الانتفاخ، وللأمر أدوية كثيرة، ولكن من أهمها: علاج الورم بتقليل

الصفحة	الفكرة
	أسبابه.
٢٤٤	إن أعظم بُغْيَةٍ يصل إليها أعداء الداعي غالبًا ما تكون عن طريق إذاعة سرٍّ، وربما يكون سببًا في تدميره أو تدمير دعوته، فلذا جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة في التركيز على حفظ الأسرار.
٢٤٦	أَلَا فَلْتُنْخَلْ الصداقات، وَلْتُخْتَبَرْ الأُخُوَّةُ بمعايير الاختبار المحمدية قبل التوسع في العلاقات والأسرار.
٢٤٩	وعند ترك المتخلف عن الركب ومتابعة السير سيَتَّهَمُ الداعي بأنه متقلب، يقطف ثمرات الناس ويتركهم، ولكن الله يعلم المفسد من المصلح، فدع الناس يشغلون أنفسهم بك، واشتغل بالله تعالى.
٢٤٩	في طريق الدعوة أشواك مؤذية، منهم أناس يتربون مع فئة من الناس، وقد انتسبوا إليهم حيث لم يكونوا شيئًا مذكورًا، وبعد مدة فتقت أمعاؤهم ونشزت عظامهم من تلك الجماعة أو شيخهم، لكن العقل لم ينضج، مع إصابة القلب بقصر النظر، ففي هذا الجسد عافية وعلة، ونضج مع تشوه، وفي هذه الحالة ينشق الفرد عن الشيخ أو الجماعة، وينقلب عليهم، ويقلب معه ظهر المجن.

الصفحة	الفكرة
٢٥٢	النقد إما لأمر ذاع وشاع، وهذا يتداوله العلماء، ويُعطى للعامة بقدر فيه حذر كبير، وإما لأمر مستور فهذا دفنه أولى، وما أشبه هذا بالمولود الذي ولد ميتًا، وإكرام الميت دفنه.
٢٥٤	أشبه بعض المُعَيَّرِينَ لمسار الدعوة بالعابث الذي يجلس جانب سائق السيارة، ويميل بين الفينة والأخرى نحو السائق ويحرف مسار السيارة إلى ما لا يريده السائق، فمن استجاب لهذا المُتَطَقِّلِ وأذعن ولم يقاومه غير طريقه، ومن زجره ونهاه، وحجزه عن مراده استطاع أن يمضي نحو هدفه.
٢٥٥	ومن طلاب العدل من يشتهي شهوة، حتى إذا طُبَّقَ عليه كان من الحُمُرِ المستنفرة، فَرَّتْ من قَسْوَرَةٍ، فأَيُّ طلب للعدالة يريد؟ كأنه تخيّل العدالة أن يشارك الملوك قصورهم من غير تعب، وأن يحظى بالبساتين هبة، وما عرف أن من العدل أن يُعاقب ويُعاتب ويُجلس على كرسي القصاص، لرد ما ظَلَمَ به الناس.
٢٥٨	الداعي هو من يحدّد الواجبَ طرْحُهُ في الزمان والمكان، ويتكلم بما يحتاجه الجمهور لا بما يطلبه الجمهور، وله أن ينفذ إلى قلوبهم بما يطلبه الجمهور في طرف يسير لشد

الصفحة	الفكرة
	أنظارهم، ثم يرسل رسالة ما يحتاجه الجمهور، فتكون الفكرة الأولى مطية للأخرى.
٢٦١	هيهات أن يكون مصدر أخبار أُمِّي من عَدُوَّاتِهَا، فكيف أصدق كلام الحاقد في الصادقين من إخواني، وكيف أعادي أخًا وأغَيِّرَ حكمي عليه من أجل ما يشاع عنه على لسان العدو الماكر!
٢٦٥	- إذا كان الإسلام يطلب اللين بيد الأخ عند الاصطفاف إلى الصلاة، أفليس اللين مطلوبًا أكثر في سائر الحياة، فرحًا وترحًا، سفرًا وحضرًا، ولقد قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد أرسلهما إلى اليمن معًا: «وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا».
٢٧٠	الاستفادة من الأسلوب أمر رائع، ولكن لكل شخصيته وطريقته في التربية والتعليم والإشارات والحروف والأمثلة، وقد تكون في شخص مَزِيَّةٍ، فإن تقلَّدها غيره أصبحت مَدَمَّةً وَسُخْرِيَّةً.
٢٧٠	والعاقل من عرف نفسه أنه مخطوطة فريدة، وليس لها أي نسخة في العالم، وله أن يستفيد من أسلوب غيره بصورة عامة.

الصفحة	الفكرة
٢٧٣	الفطن يعلم: أن تطوير الطالب أفكاره وتعديله عما ورثه من شيوخه حالة صحية ضرورية، وأن المرض يكمن في حالتين: ١- التقليد الأعمى. ٢- الارتداد بشراسة وسوء أدب عما تَرَبَّى عليه، كمثّل الذي تبرأ من تربية أبيه.
٢٧٣	فكن داعياً يجمع الرحيق من كل الشيوخ، ليخرج منه شراب مختلف ألوانه فيه هدايةً للناس، لا يشبه عسلُ دعوته عسلًا آخر، ولن يغني فرد عن صديقه، والعلماء كالأزهار، لكل زهرة لون وريح مختلف عن الآخر.
٢٧٣	ومن الناس مَنْ عقيدته وتعليمه يتبعان منفعتهم الشخصية، ولو تحولت الفائدة من جهة إلى أخرى لتحول المُعْتَقَد، ولو تغيّرت العُصْبَة المستمِعة له، أو المسجد ورؤاؤه، أو البلد وأهله لتغيّر جذريًا.
٢٧٣	لقد حَذَّرَ العلماء كثيرًا من سوء نفاق العالم للحاكم، وذلك لشيوع هذا الأمر في الزمن الأول، ولكني في زمن أصبح من الواجب علي أن أقول: نفاق الضعيف للأقوى، أو نفاق ذي الحاجة لمن يحتاجه.
٢٧٦	وما حيلة الداعي إلا الموازنة في إلقاء الخطاب، حتى تصل

الصفحة	الفكرة
	رسالةُ الله تعالى دون تشويه ولا بَتر ولا تحريف، ويحافظ على السامعين من أن ينفروا أو يتركوا التدين من سماع الكلم الذي لا تحبه نفوسهم.
٢٧٦	بئس الإمام من يتحرك بأوامر مقتديه، فلا يركع حتى يشير إليه المصلون أن اركع، ولا يرفع إلا بإشارة، فمن لم يكن أهلاً للاستقلال عن أوامر الدَّهْمَاءِ فلينفذ يديه من عَنَاءِ الدعوة، فإن الدعوة لا ترضى أن تجلس مكان الصَّغَارِ، ولا تدخل ظلماتِ الشهوات.
٢٧٧	كن على المنهج الإلهي في تبليغ الدعوة، فإن أعجبهم حسنها فسبحان من سخر قلوبهم، وإن لم يكن كذلك، فلا تحرف بُوصِلَةَ عملك، ولا يغرك كثرة المُصَفِّقِينَ لحديثك، فليس النجاح مبنياً على العدد، ولكن انظر إلى نوع القادح أو المادح، فلا يُهْمُّكَ من الذي مُدِّح، إنما يُهْمُّكَ مَنْ الذي مَدِّح!
٢٧٧	قد يسمع الداعي الرصين النقد من جهلة العوام فتبتئس نفسه، أو يسمع المدح من محب شُغُوف فَتَرَكَّنَ، وكلاهما مرضان، فلا المدح بناء على القرب نافع، ولا الذم من جاهل مؤثر.

الصفحة	الفكرة
٢٧٧	لا عجب أن ترى سبّاق الدراجات الهوائية الماهر غير قادر على قيادة دراجة في حارة صغيرة، فإن أحببت الإفادة منه فهبّ له المكان المناسب، وإياك أن تتوهم قدرته على المكان الصغير، قياسًا على المكان الأكبر.
٢٧٩	المهارة في الدعوة هو انتقاء الأصلح للمكان والزمان والمتلقين، وليس بالضرورة أن يكون الأعلّم أو الأكبر أو الأخبر أو الأكثر تميزًا على الإطلاق.
٢٨١	والهدم أمر هين، لكن البناء هو الصعب، فمن شاء فليقارن بين كسر الزجاج وصنعه، أو صنع سيارة وتخطيطها، فمن ذا الذي لا يحسن زرع الشبهات في الناس، أكان هذا صعبًا؟ إيداع الشكّ سريع مرن يسير، ولكن ما أصعب قلعه!
٢٨١	إن اللبّاقة لأمر ظاهره السّهولة، وحقيقته عند الأزمات صعبة، وأصعبها إمرار الكلام في حارة ضيقة من المخالفات، من غير خدش جذران الأخوة يمّنة ولا يسرة، فأين المحسن والمتبني لها؟
٢٨٣	الأسلوب الذي ظاهره الموافقة، وحقيقته عين المخالفة يجبر

الصفحة	الفكرة
	كسر القلوب، ويمنع بناء الحاجز عن قبول الحق.
٢٨٥	والفطن العامي يقول: لا يهمني أبدًا أن أعرف مِنَ الطبيب والصيدي مركّبات الدواء وآراء الكبار في آثاره الجانبية، واختلافاتهم، وإنما المهم أن أعرف هل أتناوله أو لا.
٢٨٦	من أكبر عيوب الداعي أن يبقى على شخصية واحدة في أماكن مختلفة، فبعضها يصلح لمكان لا يصلح لغيره.
٢٨٨	النية الحسنة تشفع في بعض الزوايا، ويلتمس العذر لصاحبها من جانب، ولكن هيهات أن يُقَرَّر على فعله بتمامه.
٢٨٨	لقد نَفَرْنَا مِنَّا من دين الإسلام وهو من ذوي السرائر الصافية، والنوايا الكريمة.
٢٩١	إن أيَّ باب دعوي يُحْتَاج إليه، ولا يُفْتَح على يدي الدعاة والعلماء بضوابطهم الشرعيّة فإنه سيكسر كسرًا، ويحطّم دون رجعة.
٢٩٤	معاذ الله أن أفتي بالكلمة اللينة بدل إقامة حد الزاني المحصن، ولكني طلبت الكلمة الناعمة في موضع أعتقد أن الناس أغلظوا، وزادوا ومالوا، وصالوا وجالوا في صحراء

الصفحة	الفكرة
	بذاءة اللسان.
٢٩٥	ولطالما حدثك عن وحدة الأمة، وأظهر الحرقه على وحدتها، وليس مستعدًا أن يتزحزح من مكانه عقدة إصبع واحدة، عن أيّ وحدةٍ تتكلم؟ لقد عرفتُ الآن أن الوَحْدَةَ التي يبكي عليها وينشدها ويتبجح بها صباح مساء هي اتباع الناس له في كل ما ذهب إليه، ويرى أن الأمة لو اتبعته بأجمعها لتوحدت.
٢٩٩	فلا والله، ليس حفيد الطبيب طبيبًا، ولا سبط المحامي محامياً، فكيف يكون ابن العالم كأبيه أو جده إن لم يقل: هأنذا، ويقدمُ خيرًا كما كانوا يقدمون، حتى يكون مستحقًا للتعظيم، أو اللقب، أو المكانة!
٢٩٩	من أتعس أنواع الغرور ظن الإنسان نفسه أنه محور مكان أو زمان أو فتوى أو عمل، ويسرح به خياله ليدور في فلك نفسه.
٣٠٣	العيش مع المُتَحَدِّين كالمشي في حقل مِلْؤُه الألغام، وهو صعب شاق، لأنك لا تعرف كل لُغْم أين دفن، لكن الألغام في درب الدعوة يمكن المشي بينها غالبًا.

الصفحة	الفكرة
٣٠٥	عند تعارض قوة المنطق ومنطق القوة فإن منطق القوة يغلب مؤقتًا، ثم تكون العاقبة لقوة المنطق.
٣٠٥	العاقبة لمن أثبت الحجة في قوله، والمقنعُ نَقَازٌ للقلوب، أما المتسلِّطُ مُجْبِرٌ على الطاعة، حتى إذا قوي الضعيف أمامه، أو خارت قُوَّةُ القوي رأيت المعادلة قد انقلبت، وتبادل الفريقان مكانهما، وأصبح الضعيف قويًا، وحدث عن الانتقام بكل وجوهه بلا حرج.
٣٠٥	فن الخطاب في الشدائد: هو اتخاذ خطاب محكم: ينبئ عن المعتقد الداخلي، وليس بين الداخل والخارج لدى المتكلم انفصام.
٣٠٨	في كل دولة من الدول سرعة محددة للدعوة، فلا يسمح بتجاوزها أبدًا، ولو أن الدعاة اجتمعوا على بكرتهم وتكلموا في العلن لاستطاعوا أن يرفعوا أصواتهم بثمانين بالمئة مما يقولونه في السر.
٣٠٨	تشرَّب أعناق بعض الدعاة إلى القدر المحظور، فلا يعجبه المسموح من السرعة الدعوية في بلده فيتجاوز إلى المئة، ويكون مصيره باقي حياته السجن والعذاب، وكثير من الأنفس تميل إلى تقديس هذا النوع.

الصفحة	الفكرة
٣٠٩	في كل دولة لديها لُغْمٌ واحد في آخر الطريق ينادون عليك بأرفع صوتهم إياك أن تقترب، ولكن قبل أن تصل إليه قد وضعوا ألغامًا كثيرة غير مهمة، ولو أن أحدها انفجر فإنه لا يقطع عنقًا، ولا يَبْتُ رِجلاً، ولا يُجْهِز على جسد.
٣١٢	المشي في حقل ألغام الدعوة ممكن، وفيه صعوبة، ولكن يحتوي على الإنجاز، وهو مسارٌ قَلَّ مَنْ يسير فيه، ولا يسلكه إلا الأبطال، وما أقلَّهم والله.
٣١٣	لئن تفنَّنَ الناس وتحايَلُوا في طرق الوصول إلى النار، وبثَّ دعوتهم الضالة، لنحن أولى بهذا التفنن وأهله للوصول إلى الله، لنقول لرب العالمين: فبعزتك لَهْدِيَنَّ الناسَ أجمعين.
٣١٣	إن خيط الحرير لينُّ الملمس، ولكن من سحبه على يده بسرعة جرحها، وهكذا يجب أن يكون الداعي مع المعارضين الشرسين، لا يظهر منه غضب، ولا صَخَب، ومعاذ الله أن يكون منه الأسوأ والأرذل كالسَّبَابِ والقَذْفِ، ولكنه يجرُّ من التُّعومة، وقد يبتري إصبع مَنْ شَد عليه.
٣١٥	المزارع يحمل بيده حفنة من قمح، وينثرها في أرضه، فما كل

الصفحة	الفكرة
	حبة تنبت ولا تنتج، فمنها من يأكلها النمل، ومنها التي تتعفن، وفيها ما لا تغمر في التراب أصلاً، ومنها ما تنبت ولا يتم نتاجها، والأكثر يعلو بسنبله، ومنها حبات تنبت سبع سنابل، في كل سنبله مئة حبة.
٣١٧	من العبث أن تطالب الثرثار بالعمل، فلو أحسن العمل لأحسن الكف عن تخطيط المنجز، وأحسن إعدار الناس، لأنه يعيش صباح مساء في العقبات والتحديات، فعرف قيمة الإنجاز.
٣٢٢	العيش مع المعارضة ثورث الإبداع، وتعلم التحايل على الشدائد.
٣٢١	الطفل الذي ينشأ في بيئة الشدائد يتعلم مقاومة مصاعب الحياة، وكيفية الحصول على رغيف الخبز.
٣٢١	انظر إلى عظماء العالم ستجد فيهم الكثرة من الأيتام، وذلك بسبب فقدان التراخي والفتور، الذي يصيب مَنْ لديه أب يحمل همّه، ويصرف عليه الأموال، ولا يكلفه شيئاً من أعباء الحياة، ولن أطيل في ذكر الفرق بين مَنْ كان اعتماده على الأب، ومن كان اعتماده على الرب.
٣٢٢	الإبداع في الرد على المعارض: وهو اتخاذ الداعي قاموساً

الصفحة	الفكرة
	شاملاً، بل غير متناه في الرد على المعارض، بحيث يضع الكلمة اللينة في مرحلتها، ويستبدل بها غيرها عند اللزوم.
٣٢٥	ليس في الإسلام غرفة بلا باب ولا نافذة.
٣٢٥	أيرضى لي الشرع أن يَحْضُرَني عدوي بين خيارين أحلاهما مرّاً، وأصفاهما سقماً، ولم يتح لي هذا الشرع العظيم رخصة أترخّصُ بها؟
٣٢٩	الكلام في القواسم المشتركة خير من السكوت والاعتزال لمن لا يحسن أو يستطيع الكلام عن العظام.
٣٢٩	شر أنواع المعارضين وأشرسهم وأسوؤهم المعارضون المندسّون في صفوف الداعي، يظهرون أمام الناس أنهم منه، ويعملون على هدم ما بينيه وتسريب أسرارهِ.
٣٣١	لَدَى التَّجَرِّبَةِ تجد أن أكثر ما يُبْطِلُ عمل الكائدين هو الدفع بالتي هي أحسن.
٣٣٣	وما يدري كثير من الناس أن الرد المباشر على العدو يكون أحياناً أكبرَ عاملٍ مقوّ لعمل المعارض، أما الإعراض فإنه إضعاف، ولكن الدفع بالتي هي أحسن إبطال وإحباط.
٣٣٣	وتجد في بعض المواضع ردوداً أشد من الإعراض، وهي من

الصفحة	الفكرة
	الدفع بالتي هي أحسن، ألا وهو الرد المفهوم لكلا الطرفين، الذي ظاهره النعمة، وباطنه السمُّ الرُّعاف.
٣٣٥	العزلة حل رائع لمن صرَّح له خصمه بالعداء، فيتخذ القرار باعتزال المقاتلين، ليتفرغ الداعي إلى غيرهم، وليس ليستقيل من الدعوة أصلاً، كاعتزال سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه.
٣٣٧	استعمل أسلوب التورية في الخطاب مع الخبيث، وهو الرد الذي ظاهره الحسن، وحقيقته مقصودة من الملقى، ومفهومة لدى المتلقي.

المحتويات

٥.....	تقريظ العلامة المحدث الشيخ صلاح الدين الإدلبي
٦.....	تقريظ العلامة أ.د. أحمد معاذ علوان حقي العلواني
٨.....	تقريظ فضيلة العلامة الشيخ سلمان أبو غدة حفظه الله تعالى
٩.....	تقريظ العالم الداعي إلى الله الدكتور عبد الجواد صباغ
١٢	مقدمة المؤلف
٢١	فهم الدعوة
٢٢	طريق الدعوة متعب
٢٣	أ - حُفَرُ فِي الطَّرِيق
٢٣	ب - بُنَيَّاتِ الطَّرِيق
٢٤	لست الوحيد في الميدان
٢٦	لا يستوون
٢٦	ليسوا سواء
٢٨	تَعَمَّقْ فِي تَحْلِيلِ الْمَشْكَلاتِ وَإِلَّا سَقَطَتْ نَتِيجَتُكَ
٣١	ليست الوحيدة، ولكنها القاصمة
٣٢	الموقف، وطريقة عرض الموقف، وتفسير الموقف
٣٤	قَطَّعُ الْمَوْقِفَ عَنْ جَذَرِهِ وَمَا يَلُودُ بِهِ
٣٥	من سنن الله في مشروعك

- ٣٦ سنن في ذات الدعوة:
- ٣٧ سنن في الدعاة:
- ٣٨ سنن في المدعوين:
- ٣٩ الفتوى كالثوب يصلح لأجساد دون أخرى
- ٤١ فيروس الرضا الدائم، أو المجازفة في المدح
- ٤٣ فيروس الاعتراض الدائم
- ٤٦ مريض مسكين تحت يدي طبيب غرّ
- ٤٨ عامي حاذق نجا من التضليل
- ٤٩ البيئة المتنوعة
- ٥٠ العداء المدرسي
- ٥١ الولاء المدرسي
- ٥٢ ذم المدارس الدعوية من الكبير
- ٥٣ التوازن الخطابي
- ٥٦ التوازن السلوكي - أخو التوازن الخطابي -
- ٥٧ طرُحُ الشبهة على المعافي منها
- ٦١ ظلال الدعوة
- ٦٢ صيدلية الفقيه
- ٧٢ الأخذ بأضعف الأقوال خير من الخروج عن حكم الإسلام
- ٧٤ مَسَحٌ على الجوربين خَيْرٌ من ترك الصلاة!
- ٧٧ إحياء سنة وتوليد فتنة
- ٧٨ تسويق رأي وقتل أخيه

- ٨١..... لم قلتُ: قتل أخيه؟
- ٨٢..... حوار بين شينخي وأحد طلبة العلم.
- ٨٤..... استمتع بالخلاف فإن للرأي الآخر وقتًا وسائلاً يحتاجه.
- ٨٥..... إذا خيّر بين أمرين..
- ٨٨..... يفتي بها أربابها.
- ٨٨..... الأول: أجل الفتوى في بعض الحالات على من يعيشها.
- ٨٩..... الثاني: لا يفتي بأهل بلد خاص من كان خارجاً عنها.
- ٩٢..... تكرار المكرر.
- ٩٤..... جَعَجَعَةً ولا إبداع يَشُدُّ النظر.
- ٩٥..... التميّز في الطُّرق الفارغة.
- ٩٦..... مبالغات قاتلة.
- ٩٧..... حوار مع سُني متطرف.
- ٩٩..... أهو سوق مزاد!
- ١٠٣..... تقديم الدعوة.
- ١٠٥..... ابدأ بواجب الوقت في الدعوة.
- ١٠٦..... أدار الوقت فأفلح، وأهدره أناس فخابوا.
- ١١٢..... بين ساذج العقل و شيطان الفكر.
- ١١٣..... لا تمزق تتمة دفترك.
- ١١٦..... التوبة لمن سقط في الذنب، لا لمن يخطط له.
- ١١٧..... حدثهم بما يفيدهم اللحظة.
- ١١٩..... طَرَحْ يُكْفَرْ، وآخر يُدَمَّر.

- ١٢٢..... إجبار لم يُرَبِّ نفسًا، ولكنه عَقَّد حياة
- ١٢٦..... النقد المنضبط المحدّد الشحيح
- ١٢٨..... نقد شحيح كأكل الميتة للمضطر
- ١٣٠..... حق نخاف من ظلاله
- ١٣٢..... سحور متعددة
- ١٣٩..... العلاقة مع الدعاة
- ١٤٠..... غُضُّ البصر الدعوي
- ١٤٤..... علاقة مع الخطّائين، لا مع المرسلين
- ١٤٤..... لَوْ نُزِّلَ النظارة تَحْكُم
- ١٤٧..... حربك واحدة فلا تتعدّها
- ١٤٩..... دعاة أضاعوا البوصلة
- ١٥٠..... انسحاب خير من غرق
- ١٥٢..... خاصم في العلم ففجر
- ١٥٥..... محاربة المبتكر، وإقرار التقليدي
- ١٥٦..... عدااء مُتَوَهَّم
- ١٥٨..... ذمه من باب الاحتياط
- ١٥٩..... مقلّد يَعِيبُ على مُقلّد!
- ١٦١..... النائم لا ينقد الحارس السهران
- ١٦٣..... فمن يحق له النقد إذن؟
- ١٦٥..... المراهقة الدعوية
- ١٦٨..... ليس في الدعاة من ولد في سن الرشد والساداد

- لا تنس رقم مقعدك ١٧٠
- العلاقة مع المدعوين ١٧٧
- ابحث عن مفتاحه الصحيح ١٧٨
- الأمن الصادق لاستيراد وتصدير المعلومات ١٨١
- الأمن النفسي والفكري في الحوار ١٨٣
- حوار مع البعيد، وإرهاب للقريب ١٨٥
- لِمَ سميت: الأمن الصادق؟ ١٨٦
- انظر من اتجاه المخالف لا اتجاهك ١٨٨
- لا يزيل القمع شبهة ١٨٩
- علمني شيخي فأحسن تعليمي ١٨٩
- سوق قَمْع لأن البائع جاهل ١٩٢
- بين التهويل والتهوين ١٩٤
- عَصْرِيَّة لا حَجْرِيَّة ١٩٧
- قتل الدين لدى الناس ٢٠٠
- تَقْزِيم المخالف ٢٠١
- لكلَّ وَجْهَتُهُ التي يحاسبه الله عليها ٢٠٤
- أدب لا يريده الله! ٢٠٥
- مزايدة لا يحبها الخالق ٢٠٦
- عرَّف السامع أنه سلعة غالية ٢٠٨
- ولا يحزنك تهديدُهم ٢١١
- الطريق الأوعر هو المؤدي إلى النجاة ٢١٣

- ٢١٧..... القيادة الدعوية
- ٢١٩..... لا جماعة بدون قائد
- ٢١٩..... أقسام الناس إلى قادة وأتباع ومُخَرَّبِينَ
- ٢٢٢..... القائد القدُّ
- ٢٢٣..... الفرق في القيادة بين من تقدم ومن قُدِّمَ
- ٢٢٤..... أهم أعمال القائد
- ٢٢٦..... القائد الأعلى يعين القيادي والتنفيذي
- ٢٢٧..... فرض القيادة الجزئية على التنفيذي
- ٢٢٧..... القائد لا يترك مكانه شاغراً
- ٢٢٩..... إعداد الخلف من القيادات
- ٢٣١..... انتقاء الأقوى للخلافة
- ٢٣٢..... قيادة متفرقة لها وجه واحد
- ٢٣٥..... القائد يعيِّن القائد ومن يخلفه
- ٢٣٦..... لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ
- ٢٣٧..... دفع الطالب إلى الأصلح له، بعد دراسة شخصيته
- ٢٣٨..... القُصُور الدعوي
- ٢٣٩..... قائد صاعقة
- ٢٤١..... جندي صاعقة
- ٢٤١..... من ذا الذي لا يسأل عما يفعل من الناس؟
- ٢٤١..... قتل الصاعقة
- ٢٤٢..... شعور الجندي أنه أكبر من معلمه

- ٢٤٣..... علاج المنتفخ تغيير المهام أو تقليصها
- ٢٤٣..... بعض أفكار القائد لا تنشر
- ٢٤٧..... القيادي والانقلابات
- ٢٤٨..... المتخلفون يُسَاعِدُونَ مرات ثم يُتْرَكُونَ
- ٢٤٩..... المنقلبون عليك
- ٢٥٠..... خطأ القائد بألف
- ٢٥١..... توجيه المركب الدعوي
- ٢٥١..... البعد النفسي لدى العامة
- ٢٥٢..... للقيادة أمراض كثيرة
- ٢٥٤..... تحكُّم الجمهور بالقيادة
- ٢٥٦..... ما يحتاجه الجمهور لا ما يطلبه الجمهور
- ٢٥٨..... مستوى خطاب الضعفاء
- ٢٥٩..... وَغَيَّ القِيَادَةَ في مصدر المعلومات
- ٢٦٣..... سلوك الداعي
- ٢٦٥..... أحسن ما ورثه الشيوخ
- ٢٦٦..... النمو السرطاني
- ٢٦٩..... أنت مخطوطة فريدة، وغيرك كذلك
- ٢٧١..... خطيب أبكى وآخر أضحك
- ٢٧٢..... الجمع بين الانتماء واليقظة وظيفته
- ٢٧٣..... النفاق للعوام وأمثالهم
- ٢٧٥..... أَقْدَمَ فاحترق، ثم تَقَدَّمَ فَاخْتَرَقَ

- ٢٧٧ فلا يغرك مكاؤهم وتصديتهم
- ٢٧٧ سبّاح المحيطات أخفق في بركة
- ٢٧٩ لكن عون الله استنقذه
- ٢٨٠ الاتهام المعلن لمن يسأل خارج المؤلف
- ٢٨١ أسلوب الموافقة المفضي إلى المخالفة
- ٢٨٣ عقلية الاحترافية في غير موضعها
- ٢٨٥ قبعات الداعي إلى الله
- ٢٨٧ إن منا منقرين وهم يريدون الخير
- ٢٩٠ غيور ساكت خير من أحمق لسن
- ٢٩١ باب كنت سبب كسره
- ٢٩٣ جرائم دعوية
- ٢٩٧ فن صناعة العاهات
- ٢٩٩ الشعور بالأهمية والتميز
- ٣٠١ الدعوة مع المعارض
- ٣٠٣ مقدمة
- ٣٠٤ في الخطاب الدعوي للرد على المخالف أو المعارض
- ٣٠٤ من صفات أعداء الإصلاح
- ٣٠٥ معارض فكر ومعارض بطش
- ٣٠٥ فن الخطاب في الشدائد
- ٣٠٨ لا تتجاوز السرعة المحددة
- ٣٠٩ المشي بين الألغام ممكن

٣١٠.....	المقدام الأملعي اليقظ
٣١٢.....	التحايل على الظلام لإشعال النور
٣١٣.....	عامل المعارض بخيط من حرير
٣١٥.....	أنت كالمزارع
٣١٧.....	من فن التعامل مع الجاسوس
٣١٨.....	لن يروي ماء الملح عطشان أبداً
٣٢٠.....	الفارس لا يهتك ستر أهله
٣٢٢.....	الإبداع في الرد على المعارض
٣٢٣.....	الاستسلام للعدو المحاصر خوراً وتحقيق لمخططه
٣٢٥.....	ليس في الإسلام غرفة بلا باب ولا نافذة
٣٢٦.....	خوف الداعي من النفاق للظالمين
٣٢٧.....	البعد عما تتبناه السلطات السياسية وما تعاديه، إلا عن قناعة يقينية
٣٢٨.....	الدعوة بالقواسم المشتركة في ظل هيمنة العدو
٣٢٩.....	طمأنة العدو بما تعتقده وهو يعتقد
٣٢٩.....	أشرس المعارضين
٣٣١.....	قواعد التعامل مع المعارض
٣٣٣.....	الرد الناعم السام
٣٣٤.....	اعتزال الدعوة
٣٤١.....	صفوة الكتاب
٣٨٤.....	المحتويات

للتواصل مع المؤلف: +905340559301

منصات التواصل الاجتماعي

